THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

190191

مهاتما غاندى

نشأته وعمله فى جنوب إفريقية

من سيرته كما كتبها بقلمه ونشرها مستر اندروز الانجليزى أحدمريديه

ترجمة

اسماعيل مظهر

سنة ١٩٣٤

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر


HALABY & Co
اتقن
مطبعة في الشرق
دار احياء الكتب العربية
بمصر

الإهداء

مع كثير من المحبة والعطف

إلى الدكتور بهادر سنغ وزوجه

وإلى المقيمين من بني جلدتي بجزائر الهند الغربية

قصيدة شوقي بك

في غاندي — بطل الهند

نمهد لهذا الكتاب بالقصيدة الفريدة التي حيا بها المرحوم شوقي بك غاندي عند مامر بمصر في طريقه إلى انجلترا ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة ، تحية من مصر إلى بطل الهند .

بَنِي مِصْرَ ارْفَعُوا الْغَارَ وَحَيُّوا بَطَـلَ الْهِنْدِ
وَأَدُّوا وَاجِباً وَاقْضُوا حُقُوقَ الْعَلَمِ الْفَرْدِ
أَخُوكُمْ فِي الْمُقَاسَاةِ وَعَرْكِ الْمَوْقِفِ النَّكْدِ
وَفِي التَّضْحِيَةِ الْكُبْرَى وَفِي الْمَطْلَبِ وَالْجَهْدِ
وَفِي الْجُرْحِ وَفِي الدَّمْعِ وَفِي النَّفْيِ مِنَ الْمَهْدِ
وَفِي الرِّحْلَةِ لِلْحَقِّ وَفِي مَرْحَلَةِ الْوَفْدِ
قِفُوا حَيُّوهُ مِنْ قُرْبٍ عَلَى الْفُلْكِ وَمِنْ بُعْدِ
وَغَطُّوا الْبَرَّ بِالْآسِ وَغَطُّوا الْبَحْرَ بِالْوَرْدِ

***

عَلَى افْرِيزِ رَاجِبُوتَا نَ تِمْثَالٌ مِنَ الْمَجْدِ

نَبِيٌّ مِثْلَ كُنفُو شيو ... سَ أَوْمِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ
قَرِيبُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ... مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمَهْدِى
شَبِيهُ الرُّسْلِ فِي الذَّوْدِ ... عَنِ الْحَقِّ وَفِي الزُّهْدِ
لَقَدْ عَلَّمَ بِالْحَقِّ ... وَبِالصَّبْرِ وَبِالْقَصْدِ
وَنَادَى الْمَشْرِقَ الْأَقْصَى ... فَلَبَّاهُ مِنَ اللَّحْدِ
وَجَاءَ الْأَنْفُسَ الْمَرْضَى ... فَدَاوَاهَا مِنَ الْحِقْدِ
دَعَى الْهِنْدُوسَ وَالْإِسْلَا ... مَ لِلْأُلْفَةِ وَالْوُدِّ
بِسِحْرٍ مِنْ قُوَى الرُّوحِ ... حَوَى السَّيْفَيْنِ فِي غِمْدِ
وَسُلْطَانٍ مِنَ النَّفْسِ ... يُقَوِّى رَائِدَ الْأُسْدِ
وَتَوْفِيقٍ مِنَ اللهِ ... وَتَيْسِيرٍ مِنَ السَّعْدِ
وَحَظٍّ لَيْسَ يُعْطَاهُ ... سِوَى الْمَخْلُوقِ لِلْخُلْدِ
وَلَا يُؤْخَذُ بِالْحَوْلِ ... وَلَا الصَّوْلِ وَلَا الْجُنْدِ
وَلَا بِالنَّسْلِ وَالْمَالِ ... وَلَا الْكَدْحِ وَلَا الْكَدِّ
وَلٰكِنْ هِبَةُ الْمَوْلَى ، ... تَعَالَى اللهُ ، لِلْعَبْدِ

***

سَلَامُ النِّيلِ يَا غَنْدِى ... وَهَذَا الزَّهْرُ مِنْ عِنْدِى
وَإِجْلَالٌ مِنَ الْأَهْرَا ... مِ وَالْكَرْنَكِ وَالْبَرْدِى

وَمِنْ مَشْيَخَةِ الوَادِى ومن أَشْبَالِهِ المُرْدِ
سَلاَمٌ حَالِبَ الشَّاةِ سَلاَمٌ غَازِلَ الْبُرْدِ
وَمَنْ صَدَّ عَنِ المِلْحِ وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَى الشَّهْدِ
وَمَنْ يَرْكَبُ سَاقَيْهِ من الْهِنْدِ إِلَى السِّنْدِ
سَلاَمًا كُلَّمَا صَلَّيْتَ عُرْيَانًا وَفِى اللِّبْدِ
وَفِى زَاوِيَةِ السِّجْنِ وَفِى سِلْسِلَةِ القَيْدِ

***

مِنَ المَائِدَةِ الخَضْرَاءِ خُذْ حِذْرَكَ يَاغَنْدِى
وَلاَحِظْ وَرَقَ السِّرِّ وَمَا فِى وَرَقِ اللُّورْدِ
وَكُنْ أَبْرَعَ مَنْ يَلْعَبُ بِالشَّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ
وَلاَقِ العَبْقَرِيِّينَ لِقَاءَ النِّدِّ لِلنِّدِّ
وَقُلْ هَاتُوا أَفَاعِيكُمْ أَتَى الحَاوِى مِنَ الْهِنْدِ
وَعُدْ، لَمْ يَحْفِلِ الذَّامُ وَلَمْ يَغْتَرَّ بِالْحَمْدِ
فَهَذَا النَّجْمُ لاَ تَرْقَى إِلَيْهِ هِمَّةُ النَّقْدِ
وَرُدَّ الْهِنْدَ لِلأُمَّةِ مِنْ حَدٍّ إِلَى حَدِّ

ديباجة

صورة بقلم الناقل

امبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها . فكرة الأرض تحمل من ألوانها الجغرافية زناراً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ، ولسلطانها يخضع الأبيض والأسمر والأصفر والنحاسى والأسود من سلالات البشر . وفى داخل أملاكها تدين أقوام بصور من الأديان وألوان من العقائد لا يحصرها العد، وينطق بلغات وألسنة تمثل ما يلبلبل الله من لهجات أهل الأرض فى بابل القديمة . امبراطورية تسود البحار ، ومن ساد البحار فقد حاصر اليابسة وأذلها فى عصر كعصرنا قوام الحياة فيه الاتصال لا الانفصال . امبراطورية تقدر ثروتها بالملايين وآلاف الملايين من الأصفر الرنان ، وتحصى مواردها بأرقام يخيل اليك أنها موهومة . والخير للحساب أن يخترعوا طريقة حسابية لحصر تلك الموارد شبيهة بطريقة الفلكيين إذ يقيسون أبعاد الشموس والسيارات بالسنين النورية ، لا بالأميال الأرضية . هذه الامبراطورية يقيمها ويقعدها هيكل بشرى من الدم واللحم والعظام ، لا يزيد وزنه على وزن كرة مدفع من أصغر مدافع بريطانيا العظمى . وأما هذا الهيكل البشرى الضئيل ، فغاندى العظيم .

كم من مرة فى بضع السنوات الأخيرة تحركت هذه الامبراطوية ، وأعدت عدتها براً وبحراً ، كما يتحرك « امفبيان » لا تصوره إلا الميثولوجيا القديمة ، استعداداً للقبض على غاندى لتضعه بين أربعة جدران من اللبنات المرصوصة . ولعمرى إن هذا لأبلغ ما يصل اليه الوهم الدنيوى . فان جسم غاندى الضئيل ليس بشىء إذا هو حبس بين أربعة جدران من الحجارة أو الفولاذ ، مادامت روحه محلقة فى سماء الحرية الفسيحة، فتكهرب جو الشرق ، بل جو الكرة الأرضية ، لا جو الهند وحدها .

انما تكون الامبراطورية البريطانية جديرة بعظمتها، اذا هى استطاعت أن تسجن روح غاندى فى « قمقم » كما كان يسجن سليمان بن داود الجن والشياطين فى روايات ألف ليلة ، وتمحو أثرها من الوجود . فأما وروح غاندى تسبح فى فضاء الحرية ، وتغذى الأرواح الأخرى بمبادئها ، فأى أثر يمكن أن يحدثه سجن الهيكل الترابى ، فى حجرة عرض جدرانها نصف قيراط ، أو نصف ميل من حجارة أوفولاذ .

وفى اكتمال رجولته يأتى «غاندى» ، الخالد الفانى، بالمعجزة الكبرى، فيسوى بين الانجاس المنبوذين فى الهند ، الخارجين من قدمى بوذا ، والهندوكيين الأطهار ، الخارجين من رأسه ، ويقضى على العقائد والفوارق المقدسة التى غذاها الزمان الطويل بكل ما يستطيع أن يخلق التكوين البشرى من الأوهام . ثم يهدد بالصيام الى الموت اذا لم تتم المعجزة ، لانه

لم يستطع أن يوقظ ضمير الهنـد النائم ، ولم يستطع أن يوقظ ضمير الانجليز ؛ فيضطرب جو الـكرة الأرضية ، وتفتح له أبواب السجن ليكون حراً ، فيأبى الا أن يموت سجيناً . ثم يخاطب الملوك والحـكومات وهو بعد فى السجن، مستلقيا تحت ظلال شجرة من «المانجو » منصرفا إلى صلواته العميقة ، يستقبل الموت فى أسماله باسماً راضى النفس .

وهنا يستيقظ ضمير الهند فتفتح الهيا كل المقدسة للأنجاس المنبوذين ويتساوى كل أهل الهند فى الحقوق الدينيـة والسياسية ، وتتم المعجزة الـكبرى لأول مرة فى تاريخ الشرق ، لا من طريق الشعوذة ، ولا من طريق السيف ، بل من طريق الاقناع . ولعمرى إن هـذا لأول حجر يبنى فى استقلال الشرق بقوة الايمان ، لا بقوة الحديد والنار . وهنا يستقر الروح الحائر ، ويرضى بأن يظل ملازماً للجسم الترابى الى حين . فيا لعظمة غاندى ، ويا لنبل الرسالة التى أداها ، والتضحية التى ضحاها .

على أن لهذا الهيكل الضئيل تاريخاً تـكونت خلاله عناصر القوة والعظمة التى يمتاز بها غاندى ، وأكبر ميزة لهذا التاريخ أنه يظهرك على غاندى فى أطواره المتلاحقة ، ويكشف لك عن كمالاته ونقائصه ، فى صباه ، ثم تحوله فى شـبابه ، ثم قنوته ونسكه فى شيخوخته . ومن هذا التاريخ تعرف كيف تـكونت مع عناصر قوته وعظمته ، عناصر مبادئه السياسية التى استخلصها من عمليات ووقائع مشهودة ، لا من نظريات خاوية فارغة ، كثر ماخطها غيره من الزعماء على الورق ، أو استخلصوها

من التاريخ ، وكثر ما خاب حدسهم وغشهم التاريخ .

فاذا أنت استوعبت تاريخ غاندى العظيم ، أمكنك أن تعرف كيف يكون أثر المبدإ من القوة اذ يتكون على مدى الدهر بعد أن تصقله الحوادث والكوارث ، وكيف يكون أثر المبدإ من الضعف والفساد اذ يعمد إلى النظريات دون العمليات .

أما هذا التاريخ فجزء من سيرة غاندي نفسه كما كتبها هو ونشرها رجل انجليزى من مؤيديه المعجبين بشخصه يدعى مستر « أندروز ». وقد راجعها غاندى قبل نشرها . وسوف نتوخى فى التلخيص طريقة الترجمة الكلية لفصول الكتاب ، بحيث يظهر تاريخ « بشير القرن العشرين » مفصلا مطرداً بقدر ما تسمح بذلك الظروف . على أنى لم أهمل إلا بضع جمل، ولم أتصرف الا قليلا . واذا تتالت الصفحات وتعاقبت، فعذرنا أننا نترجم عن حياة رجل هز أعظم امبراطوريات الأرض ، بعد أن أفلت روحه من أقفاص الفولاذ والحجارة التى حاكتها من حوله أوهام القرن العشرين .

اسماعيل مظهر

الفصل الاول

المولد والمسكن

الغانديون من طائفة «البانيا» Bania والظاهر انهم كانوا فى الأصل تجاراً يتعاطون التجارة فى بيع السلع نجوماً ، لاجملة . ولـكنهم ظلوا منذ ثلاثة أجيال وزراء فى كثير من مقاطعات « كاثياوار» Kathiawar وكان جدى «أوتاغاندى» من الرجال الذين يقدرون المبادىء، وقداضطرته الدسائس السياسية أن يغادر «پوربآندر » Porbander حيث كان «ديواناً » أي رئيس وزراء ، وأن يلجأ هارباً إلى «جوناجاد» . فلما قابل «نواب» هذه المقاطعة ، حياه بيده اليسرى . ولما سئل عن سبب ذلك ـ قال ـ « ان يدى اليمنى قد قطعت لنواب «پورباندر» عهدا غير مخلوف » .

وتزوج «أوتاغاندى» مرتين، فكان له أربعة أولادمن زوجه الاولى ، واثنان من الثانية . ولما كنت صغيراً لم أشعر مطلقاً بأن أولاد «أوتا» كانوا غير أشقاء . أما خامس أولاده فكان « كرمشاند غاندى » وسمى « كابا غاندى » كما كان سادسهم يدعى « تولسيدس غاندى » ، وكلاهما كان رئيس وزراء ، أحدهما تلو الآخر . أما أبى « كابا غاندى » فكان

رئيس وزارة « راجكوت » لعهد ما ، ثم رئيساً لوزارة «فانكانار » ولما مات كان يتناول معاشاً من حكومة « راجكوت » .

وتزوج « كابا غاندى » أربع مرات على التوالى ، اذ كان يفقده الموت من يتزوج منها كل مرة . وكان له من زوجيه الأولين فتاتان من كل واحدة ، وأما زوجته الثالثة «بوتلباى» فقد أعقبت بنتاً وثلاثة صبية ، كنت أنا أصغرهم

كان والدى محباً لطائفته صادق القول شجاعاً كريماً ، ولكنه كان ضيق الخلق . ولم يكن زاهداً فى الميول الحيوانية ، لأنه تزوج الرابعة وقد تجاوز الأربعين من عمره . غير انه كان مستقيما جداً طاهر اليد ، وكان معروفاً باستقلال رأيه وعدم تحيزه ، سواء أبين أسرته ، أم بين الناس . أما خضوعه للحكومة فأمر معروف ذائع . تكلم أحد رجال السياسة فسب أميره ، ولكن « كابا غاندى » رد السباب بمثله . ولما طلب منه أن يعتذر رفض الاعتذار ، فسجن بضع ساعات ، ولم يفرج عنه الا بعد أن رؤى أنه من العبث أن ينثنى « غاندى » عن عزمه .

ولم يحاول أبى أن يثرى ، ولم يترك لنا من الحطام الا النزر اليسير . ولم يتلق العلم ولم يتعلم ، اللهم الا ماتجود به تجربة الحياة على الناس. كان جاهلا بالتاريخ وبالجغرافية . غير أن تجاربه كانت كفيلة بأن تجعله قادراً على أن يحل أعوص المشكلات، وان يسوس مئات الرجال. ولم يفقه من الدين الا قليلا ، غير أنه استوعب تلك الثقافة التى تستوعب من كثرة

التردد على الهيا كل والمعابد وسماع المناقشات التى كانت تدور حول الدين الهندوكى . وفى أواخر أيامه بدأ يقرأ « الغيتا » The Gita على برهمى مثقف من أصدقاء الأسرة ، واعتاد أن يردد بعض مقطوعات دينية جهراً خلال صلاته .

أما الأثر الذى تركته أمى مطبوعاً فى مخيلتى فأثر الزهد والقداسة . كانت متدينة شديدة التدين ، حتى أنها لم تكن تأكل وجباتها اليومية من غير أن تؤدى عنها صلاة حارة كلها تعبد وقنوت . أما زيارتها للمعبد فكانت من الواجبات اليومية الضرورية . ولا أذكر ، على قدر ماتصل اليه ذاكرتى ، انها أهملت يوماً صيامها الدينى ، حتى أن المرض لم يكن سبباً فى أن تفرط فى هذا الواجب المقدس . مرضت مرة مع حلول الصوم ، غير أن المرض لم يكن يخل بالنظام أو يؤثر فى القيام بالواجب الأبدى . ولم يكن ذا بال لديها أن توالى الصيام أياماً ، بل كانت تكتفى بوجبة واحدة فى اليوم، مادامت صائمة . وكانت تنذر فى بعض الأحيان أن لاتأكل الا اذا طلعت الشمس وبزغت من خلال الغيوم ورأتها بعينيها . وكنا ونحن أطفالا نقف فى مثل تلك الأيام متطلعين الى السماء ، وكلنا شغوف بأن يكون أول من يبشر أمه ببزوغ الشمس من خلال السحب الثقيلة. وبلاد الهند فى خلال فصل الأمطار لاترى الشمس الاغراراً. ولاأزال أذكر أياماً كنت أهرع فيها الى أمى حالما تظهر الشمس بعد هطول الأمطار لأبشرها بالنبأ العظيم . فكانت تخرج لتراها

بعينيها ، ولـكن الشمس الطريدة تـكون قد توارت وراء الغيوم قبل أن تـكتحل عيناها بمرآها ، فتطوى صائمة ! وقـد تقول . « غير مهم ! ان الله لايريدنى أن آكل » . ثم تمضى فى شؤونها وواجباتها كأن لم يكن شىء .

وكانت أمى ذات قـدرة فى الحـكم على حقائق الأشياء . وكانت محيطة بأحوال الحـكومة، حتى ان نساء الحاشية كن يقدرن فيها الذكاء . وكنت أصاحبها فى زياراتها متخذاً من طفولتى عذراً ، ولا أزال أذكر مناقشات كلها فطنة وادراك كانت تدور بينها وبين أرملة « ثاقور صاحب » .

. . .

من هـذين الأبوين ولدت فى « پورباندر » فى اليوم الثانى من اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، وهنالك قطعت طفولتى وذهبت الى المدرسة . لم احفظ جدول الضرب الا بكل صعوبة . والحقيقة انى لم أتعلم فى هـذا الطور أنا والصبية الذين كانوا يتعلمون معى من شىء اللهم الا ذم المعلم . والظاهر أن عقلى فى ذلك العهد كان ضعيفاً ، كما كانت ذاكرتى فجة غير ناضجة .

وكان عمري سبع سنوات لما ترك أبى «پورباندار» الى «راجكوت» ليكون عضوا فى الحاشية . فالحقنى بمدرسة ابتدائية ، فـكنت فيها كما كنت فى الأولى تلميذاً عادياً متوسط القوة . غير انى لم أصل الى الثانية

عشرة حتى كنت فى مدرسة ثانوية ، ولا أتذكر خلال هـذه الاثنى عشر عاماً من عمرى ، على طفولتى ، انى كذبت مرة واحدة ، سواء على معلمى ، أم على اخوانى فى التلمذة . وكنت خجولا جدا ، متباعدا عن مرافقة الناس . وكانت عادتى أن أكون بباب المدرسة عند ماتدق ساعة البدء فى الدرس ، وأعود الى البيت تواً بعد الانصراف . وكنت أقطع المسافة من المدرسة الى البيت عدواً ، لأنى لم أكن احتمل أن أتكلم مع أى انسان ، كما كنت أخاف أن يهزأ بى أى شخص كان .

. . .

وقعت خلال دراستى حادثة لابأس بذكرها . وكان مستر « جيلز » Mr . Giles ـ مفتش التعليم قـد وفد مرة يفتش ، فأملى علينا خمس كلمات ليعرف مقدار علمنا بالهجاء (فى اللغة الانجليزية) فأخطأت فى احـداها ، وأراد المعـلم أن ينبهنى الى ذلك بطرف حذائه . ولـكنى تعمدت أن لا أنتبه ، لأنى شعرت بانه ليس فى مقدورى أن أغش التهجية من صحيفة جارى ، ولأن من واجب المعلم أن يحول دون الغش فى الامتحان . وكانت النتيجة أن جميع التلاميذ استطاعوا أن يكتبوا كل الـكلمات صحيحة ماعداى . فأنا وحدى كنت بليداً . وكثيراً ماحاول المعلم أن يصرفنى عن هـذه البلادة ، ولـكن عبثاً . لأن الغش شىء لم يكن فى مقدورى أن آلفه .

على أن هذا الحادث لم يكن من شأنه أن ينزل من قدر أستاذى فى

نظرى أو يقلل من احترامه فى قلبي . فقد كنت بطبعى أعمى عن أن أعد نقائص الذين هم أكبر منى سناً . ولقد علمت بعد ذلك كثيراً من نقائص هذا الاستاذ . غير أن احترامى له ظل كما كان . لأنى شبيت على أن أطيع أوامر من هم أكبر منى ، لا أن أعد معايبهم .

حادثتان أخريان فى ذلك العهـد لا تزالان عالقتين بذاكرتى . كانت عادتى أن أنصرف عن قراءة أى شىء خارج عن مجال درسى . وكنت أنجز درسى اليومى دائماً . لأنى كنت امتعض من أن يكلفنى أستاذى بواجب عملى ، كما كنت أكره أن أغشه . كنت أنجز دروسى،ولـكن عقلى كان دائماً بعيداً عنها . كنت أنجزها غائب العقل ذاهلاً عنها . ولـكن ما دمت قـد أنجزتها كيفما كان الحال ، فلا عقاب بتكليف بواجبات أخرى . غير انى بصدفة ما وقعت عينى على كتاب اشتراه أبى. وكانت رواية تدور حوادثها حول ولاء «شرافانا» لأبويه فقرأته بمنتهى مايصل اليه الاعجاب وتذهب اليه اللذة . وفى ذلك الحين هبط منزلنا بعض البائعـين المتجولين ، فرأيت فيما رأيت معهم ، صورة تمثـل « شرافانا » يحمل فى حمالة معلقة فى كتفيه أبويه الضريرين فى هجرة طويلة أزمعاها . ولقـد ترك الـكتاب والصورة فى ذهنى أثرا لايمحى . قلت فى نفسي :. « هو ذا مثال تحتذيه » . ولايزال حياً فى ذهنى رثاء أبويه على موته ولوعتهما على فقده . ولقد هزنى النغم من أعماق لحفظته وأخذت أعزفه على« كونشرتينا ـ Concertina ـ اشتراها لى أبى .

والحادثة الثانية تتعلق كهذه برواية . فقد حصلت من أبي علي اذن بأن أشهد رواية تمثيلية يدعى بطلها « هاريشاندرا » . فملكت منى هذه الرواية كل نواحى قلبي ، وسكنت معانيها فى قرارة نفسي، حتى لقد أخذت اتساءل « لماذا لا يكون كل الناس صادقين مثل هاريشاندرا » . ؟ اتباع الحق ، والبحث عن الحقيقة مع احتمال كل المحن والآلام التى تحملها « هاريشاندرا » ، كان الوحى الوحيد الذى بعثته هذه الرواية فى نفسي . ولقد أخذت اعتقد فى حقيقة « هاريشاندرا » كما لو كان شخصاً حياً ، لاشخصاً خياليا ، كما أيقنت بحقيقة الحوادث التى حاكها المؤلف من حوله .

وكثيراً ما كنت أبكى كلما ذكرت هذا البطل وحوادث حياته السامية . هاريشاندرا وشرافانا ، لا يمكن الا أن يكونا بطلين تاريخيين لاخياليين - ولا أشك مطلقاً فى أننى لو قرأت هاتين الروايتين اليوم ، لهزتا عواطفى بالقدر الذى هزتاها به فى أيامى الأولى .

...

لابد لى فى سياق كلامى هذا من أن أجرع بضع جرعات مريرة ، اذا ما كنت من عباد الحق على الوجه الأكمل . وأول ما أبدأ به هو أمر زواجي وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى . ولاجرم انى أغبط الشبان الذين أراهم اليوم من حولى ، وقد استطاعوا بحكم الزمان أن يفروا مما وقعت فيه وأنا فى سنهم .

كنا ثلاثة اخوة . تزوج الأول . ثم صمم كبراء الأسرة على أن يتم زواج أخى وزواجى وأحد أولاد أعمامى فى يوم واحد . ولم يفكروا فى مصالحنا ولا أعاروا رغباتنا اهتماماً ، كأن الأمر لا يتعلق الا بمرضاتهم وبمقدرتهم المالية على اتمام الزواج . وزواج الهندوكيين ليس بالأمر السهل ، بل معناه أن أسرتين قد تعانيان فى سبيله الخراب . ضياع فى المال والوقت ، وأشهر تقضى فى اعداد الملابس وأدوات الزينة وتهيئة « ميزانيات » من الأموال لاقامة الولائم. وكل من الأسرتين تحاول أن تبز الأخرى اسرافاً وتنويعاً فى مظاهر الفرح والسرور . وكان أبى وعمى كلاهما كبير مسن ؛ وكنا آخر من يزوجان من أولادهما ، فامعنا فى الاسراف بفكرة ان هذا آخر أفراحهما .

لم نعرف نحن من الأمر شيئاً الا أن هنالك أفراحاً تقام وزينات وغناء ورقصاً وملابس جديدة وولائم فخمة وبنات غريبات عنا أتين لنلهو بهن .

قلت من قبل انى كنت تلميذاً ، وظللت تلميذاً بعد زواجى . كنت أنا وأخواى ندرس فى مدرسة واحدة . فلم يكن للزواج من أثر فى حياتنا المدرسية الا ضياع سنة من أعمارنا ذهبت بدداً . وكم من شباب الهند يقاسون نفس هذه الخسائر الفادحة . على أنى مضيت بعد ذلك فى الدرس ، وكنت متوسط الذكاء والقوة ، غير أنى كنت حائزاً على الدوام لرضى أساتذتى وعطفهم . وكنت لا أحتمل اللوم ولا التوبيخ .

عوقبت مرة عقاباً بذنب ، فبكيت بمرارة لا أذكر أنى بكيت بمثلها فى كل أطوار حياتى .

كنت أمقت الألعاب الرياضية ، وكنت لا أذهب اليها الا مرغماً لأنها اجبارية . غير أنى أعتقد الآن أن من الواجب أن تكون من المواد الأساسية فى برامج التعليم . أماسبب مقتى لها ، فيرجع إلى رغبتى الشديدة فى أن أقوم بتمريض أبى ، وكان على فراش المرض ، وقد قربت نهايته . فكنت أترقب انقضاء الدروس لأهرع الى المنزل وأظل بجانبه أعنى به وأمرضه وأنفذ أوامره بكل دقة وعناية . فكانت الألعاب الرياضية تحول دون هذه الرغبة ، ولذلك توسلت الى مستر «جيمى» أن يعفينى منها ، لأقوم بواجبى نحو أبى ، غير أنه لم يعبأ بتوسلاتى . وكان من الواجب أن نذهب فى الساعة الرابعة من كل سبت الى المدرسة لنقوم بألعابنا الرياضية ، ولم يكن معى ساعة أضبط بها الوقت ، وخدعتنى السحب واضطراب الطقس .

وكان التلاميذ قد بارحوا المدرسة قبل أن أصل اليها . فى اليوم الثانى لاحظ مستر « جيمى » انى كنت غائباً ، ولما اعتذرت اليه بما حدث تماماً ، رفض أن يصدقنى ، وفرض على غرامة صغيرة كعقاب لى .

لقد اتهمت بالكذب ! فآلمنى هذا الاتهام كل الألم . وكيف أستطيع أن أثبت براءتى ؟ لم يكن من سبيل الى ذلك . فبكيت بحزن

عميق . ولـكنى لم ألبث أن طرأ على ذهنى أن الرجل الصادق يجب أن يكون ذا عناية بأموره . وكان هذا الحادث آخر عهدى باهمال أى شىء يتعلق بمدرستى ودرسى . ولـكنى لم يهدأ لى بال ، الا بعد أن رفعت عنى الغرامة التى فرضت على ، تلقاء اهمالى لا تلقاء كذبى .



*

الفصل الثانى

أيام المدرسة

عقدت أواصر الصداقة بينى وبين أحد أقرانى فى التلمذة ، وكان معروفاً عنه أنه غير مستقيم الأخلاق، فحذرتنى والدتى وحذرتنى زوجى. ولكنى كنت من الكبر بحيث لا أخضع لنصائح زوجى ، وحاولت لأول مرة أن أعمل على الضد من ميول أمى . كثيرا ما قالتا لى انى مع قرين سوء . ولكن أجبتهما « إنى أعرف أن صديقى فيه المعايب التى تذكرانها ، ولكنكما لاتعرفان فضائله . وانه على ذلك لايستطيع أن يفسد أخلاقى ويقودنى فى طريق الرذيلة ، لأنى انما أقصد بصداقته أن أقوم معوجه على اعتقاد انه اذا استقام أصبح من أحسن الرجال . وانى لأرجوا أن لاتشفقا من مصاحبتى إياه » . وكان هذا الحادث أول ما حاولت أن أكون مصلحا فى ناحية من نواحى الحياة .

لم تقنعا بما قلت ، ولكنهما تركتانى أقطع شوطى . فلم ألبث غير قليل حتى استبان لى أن حسابى قد طاش ، وعرفت أن من يريد أن يقوم اعوجاج شخص لايجب أن يكون على علاقة حبية به ، ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد فى هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الا بين الطبائع المؤتلفة . والأصدقاء

يؤثر بعضهم فى بعض تأثيراً عكسياً مطرداً . ولذا لا يكون من مجال لأن يصلح صديق من معايب صديقه أو يؤثر فى اصلاح نقائصه . ورأيى أن الانسان يجب أن يبتعد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس ، لأنه بذلك إنما يكون أقرب الى التطوح مع الرذيلة منه الى اتباع الفضائل ، وان الذى يريد أن يعقد صداقة مع الله ، يجب اما أن يظل وحيداً ، واما ان يعقد صداقته مع الدنيا كلها . وقد أكون مخطئاً ، ولكن التجربة دلتنى على ان محاولتى فى عقد صداقة اخلاص ، كانت فشلا مؤلماً .

كانت تجتاح « راجكوت » فى ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » فقال لى صديق يوماً ان كثيراً من مدرسى مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمور . ولم يكتف بهذا بل ذكر أسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال انهم يفعلون ذلك . فعجبت من الأمر ، وسألته السبب فى هذا. فقال لى ما يأتى :« نحن أمة ضعيفة لاننا لا نأكل اللحم ، والانجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لأنهم من أكلة اللحوم . وخذنى مثلا . فانك تعرف مقدار اصطبارى وجلدى واحتمالى المشقات ، فوق انى عداء معروف . والسبب فى هذا انى آكل اللحوم . والذين يأكلون اللحوم لا يصابون بفساد الدم ، واذا جرحوا التأمت جروحهم سريعاً . ولا يمكن أن نتهم مدرسينا وغيرهم من الرجال النابهين ممن يأكلون اللحوم بأنهم مغفلون . انهم يعرفون ما لهذه العادة من فضائل.

وانه لواجب عليك أن تقتص أثرهم فليس فى الدنيا مثل التجربة . جرب وأنت تعرف مقدار العافية التى تلابس بدنك » .

كان أخى الأكبر قد وقع فى الخطيئة ، فايده وحاول اقناعى ، بأنى ضعيف الجسم وهو قوى . وكان صديق متفوقاً فى العدو الى مسافات بعيدة ، وقادراً على الوثب العالى الى درجة مدهشة . فكان هذا سبباً فى أن أميل إلى مايقول . ولماذا لاأصبح قوياً مثله ؟

كنت جباناً. كان يغشانى الخوف من اللصوص والاشباح والأفاعى.ولم أكن أجرؤ على أن أخرج من البيت اذا أظلمت الدنيا وناء الليل بكلكله على الوجود . كانت الظلمة تفزعنى . وكان من المستحيل على أن أنام فى الظلام ، لأنى كنت أتصور اذا أظلمت الدنيا من حولى أن اللصوص آتون من ناحية ، والأشباح من أخري، والأفاعى من ثالثة . فكان لابد من ضوء فى حجرتى . وكانت زوجى أكثر شجاعة منى ، فكان هذا يخجلنى . لم تكن تعرف خوفاً من أشباح أو أفاعى ، وكانت تذهب حيثما شاءت فى الظلام . وكان صاحبى يعرف فى هذا الضعف ، فكان يقول لى انه يستطيع أن يمسك فى يده أفاعى حية ، وأن يقارع اللصوص ، وانه لايعتقد فى وجود الأشباح . وان كل هذا راجع الى انه من أكلة اللحوم .

أحدث كل هذا فى نفسى أثراً ، فهزمت . وبدأت نفسى تحدثنى بأن أكل اللحوم خير ، وانه سوف يجعلنى قوياً شجاعاً ، وأن أهل

الهنـد اذا اعتادوا أكل اللحم استطاعوا أن يتغلبوا على الانجليز ويطردوهم من بلادهم .

حددنا يوماً للبدء فى هذه التجربة . وعزمنا على أن نبدأ بها فى الخفاء. فان « الغانديين » من « الفايشنافا » Vaishnavas . وأبواى من أشد الناس استمساكاً بعرى العقيدة . ومما يدل على هـذ أن للاسرة معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيـدة « الجانية » [1] _ Jainism _ عظيمة الأثر فى « كوجرات » ، والامتناع عن أكل اللحوم كعقيدة دينية يستمسك بها أهل الجانية والفايشنافية ، لم تظهر فى طرف من أطراف الهند بما ظهرت به من قوة الأثر فى « كوجرات » . وهذه هى العقيدة التى شببت فى أحضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك انى كنت شديد الاحترام لأبوى كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت على يقين من انهما يموتان تواً اذا علما انى آكل اللحوم ، وانى انتهك حرمة العقيدة المقدسة . وكان حبى للصدق والحق يجعلنى شديد الاباء . ولم يكن فى وسعى أن أنكث على نفسى وأغالطها فى حقيقة انى بأكل اللحوم أغش والدى وانى أموه عليهما . ولـكن عقلى كان يتجه الى « الاصلاح » . لم يكن الأمر عندى راجعا إلى ارضاء شهوة البطن . بل

---

(١) ظهرت العقيـدة الجانية فى الهند فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه البوذية . ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتداء على الارواح وسلب أشخاص نعمة الحياة . وكانت هذه العقيدة من أشد العقائد أثراً فى نفوس الغانديين منذ أزمان طويلة .

كنت أريد أن أصبح قوياً شجاعاً متين العضلات مشدود الأصلاب ، وأن يصبح بقيـة أهل الهنـد على هذه الصورة ، فنستطيع أن نهزم الانجليز وأن نحرر الهنـد . ولم أ كن حتى ذلك العهد قـد سمعت كلمة « سواراج » (الحكم الذاتى) ولـكنى كنت أعرف مامعنى الحرية. ولقـد أعمانى حب « الاصلاح » كما كان احتياطى فى أن آ كل اللحم سراً ، سببا فى أن أتطوح مع الوهم ، فأقول فى نفسي ان اخفاء الفعل عن أبوى كاف فى ذاته لأن يجعل فعل الشر بعيداً عن أن يكون تناقضا مع الصـدق وحب الحق .

وآذنت الساعة . وانه ليصعب على أن أصف حالتى وصفاً صحيحاً . اكتنفنى حب « الاصلاح »من ناحية ، وساورتنى من جهـة أخرى جدة الأمر ، أرى فى فعله استدباراً لعهد واستقبالا لعهد آخر فى الحياة ، ثم التخفى لاتيان ذلك الفعل ، شأن اللصوص . ولـكننا ذهبنا معا نفتش عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهنالك رأيت اللحم لأول مرة فى حياتى . وكان معنا خـبز صنع على الطريقة الانجليزية . فلم اتذوق شيئاً منه . فاللحم كان فى فمى كأنه جلد صفيق شديد التماسك ، فلم أسغه ، وشعرت بأنى مريض ، فتركت المـكان فى الحال .

أمضيت بعـد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعترانى كابوس مخيف ، فكنت كلما هممت بأن أنام ، خيل الى أن عنزاً مذبوحة ينزف دمها وتتخبط بجوارى ، فأهب مذعوراً فزعاً ، وفى قلبى أشد ما يمكن

أن يتصور من ألم الضمير

ولكن كنت أذكر نفسي بأن مافعلت كان واجباً ، فتروح هذه الفكرة عني بعض الشيء ، واستعيد شيئا من صفاء النفس . ولم يكن صديقي من الذين ينثنون عن عزمهم بسهولة ، فأخذ يطهى ألواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيها أقل تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك إلى الأكل في مطعم فاخر الرياش ، كان صديقي على معرفة بطاهيه ، بدل أن ننتبذ بقعة مهجورة من شاطىء النهر .

وقل بعد ذلك أن أتناول طعامي في البيت ، فكنت أعتذر لأمي كلما جهزت لي طعاماً بأني مضطرب المعدة أو أني مريض . وكنت أشعر بأني أكذب ، واني أكذب على أمي ! وكنت أعلم أنه مامن شيء في الحياة يؤثر في والدي بقدر مايؤثر فيهما معرفتهما بأني أصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تنهش قلبي ولاتريح ضميري ساعة واحدة . وما بلغت هذه الحالة حتى أخذت نفسي تحدثني قائلة : « انه وان يكن من الواجب أن آكل اللحوم ، وأن أتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » فان الكذب على الأبوين وغشهما ، أنكر من الامتناع عن أكل اللحوم . فيجب اذن أن لا أعود الى هذا العمل مادام أبواى على قيد الحياة . فاذا طواهما التراب ، فهنالك أكون حراً ، فآكل اللحوم علناً بدون خشية ولكن قبل أن تحل الساعة ، فلأمتنع عن أكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم أذق اللحم أبداً . ولكن

العظة الصحيحة هى أنى حاولت أن أصلح فاسداً ، ففسد صلاحى ، من غير أن أشعر بأنى كنت سائراً نحو التردى فى هذه الحمأة الدنيئة .

وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتى الزوجية وأمانتى لزوجى . أخذنى صديق يوماً الى ماخورة من مواخير المومسات ، ودفع عنى الأجر المطلوب . ولقد زودنى بالنصائح اللازمة وأحكم الترتيب كل احكام ! هأنذا أخذت أتردى بين أنياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم رحمنى من نفسى، وصاننى من غوايتها ، فردنى أعمى أصم فى تلك الماخورة، وخرجت منها بدون أن أتلوث بخطيئة الفعل . شعرت بأن رجولتى قد جرحت ، وأن الأرض تميد بى لتبتلعنى ، غما وخجلا . ومنذ تلك الساعة لاأذكر الحادثة الا وأرسلت فى قلبى بشكران حار إلى الله، جزاء ماصرفنى عن هذا الفعل الشنيع . وانى لأذكر أربع حوادث من هذا النوع فى حياتى ، خدمنى الحظ ، لاقوة الارادة، فى الفرار من الوقوع فى خطيئتها . أما اذا نظرنا فى مثل هذه الحوادث من الوجهة الأخلاقية الصرفة ، فلا يمكن أن تعتبرها أكثر من غيبوبة أدبية ، تموت فيها المشاعر والعقائد . ذلك لأنى أعتقد أن تحرك الشهوة البدنية لايقل نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اماذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية ، فان الرجل الذى يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجياً ، ولا أشك فى أنى لم أعد القاعدة فى تجاربى التى جرت هذا المجرى . وفى الحياة أفعال يعتبر الفرار من إتيانها عناية الهية تنجى الشخص والذين هم

حوله من الناس . وبمجرد أن يرتد الانسان الى مشاعره ، ويستيقظ ضميره ، فانه لايتوجه فى الحياة الى شيء ، اللهم الا للمراحم القدسية ، يشكرها على فراره من العصيان . وانى لأعلم أن الانسان قد يخضع للغواية وقد يتغلب عليه الايحاء والاغواء فيخطيء . ولكن كثيراً ما تتدخل العناية العليا فى شؤون الكثيرين ، فتنقذهم رغم أنوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ وإلى اى حد تذهب حرية الانسان ؟ وإلى أى حد يخضع الانسان لحكم ماهو قائم حوله ؟ وأما كيف يتغلغل القدر فى مسارح الحياة الانسانية ، فذلك سر غامض ، وسيبقى سراً إلى الأبد .

كل هذا لم يكن كافياً لأن يفتح عينى على شيء من رذائل صديق وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسى ، سبباً فى أن أجرع بضع جرعات مريرة ، قبل أن تتفتح عينى على شيء من نقائصه ، عبرت عنها أفعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كان صديق أحد الأسباب الأساسية التى قامت لاشعال نار الخلاف بينى وبين زوجى . فقد كنت زوجاً محباً غيوراً ، وعرف فى صديق هذه الصفات ، فأخذ يذكى النار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهيبها فى صفاء الأسرة قوياً محطماً . ولم أكن أشك فى صدقه . غير انى حتى اليوم لاأستطيع أن أغفر لنفسى ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجى ، وجرائمى التى تحملتها صابرة . ولم يكن لها من سبب إلا أخبار صديقى هذا . وليس فى العالم من يحتمل ما فعلته مع زوجى الا الزوجة الهندوكية . وهذا هو السبب فى انى اعتبر

أن المرأة معنى مجسما من التسامح . فخادمك يترك خدمتك . وولدك يفر من تحت سقفك ، وصديقك يقطع معك علاقته . أما الزوجة ، حتى اذا شكت فى زوجها وملأتها الريبة ، فانها تظل هادئة . ولكن اذا شك الرجل، فهدمها ثمن الشك ، وسقوطهاوتشردها عربون الريبة. الى أين تذهب ؟ ان الزوجة الهندوكية لاتستطيع أن تطلب الطلاق فى محكمة . ان القانون لايحميها . ولن أسامح نفسى أو أغفر لها خطيئة انى كنت سبباً فى أن تصل الحال بزوجى إلى هذا المآل ، مآل اليأس والقنوط .

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسى الا بعد أن فهمت «الاهمسا» Ahimsa مع كل مايرتبط بها من العلاقات والاعتبارات . هنالك رأيت عظمة البرهما شاريا ــ Brahmacharya ــ وتحققت أن الزوجة ليست رفيقة للزوج ، بل رفيقة ومعينة فى الحياة ، وأن لها حق أن تقتسم مسراته واحزانه ، وانها حرة كالرجل فى أن تختار ما يلذ لها فى الحياة من سبل الحياة . وانى كلما ذكرت تلك الأيام السود ، أيام الشك والريبة ، ملأى الحزن العميق والألم الممض ، تلقاء ما كنت فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة ، واحتقر تلك الثقة العمياء التى وضعتها فى صديقى .

. . .

حدث فى أيامى المدرسية وقبلها بقليل ، انى عكفت وأحد أقاربى

على عادة التـدخين . ولم نـكن نعرف ما هو التـدخين . ولـكنى وإياه تصورنا فى أن نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب ، لذة . وكان عمى من كبار المدخنين ، وكنا كلما رأيناه يدخن حاولنا أن نحذو حذوه. ولـكن لم يكن لدينا نقود . فأخذنا نلتقط أعقاب السجائر وندخنها . ولم يتيسر لنا أن نجد الأعقاب دائما ، ولم يكن فيها من الدخان ما يكفى لتحقيق غرضنا . فبدأنا نسرق بضعة دريهمات من جيب الخادم لنشتري بهاسجاير هندية. وأين نخبئها؟ كانت هذه المشكلة سبباً فى أن ندخن بعض أوراق الأشجار التى سمعنا أنها يمكن أن ترسل الدخان كما يرسله التبغ ، فجمعنا منها قدراً وأخذنا ندخنه . غير أن حب الاستقلال أخذ يأكل فى قلبنا ، لأن خوفنا من أن ندخن أمام من هم أكبر منا سناً ، جعلنا نشعر بأن هذه الحياة لا قيمة لها من غير أن يكون الانسان حراً مستقلا بنفسه . وفى النهاية ، وكرها لهذه الحياة ، صممت وقريبى هذا على أن ننتحر.

ولـكن كيف ننتحر ؟ ومن أين نحصل على السم ؟ سمعنا أن بزور الداتورة سم ناقع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئا منه ، وحددنا المساء لارتكاب جريمة الانتحار . فذهبنا الى معبد « كيدارجى مندر » ووضعنا زيتا سائلا فى مصباح المعبد ، وزرنا المقام الأقدس ، ومن ثم أخذنا نبحث عن زاوية منعزلة . غير أن الشجاعة خانتنا . قلنا لنفرض أننا لم نمت توا ؟ وما هو الخير الذى نجنيه من أن ننتحر ؟ لماذا لا نستقل بأنفسنا ونكفيها شر الموت ؟ ومع كل هذا ازدرد كل منا

حبتين أو ثلاثاً ، ولم نجرؤ أن نزدرد أكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الأقدس ، وعاهدناه على أن لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار ، وأن نقلع عنها . والحق أن تنفيذ فكرة الانتحار ليس سهلا كتصورها . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت أنه بعيد عن الجد ، وانه الى الهزل أقرب .

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين أعقاب السجاير وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . وأخذت هذه العادة تلوح لى كأنها ضرر وقذارة . وكلما فكرت فى الأمر ، لا أستطيع أن أعرف السبب فى انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع فى كافة أنحاء العالم . وانى لأختنق اذا سافرت فى قطار عبق جوه بدخان التبغ ، وأشعر شعوراً عجيباً بحاجتى الى الهواء الطلق النقى .

لم تكن جريمة السرقة من الخادم آخر جريمة ارتكبتها . أما السرقة الثانية فحدثت ولى من العمر خمس عشرة سنة ، فان أخى الذي أغوانى وصديقى على أكل اللحم ، كان قد استدان خمساً وعشرين روبية ، وكان بيده حلية تتدلى منها قطع ذهبية ، فسرقت قطعة منها وبعتها وأديت عنه الدين . ولكن هذا لم يكن الشيء الذى تحتمله نفسى . فصممت على أن لا أسرق مرة أخرى . وحاولت أن أعترف لأبى ، ولكن لم أجرؤ على الكلام . بيد أنى لم أمتنع خوف أن يضربنى أبى ، فانى

لا أذكر أنه ضرب واحداً منا طول حياته . ولـكنى خشيت الألم الذى أحدثه فى نفسه باعترافى . وأخيراً صممت على أن أكتب الاعتراف بيدى، وأرسل به الى أبى طالباً منه العفو والغفران . فـكتبته على قصاصة صغيرة وسلمته اليه يداً بيد . ولم أعترف بجريمتى فقط ، بل طلبت منه أن يعاقبنى عليها، ورجوته أن لا يعاقب نفسه بالاسترسال مع الحزن والألم، ووعدته أن لا أسرق مرة أخرى .

كنت أهتز رعدة من مفرق رأسى الى أخمصى، لما قدمت له الاعتراف، وكان يشكو ناسوراً حاداً فرقـد مستلقيا على فراشة، الذى لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلمـا قرأ الورقة تساقطت الدموع من عينيه كاللآلىء البيضاء حتى بللت الورقة ، ثم أغمض عينيه برهة مستغرقاً فى لجة من الأفـكار، ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه وألمه . ولو كنت فناناً لرسمت صورة رائعة من هذا المنظر - فانه لا يزال حياً فى خاطرى كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبى وغسلت خطيئاتى . ولن يدرك حقيقة هذا الحب الا من يكابده .

كان هـذا الدرس بمثابة وضع قواعد «الاهمسا» (١) موضع التنفيذ

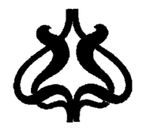
(١) الاهمسا ــ وقد مرت بنا من قبل ــ بالمعنى الحرفى البراءة وعدم استعمال العنف. وهى فى هذا المعنى تعادل معنى الحب . والذى يظهر من هذه الفـكرة أن عدم التعاون والعصيان المدنى مع الامتناع عن استعمال العنف، وهى الوسائل الأساسية التى يستخدمها غاندى لمقاومة الاستعمار الانجليزى فى الهند، منتحلة أصلا من مبادىء دينية صرفة .
أما البراهما شاريا التى مرت فى صفحة أخرى فبالمعنى الحرفى الخلق الذى يؤدى إلى الاتصال بالله . ومن أركانه ضبط النفس والعفة والتقشف .

والتطبيق . لم أستذوق من هذا الدرس فى ذلك العهد الا أنه عطف أبوى. أما اليوم فانى أعتقد انه « الاهمسا » فى براءته وطهره ، فان « الاهمسا » اذا أحاط وتغلب ، فانه يغير كل شىء يمسه . لا حد لقوته ، ولانهاية لأثره . ان أبى لم يكن فى التسامح بحيث يذهب به حب المغفرة الى الحد الذى وصل اليه . فلقد ظننت أنه سوف يغضب ، وان غضبه سوف يلتهب ، فيرسل بكلمات جارحة ، وأنه سوف يضرب جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . وانى لأعتقد أن هدوءه كان راجعاً الى صراحة اعترافى . وان اعترافاً بريئاً مصحوباً بوعد صريح بعدم العودة الى ارتكاب الجرم ، اذا تقدم به المجرم الى الشخص الذى يحق له أن يتقبل هذا الاعتراف ، لأنقى صورة من صور التوبة . ولقد شعرت بأن اعترافى قد طيب نفس أبى وأنه أصبح واثقا بى وزاد حبه لى وعطفه على .

كنت اذ ذاك فى السادسة عشرة من عمرى، وكان أبى مريضا طريح الفراش ، ويقوم بتمريضه خادم عجوز وأمى وأنا . وقمت له بعمل المرضة، فكنت أغسل جرحه وأضمده وأعطيه الأدوية كلما حان وقت تناولها. وكنت أكب كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه، ولا أذهب الى فراشى الا بعد أن يأذن لى أو بعد أن يأخذه النعاس . وكانت هذه الخدمة عزيزة عندى شيقة لدى . ولا أتذكر مطلقاً انى أهملتها ، بل كنت

أصرف كل وقتى بعـد المدرسة فى العناية بتمريض أبى . وما كنت أخرج للنزهة قليلا الاَّ اذا اذن لى ، أوشعر بأنه أحسن حالا . وأذنت الساعة الرهيبة . وكان عمى فى « راجكوت » وأذكر أنه أتى على عجل عند ما علم باشتداد العلة على أخيه . وكان ينام بجواره وعرضه بنفسه .

كانت الساعة الحادية عشرة، وكنت أدلك قدمى والدى ، ثم آويت الى حجرتى ، ولـكن الخادم طرق الباب بعد بضع دقائق معلنا أن أبى قد اشتدت به العلة . ولـكنى شعرت شعوراً عميقاً بما يختفى وراء هذه الجملة من المعانى . وسرعان ماصدق حدسى . فان والدى كان قد فارق الحياة .



الفصل الثالث

با كورة الشباب

كنت فى المدرسة من السادسة أو السابعة الى السادسة عشرة من عمرى ، حيث تعلمت كثيراً من الأشياء ما عدا الدين . ولقد أخفقت فى أن أتلقى من أساتذتى ما يمكن أن يمدونى به من معلومات ، من غير أن أكدهم وأجهدهم . ومع هـذا استطعت أن ألتقط مبادىء دينيـة استمعتها من بيئتى تسقطا من هنا وهنـاك . وأعنى « بالدين » اصطلاحاً فى أوسع ما يحتمل اللفظ من المعانى ، أنه « تحقيق الذات » .

ولدت مطوقا بمعتقد الفايشنافا ــ Vaishnava ــ ولذلك كثيراً ما كنت أغشى معبد الأسرة . ولـكن العبادة فى المعابد لم تـكن تلائم مزاجى . فانى أكره فيها مظاهرها وفخامتها المصطنعة ، وكذلك سمعت أن كثيراً ما يقع فى المعابد من الأعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهدت فيها زهداً تاماً .

ولـكن مافاتنى من العـلم بزهدى فى المعابد تلقيته من مربيتى ، وهى خادمة عجوز من الأسرة لا أزال أذكر عطفها على وحنوها الى الآن .

ولقد اقترحت على يوماً أن أكرر اسم « راما »[١] كعلاج أتخلص به من خوف من الأشباح . ولكن كان لى من الثقة بها ، أكثر مما كان لى بحقيقة العلاج الذى وصفت، غيرأن سنى سمحت لعقلى أن يتأثر بماوصفت من علاج خيل اليها أنه يذهب بما أحس من خوف . والتربية الصالحة اذاغرست فى سنى الشباب ، فلابد من أن تترك أثرها الثابت فى النفس . ويلوح لى أن ما غرست هذه المرأة الصالحة فى نفسى من الالتجاء الى ذكر « راما » لأطرد الخوف ، قد ثبت فى نفسى ، حتى أنى كثيراً ما ألجأ الى الاسم أكرره فى أيام محنى ، فيروح عنى ، ويزيح ما يثقل على صدرى من الهموم .

فى ذلك الوقت حاول أحد أعمامى ، وكان من أتباع « الرامايانا » ـ Ramayana ـ أن يلقننى وأخى الثانى مبادئ « راما راكشا » ـ Rama Raksha ـ فأخذنا نستظهر المبادئ صما ، واتخذنا تلاوتها عن ظهر قلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام ، وظللنا نتلو ما حفظناه طيلة ما بقينا فى « پوربندار » ولكنا نسينا كل شىء بمجرد أن حللنا فى « راجكوت » ذلك لأننى لم أكن أعتقد أنى بهذه المبادىء

(١) « رامانام » ـ Ramanama ـ كلمة تكرر تعبداً وتقربا من الله . و « راما » عبارة عن تجسد الله فى الذات البشرية وحلوله فيها كما وضعت فى قصيدة « رامانام » الايقاعية التى وضعها تولاسيداس ـ Tolasidas ـ وهذه القصيدة فى الهندية مقتبسة من الأصل السنسكريتى الذى وضعه فلميكى ـ Valmiki ـ .

وكنت أتلوها لازهو بأنى أستطيع أن أتلو « رامارا كشا » من غير خطأ فى تخريج الحروف والكلمات . أما الذى ترك أثراً فى نفسى لا يزول فقراءة « الرامانااما » تأليف « تولاسيداس » مع أبى . وكان أبى خلال مرض وفاته قد أمضى بعض الزمن فى « پوربندار » ، وتعود أن يسمع تلاوة « الرامانااما » كل ليلة وكان الذى يتلوها « لاوامهاراج » من أخص أتباع « راما » وأكثرهم تأثراً به . وكان يقول انه استطاع أن يشفى نفسه من مرض الجذام بغير عقاقير ، بأن لف على الأعضاء المصابةأوراق شجرة مقدسة فىمعبد « بولشفار » وهبت للاله الكبير، وبأن أخذ يكرر اسم « راما » . وقد يكون هذا صحيحاً أو غير صحيح . غير أننا صدقنا صحة الرواية على كل حال ، لان جسم الرجل كان فى ذلك الوقت سليما من الجذام . وكان ذا صوت شجى ونبرات حزينة ، وكان يرتل ثنائيات أو رباعيات مستغرقا كل الاستغراق ، حتى انه يجرف معه كل سامعيه ، ويستولى على لبهم . وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى اذ ذاك . ولكنى أتذكر أن تراتيله اختلبتنى وأوقعتنى فى شراكه . وكان هذا سبباً فىافتتانى « بالرامانااما ». وانى لأعتقد الآن أن هذا الكتاب أعظم كتاب تعبدى ظهر فى العالم .

تعلمت فى « راجكوت » كيف أكون متسامحاً ازاء كل فروع المذهب الهندوكى والديانات الأخرى ، وكنت مع أبى وأمى كثيراً ما نزور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف

المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدثوننا عن حقيقة معتقدهم . وكنت أسمع هذه الأحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير أبي وأنا أمرضه. وكان هذا سبباً فى أن لا أشعر بأثر للتعصب لمذهب أو ضد مذهب ما .

شذت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندى . فقد تكوّن فى وجدانى نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب . فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة أن يقفوا على مقربة من المدرسة العليا ، وهنالك يمطرون الهندوكيين سباً ولعنا ويوسعون آلهتهم تحقيراً . ولم أكن أستطيع أن أهضم هذا . وقفت مرة أستمع اليهم . وكانت الأولى والأخيرة . فلم أحاول أن أعيد التجربة مرة أخرى . وسمعت فى ذلك الحين عن هندوكى معروف انتحل المسيحية . فأصبح حديث المدينة كلها يدور حول تعميده ، وكيف انه أكل لحم العجل وشرب النبيذ وكيف أبدل زيه ، فلبس الملابس الأوروبية وغطى رأسه بقبعة . ولقد أثر هذا فى أعصابى كل تأثير . حتى لقد حدثتنى نفسى بأن ديناً يرغم معتنقيه على أكل اللحم وتعاطى المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جديراً بأن يكون ديناً ، وليس خليقا بأن يسمى ديناً . وطرق سمعى أن ذلك « المؤمن » الجديد أخذ يهزأ بدين اسلافه وعاداتهم ووطنهم الذى هو وطنه. وكانت كل هذه الاشياء سبباً فى أنى شعرت بكراهية نحو النصرانية .

على الرغم من أنى رضت نفسى على أن أكون متسامحاً نحو الأديان

الأخرى ، فان ذلك لم يكن معناه انى كنت أعتقدفى وجود الله.وحدث أنى قرأت فى ذلك الحين كتاباً دينيا [١] كان من بين مقتنيات أبى ، ولم تترك قراءتى لما تضمن من أقاصيص الخلق وأصل الانسان اى أثر فى نفسى ، بل على الضد من ذلك أحدثت فى نفسى نزعة الى الالحاد وانكار وجود الله .

وكان لى ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلجأت اليه أثير شكوكى لديه وأستعين به عليها ، فلم يستطع أن يذلل مصاعبى أو يحل مشكلة واحدة من مشاكلى العقلية . واخيراً تركنى قائلا : «عندما تكبر يمكنك أن تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لايجب أن تكون مشاغل من هم فى مثل عمرك » فسكت . ولكن لم يهدأ بالى .

على أية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائعه واقاصيصه أن يعلمنى الاهمسا ــ Ahimsa ولكن شيئا واحداً ثبتت أصوله فى نفسى اذ ذاك ، ذلك هو الاعتقاد بأن الاحساس الأدبى اساس كل الأشياء ، وان الحق هو النواة الأولى التى تتكون منها شريعة الآداب العليا . ولقد أصبح الحق غايتى الوحيدة فى الحياة ، فأخذ يعظم فى نفسى ويزيد قدره فى يقينى يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراكى لمعنى الحق يعظم وتترامى أطرافه .

شغفت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الكوجراتية ملكت منى عقلى

---

(١) المانو سمرتين ــ Manusmriti ــ شريعة هندوكية قديمة جداً تحدد نظام الطائفة المسماة بهذا الاسم . والكتاب يحتوى على أساطير فى أصل الخلق وأصل الانسان.

وكل قلبي . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئى الأول الذى يقود خطواتى ، بل أمسى شهوة محتدة جامحة ، حتى انى أخذت أطبقه فى الحياة العملية .

...

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أشار على من هم أكبر منى سناً أن أتابع درسى فى الكلية . وكان امامى جامعتان ، إحداهما فى «بافنجار » والأخرى فى «بومباى» وكانت أولاهما أقل نفقة،فاخترتها ، على ان التحق بكلية «ساملداس» . فذهبت،ولكن لم ألبث ان وجدت نفسى فى بحر لجى . كل شيء كان صعباً . وكل شيء كان عميقاً . ولم أستطع أن استوعب محاضرات الأساتذة . ولم يكن ذلك راجعا اليهم . فان أساتذة هذه الكلية كانوا من الطراز الأول . ولكنى كنت فجاً ، غير ناضج . وفى نهاية الدورة الدراسية الأولى ، عدت الى البيت .

وكان « مافجى وافى » وهو برهمى أريب واسع الاطلاع ، مرجع الأسرة ومحل استرشادها . فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل أمى وأخى الأكبر عن دراستى وكيف أسير فيها ، فلما علم انى فى كلية « ساملداس » اقترح ان أسافر الى انجلترا لأتخرج فى القانون .وكانت هذه امنيتى . فأفعم الاقتراح قلبى سروراً لأمرين : الأول انى كنت ألاقى صعوبات جمة فى الكلية . والثانى انى أردت أن أرى بلاداً جديدة.

غير أني أردت أن ألتحق بكلية أدرس فيها الطب ، فاعترض أخي قائلا ان أبي كان يبغض هذه المهنة ، وكان يقصدك بقوله ان « الفايشنافا » لاشأن لهم بتشريح الجثث ، بل أراد أن تكون محامياً . وكان الاعتراض الثاني على درس الطب ان هذه المهنة لا تهيئني لأن أكون « ديوانا » كما كان أبي ، واني اذا أصبحت «ديوانا»أو أكثر من « ديوان » استطعت أن أقوم بأعباء أسرتي .

. . .

لم يتم هذا الحديث ، وينصرف البرهمي ، حتى أخذت ابني العلالي والقصور، ولكن في الهواء. بدأ أخي يفكر الى أين يرسل بي ؟ وهل من الحصافة أن يرسل شاب مثلي وحيداً الى بلاد أجنبية ؟ أما أمي فقد اضطرب فكرها واختلط عليها الأمر . لأنها كانت تمقت فكرة أني مفارقها ومبتعد عنها . وحاولت أن تقيم العقبات في سبيل سفري فقالت « ان عمك أسن من في الأسرة الآن ، فيجب أولا أن نشاوره، فاذا وافق أمكننا أن ننظر في الأمر ».

فلما قابلت عمي وأطلعته على جلية الأمر فكر قليلا ثم قال : « لست أدري ان كان هذا العمل يتفق ومبادئ ديننا . وكل ما يصل اليه علمي في هذا الموضوع لايخلو من شك . فاني عندما أقابل كبار المحامين لاأرى فارقا بين حياتهم وحياة الأوروبيين . انهم لايتقيدون بقيدفيما يأكلون، ولفائف التبغ لاتفارق شفاهم . وهم يلبسون بلا خجل كما يلبس الانجليز.

وكل هذا مناقض لتقاليد أسرتنا · وانى لمزمع حجا . ولم يبق لى فى الحياة الاسنوات معـدودات . وكيف تتصور وأنا على حافة القبر ، أن آذن لك أن تذهب الى انجلترا وان تقطع بيننا وبينك البحار ؟ ولـكنى لن أقف فى طريقك · فالأمر اذن يرجع الى موافقة أمك · فاذا وافقت فسارع بالسفر .قل لها انى لن أتدخل فى الأمر· أما اذا سافرت ، فانى أباركك . »

فلما رجعت الى « راجكوت » ونقلت الى أمى ماقال عمى ، ترددت ونفرت . فقـد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالرذائل . وقيل لها انهم يأ كلون اللحوم ، وانهم لايستطيعون أن يعيشوا من غير أن يتعاطوا المشروبات الروحية . وسألتنى كيف أتصرف ازاء هذا ؟ فقلت لها ، « ياأمى العزيزة، الا تثقين بى ؟ فانى لن ا كذبك شيئاً · وانى لاقسم لك بأنى لن أقرب شيئاً من هـذه الأشياء · » فقالت استطيع أن اثق بك واعتمد عليك · ولـكن كيف تـكون هذه الثقة وانت فى بلاد نازحة، وديار بارحة. انى مرتبكة ولست أدرى ماذا أفعل · سوف أسأل « سوامى » — Swami —

وكان « سوامى » بالمولد والدم من طائفة « البانيا » كالغانديين · ولـكنه انقلب كاهناً من طائفة « الجانيين » — Jani — وكان من مستشارى الأسرة كالبرهمى الذى مر ذكره . فأمدنى بمساعدته ،وقال سآخذ عليه العهود الثلاثة وأقيده بالمواثيق . وبعدها يستطع أن يذهب

حيث شاء. فأقسمت وتعهدت بأن أعيش فى انجلترا عيش الفردية الصرفة ، وان لا أقرب الخمر أو اللحم . فلما انتهيت من قسمى ، باركتنى أمى ، وسمحت لى بمغادرة بلادى .

وسارعت الى « بومباى » تاركا زوجى ومعها طفل لا يتجاوز بضعة أشهر . ولـكنى لم أصل الى هذا الثغر حتى التف بأخى الأصدقاء، وقالوا له ان المحيط الهندى يكون ثائراً خلال شهرى يونية ويولية . ولما كانت هذه سفرتى الأولى ، وجب أن أرجىء سفرى الى نوفمبر . وقال آخر بأن باخرة غرقت خلال عاصفة . وكان هذا سببا فى أن يتململ أخى . ورفض أن يتحمل مسؤولية السماح لى بالسفر تواً . فتركنى فى بومباى مع صديق وعاد الى « راجكوت » ليؤدى أعماله ، وترك نفقات السفر مع أحد اقاربه ، واوصى بى الأصدقاء أن يقدموا الى ما أحتاج اليه من المساعدات . ومرت بى الأيام والساعات طويلة متثاقلة فى « بومباي » الا انى كنت أحلم بانجلترا ومافيها .

. . .

وأخذ رجال طائفتى الدينية يبدون اعتراضاتهم على سفرى الى الخارج، بل بلغ بهم الأمر الى اظهار مقتهم وغضبهم ، فانه حتى ساعة عزمى على السفر لم يغادر واحد من طائفتنا شواطىء الهند، فاذا أقدمت على السفر وصممت عليه ، وجب أن يحتكموا مى الى الـكتاب . فعقدت جمهرة من رجال الطائفة ودعونى الى الظهور أمامها لأجيب عما يوجه الى من

أسئلة . ولست أدرى كيف استجمعت قدراً كافياً من الشجاعة حملنى على الذهاب الى جمهرتهم . على أية حال لم أتوان عن الذهاب اليهم . فأخذ رئيس الطائفة ، وكان من اقاربى البعيدين ، ولكنه كان على صفاء مع أبى ، يلقى هذه الكلمات : « من رأى الطائفة ان عزمك على السفر الى انجلترا ، أمر لايتفق وعقائدنا . ثم ان ديننا يمنعنا عن السفر الى خارج بلادنا بأى حال من الأحوال . وكذلك وصل الى مسامعنا انه من المستحيل أن يعيش الانسان هناك من غير أن يحل ماحرم ديننا . فان المرء يضطر اضطراراً أن يأكل ويشرب على طريقة الأوربيين ». فكان جوابى « لاأظن مطلقاً أن الذهاب الى انجلترا يكون فيه أى تناقض مع مبادىء ديننا . وغرضى من الذهاب الى هناك أن أكمل دراستى . هذا فضلا عن أنى وعدت أمى أن ابتعد عن ثلاثة أشياء هى أخوف ماتخافون . وانى لعلى يقين من أن قسمى سوف يحفظنى من السقوط ».

قال الرئيس « ولكنى اؤكد لك انك سوف لايمكنك أن تقوم بفروض الدين هناك . وأنت تعلم علاقتى بأبيك وغيرتى عليك ، ولذا أرغب فى أن تسمع نصحى وترضخ لارشادى » . فكان جوابى « انى لأعرف علاقتك بأبى ، ولكن لاحيلة لى فى الأمر . لأنى لا أستطيع أن أرجع عن عزمى على الذهاب لانجلترا . فان أحد أصدقاء أبى ذوي العلم والمعرفة ، وهو برهمى ذو وزن وقيمة ، لايرى مانعاً يحول دون ذهابى ، وعلى رأيه وافق أخى ووافقت أمى » .

« ولكنك ستخالف نظام الطائفة » .

« لا حيلة لى ولا مخرج . وان الطائفة سوف لاتتدخل فى هذا الشأن » .

ولقد أسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فأخذ يحدجنى بنظراته وأنا جالس لا أتحرك ، ثم أعلن مايأتى : ــ

« سوف يعامل هذا الغلام على أنه خارج على طائفتنا ، مطرود من حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليودعه على المرفأ ، سوف يعاقب بغرامة قدرها روبية وأربع آنات » .

فلم يؤثر فى هذا الأمر أقل تأثير، وتركت حضرة الرئيس توا. ولكن أشفقت فى أن يكون للامر أثر فى نفس أخى . ومن حسن حظى أن الأمر لم يهزه ولم يغير رأيه ، بل كتب يؤكد لى أنه يأذن لى فى السفر على الرغم من معارضة رئيس الطائفة وأعضائها فى « بومباى » .

. . .

وبينما كنت فى هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من المعروفين سيسافر الى انجلترا على سفينــة تغادر الميناء فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر . فبادرت الى الأصدقاء الذين اوصاهم بى اخى ، فوافقوا على أن انتهز فرصة السفر مع هذا المحامى . ولم يكن لدى من الوقت ما أسمح بضياعه . فأبرقت الى اخى أستأذنه ،فأذن. وسألت قريبى أن يعطينى المال الذى تركه أخى معه . ولكنه استمسك بالامر الذى اصدره رئيس الطائفة، وقال انه

لايريد أن يطرد كما طردت . وبعد لأى استطعت أن أسوى الأمر بعد الالتجاء الى صديق ، لولاه لما استطعت أن آخذ مالى ، وأحصل على نفقات سفرى . ووصلت الى « سوثمبتون » حوالى آخر شهر سبتمبر سنة ١٨٨٨ .



الفصل الرابع

فى لندن

زار دكتور « مهتا » حجرتي وتفقد محتوياتها ، ثم هز رأسه علامة على عدم الرضا عنها ثم قال : « هذا المكان لايليق . اننا لانهبط لندن للدرس بقدر ما نهبطها لممارسة الحياة والعادات الانجليزية . ولهذا يجب عليك أن تعيش فى أسرة . ولكن قبل أن تقدم على هذا أظن أنه يحسن بى أن أعهد بك لأحد أصدقائى لتدرس الحياة وتمرن عليها » .

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت تواً الى سكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة واليقظة ، فعاملنى معاملة الأخ واخذ يعلمنى أصول السلوك الانجليزى . غير أن غذائى أصبح مسألة معضلة . وكنت لا أستسيغ الخضر المسلوقة من غير توابل، وتحيرت ربة البيت فيما يمكن أن تجهز لى من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكنى كنت أشعر بالجوع فى وجبتى الظهر والمساء . وحاول صديقى الذى عهد بى اليه دكتور « مهتا » أن يغرينى على أكل اللحم ، ولكنى كنت أذكر له عهدى الذى عاهدت عليه أمى ، وأظل صامتاً ، أما وجبتا الظهر والمساء فقد اعتدنا أن نتناول فيهما الاسفناخ والخبز والمربى . وكانت شهيتى غالباً ماتقوى ولكنى كنت

أخجل من أن أطلب اكثر من قطعتين أو ثلاث من الخبز ، معتقداً أنه ليس من حسن الذوق أو الأدب فى شيء أن أفعل غير هـذا . وكنا لا نتناول اللبن فى غير الصباح . وامتعض صديق يوماً من هذه الحال فقال لى بصراحة . « لو كنت أخى اذن لأمرتك بالاسراع فى حزم أمتعتك . ماهى قيمة عهد تعاهد عليه أماً غير مثقفة جاهلة بمجرى الأحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الاطلاق، انه لايعتبر عهدا صحيحاً أمام محكمة قضائية . وصبرك على الأخذ بمثل هذا الوعد ليس أكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليه لايعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت أنك أكلت اللحم وتذوقته . فعلت هذا فى وقت لم يكن أكل اللحم فيه ضروريا، وتمتنع عنه فى وقت تدعوك الحاجة اليه ». ولكنى ظللت صلبا ولم تلن قناتى .

وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق فى سرد براهينه ، ولكن كان عنـدى قوة سالبة استقرت فى نفسى أواجهه بها كلما لج فى الـكلام والتدليل على صحة رأيه . وكان كلما أمعن فى محاوراته ، أمعنت فى عنادى. وكنت أصلى لله كل يوم ليحمينى ، فحمانى . ولم يكن عندى أية فـكرة بينة فى الله ، بل كان مجرد ايمان أثر أثره . أما هذا الايمان فقد غرسته فى نفسى مربيتى .

عثرت خـلال تجوالى فى المـدينة على مطعم للنباتيين فى شارع « فرنجدون » . وكان لمجرد وقوع نظرى عليـه هزة فرح فى نفسى ، كتلك الهزات التى يشعر بها الأطفال لدى عثورهم على شيء تعلقت به

قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل أن ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع، ومن بينها كتاب « صولت » الذى عنوانه « الدعوة إلى الحياة النباتية » فاشتريته بشلن واحد ، ودلفت تواً الى حجرة الطعام . وهنالك تناولت أول وجبة أرضتنى منذ هبطت أرض انجلترا ، وشعرت بأن الله ساعدنى وأخذ بيدى .

قرأت كتاب «صولت» من ألفه الى يائه . فأثر فى كل تأثير . ولما قرأته، أصبحت نباتياً بالاختيار ، وانى لابارك ذلك اليوم الذى عاهدت فيه أمى ذلك العهد . ولقد كنت أمتنع من قبل عن أكل اللحم احتراماً للصدق وللعهد الذى قطعته لأمى ، ولكنى كنت أرغب من كل قلبى فى ان يصبح كل هندى من أكلة اللحوم . وكنت أتطلع الى حلول الوقت الذى أكون فيه واحداً منهم ،أعالج الأمر بحرية وجهرة، وأدعو غيرى اليه . ولكن اختيارى الآن مال بى الى ناحية الحياة النباتية ، والتبشير بها أضحى كل همى .

وظهر لى ان الملابس التى قدمت بها من « بومباى » لا توافق ذوق المجتمع الانجليزى . فبدلتها بملابس أوصيت عليها فى مخازن الجيش والبحرية . واشتريت قبعة حريرية كلفتنى تسعة عشر شلناً . ولم أكتف بهذا فأنفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة أوصيت عليها فى محل « بوند ستريت » وكتبت لأخى ليرسل الى بسلسلة ذهبية . ورأيت انه ليس من حسن الذوق أن ألبس رباط رقبة مربوط ، فتعلمت كيف

أربط رباط الرقبة بعد مرانة عليه . ولم اعتد فى الهند النظر فى المرآة ، بل كانت المرآة من أدوات الترف،فلا أنظر فيها الا فى اليوم الذى يزورنا فيه حلاق الأسرة . أما فى لندن فكنت أقضى كل يوم عشر دقائق امام مرآة كبيرة أنظر فيها كيف أعدل رباط رقبتى وأمشط شعرى على طريقة مألوفة ، ولم يكن شعرى ناعماً ، فكانت تقوم فى صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرشاة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن توليفه بطريقة منتظمة .وكنت فى كل فترة أخلع فيها القبعة أو اضعها فوق رأسى ، تمر يدى على شعرى بطريقة أوتوماتيكية لأصلح شعرى واحفظ نظامه .

وكل هذا أيضاً لم يكن كافياً . فبدأت أوجه انتباهى الى تفاصيل أخرى ، فرضت انى اذا عكفت عليها استطعت أن اخرج من نفسى سيداً كريما (جنتلمان) على الطراز الانجليزى . وقيل لى انه من الضرورى ان أتلقى دروسا فى الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على أن أدرس الرقص فى معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات أجراً على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع . وكنت احتاج الى ستة أسابيع . ولكنى وجدت انى عاجز عن أن أقوم بحركات متزنة مؤتلفة ، لأنى لم أكن استطيع ان اتبع توقيع البيانة ،فيستحيل على ان اوفق بين حركة أقدامى وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا افعل ؟ تروى أسطورة ان ناسكا احتفظ بهرة فى منسكه ليقاوم الفئران بها ، ثم ببقرة لتغذى الهرة، ثم برجل ليخدم البقرة، وهكذا . ولا ريبة فى ان مطامعى أخذت تتكاثر

ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت في أن اتعلم العزف على الكمان ، حتى أعود أذني على انغام الموسيقى الغربية وتوقيعاتها . فاشتريت كمانا بثلاث جنيهات وأضفت الى الجنيهات الثلاث مبلغا من المال اجراً لمعلمة ، واخذت ابحث عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت له جنيها لابدأ دروسي ، وأمرني بأن أشتري كتاب « بل » ــ Bell ــ في فن الالقاء ، فاشتريته غير وان ·

غير ان كتاب «بل» كان أول شيء قرع «الناقوس» (١) في أذني ، فصحوت من هذه الغفوة النفسية · قلت في نفسي ــ « انك سوف لا تقضي عمرك في انجلترا ، فما الفائدة من تعلم فن الالقاء » ؟ والآن ــ « هل من الممكن ان أصبح بتعلم الرقص جنتلمانا » ؟ والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند · وما دمت في طور التلمذة ، فيجب علي أن اعكف على دروسي ، فاذا أهلت بي أخلاقي لأن تخرج مني « جنتلمانا » فهذا خير من كل ماعداه · وعلى هذا اوجبت على نفسي ان أترك كل هذه الأشياء .

اكتنفتني هذه الأفكار ومثيلاتها ، وكتبتها في خطاب ارسلت به الى معلم فن الالقاء ، راجيا ان يعفيني من اتمام دروسي · ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسي الى معلمة الكمان ،

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب ، وكلمة « ناقوس » جناس ، لأن الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

لأعتذر لها بأنها تستطيع أن تتصرف فى الآلة الموسيقية بأى ثمن يمكن الحصول عليه ، وكانت مخلصة ودودة . فأخـذت اظهر لها كيف انى تبينت أخيراً انى اعا اتبع املا خاطئا ، فشجعتنى على أن أتابع ماصممت عليه من تغيير خطتى تغييراً كلياً . ولقـد استمر ولعى بهذه الأشياء ثلاثة أشهر . أما المحافظة على هنداى فقد استمر سنين عديدة ، ولـكنى رجعت على كل حال تاميذاً ، بعد أن تخليت عن افتتانى هذا .

وليس من حق أحـد ان يظن ان تجاربى فى الرقص وامثاله من الأشياء كان طوراً من أطوار الانغماس فى الملذات قطعته فى حياتى . فانى أثناء ولعى بهذه الأشياء ، كنت مالـكا لـكل قوى نفسى ، ولم يتحرر طور افتتانى بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت أقع صريعة الفينة بعد الفينة . وكنت أقيد حسابى فلا أهمل ذكر المليم والدانق الذى أصرفه، وبدأت أناقش نفسى فى نفقاتى ، فاستبان لى انه من الضرورى ان أقتصد . وعلى هـذا صممت أن اختزل نفقاتى الى النصف . فقد ظهر لى من مناقشة الحساب أن ابوابا كثيرة تذهب اجورا . ووجـدت من جهـة أخرى أن معيشتى فى وسط أسرة يستدعى ان أدفع حسابى كل أسبوع . فأقلعت عن عادة التحبب الى افراد الأسرة بدعوتهم الى الطعام، كما رفضت أن اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى النزهة او اللهو . وكل هذا كان يستدعى زيادة فى النفقات . فاذا كانت رفيقتك فى النزهة سيدة، وجب عليك أن تقوم بكل النفقات. وظهر لى أيضاً أن الأكل خارج المنزل

كان اسرافاً ، لأن كل الوجبات التى لا أتناولها فى المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعى شيئاً . ولماذا لا أوفر على نفسى كل هذه الأبواب ؟

صممت على أن أستأجر حجراً مستقلة، بدلا من أن أعيش فى أسرة ، وبذلك أتمكن من الاختلاف من مكان لآخر على مقتضى طبيعة أعمالى التى أقوم بهـا ، فأكسب تجربة وعلماً . فانتقيت الغرفة التى أجرتها بحيث كانت تبعـد عن محل عملى أكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك أخذت أقتصد فى الأجور التى أنفقها . وكنت لا أنتقل من مكان الى آخر الا راكباً ، قائلا انى أستطيع أن أقتصد من الوقت ما أقضيه فى النزهة ماشياً . أما النظام الجـديد فكان نزهة واقتصاداً، اذ استطعت أن اقتصد أجور الانتقال وأن أقطع كل يوم ثمانية أو عشرة أميال سعياً على قدمى . ولقد افادتنى عادة المشى فوائد جلى ، حفظتنى من الأمراض طيلة مقامى فى انجلترا، وأكسبتنى قوة فى البدن وشدة فى الأعصاب .

حدث بعد هذا بقليل ان قرأت كتباً فى الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتى واستأجرت بدلا منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت أجهز فطورى بنفسى وفى حجرتى ، ولم يكن يشغلنى هذا أكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لى من حظ فى وجبة الصباح أكثر من عصيدة القرطم وماء ساخن للكاكاو ، وبهذا استطعت أن أعيش بشلن وثلاثة بنسات فى اليوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب

على الدرس وافتتان به . ولقد وفرت على هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتى ، فاجتزت الامتحان. على أن هذا الاقتصاد لم يجعل حياتى جافة كما يخيل الى البعض . بل على الضد من هذا ، أكسبنى التغيير الذى أدخلته على نمط حياتى ألفة شملت نفسى وجسمى . بيد أن الطريقة التى اتبعتها كانت تلائم موارد أسرتى ، فضلا عن أنها كانت أقرب للاستقامة ، فعم نفسى بذلك فرح لا يوصف .

...

منـذ أربعين سنة خلون لم يكن فى لندن من الطلاب الهنود سوى عـدد ضئيل . وكانت العادة أن يعيش هؤلاء عيش الفردية ، ولو كانوا متزوجين ، لأنهم يعتقدون هناك أن حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الزواج . وكانت لنا هذه العادة فى الهند خلال الأزمان القديمة ، ولـكننا استبدلناها فى العصور الحديثة بتزاوج الأطفال ، وهى عادة غير معروفة فى انجلترا . وكثيراً ما كانت تعلو حمرة الخجل وجوه شباب الهنـد عند ما يضطرون الى الاعتراف بأنهم متزوجون . ولقد اخذتنى عدوى هذه العادة فقيدت اسمى أعزب ، على الرغم من انى كنت متزوجاً ولى ابن ، ولـكنى لم أكن سعيداً بأن أشعر بأنى خادعت وراءيت . ولـكن خجلى وصمتى وتكتمى ، كل هذه الأشياء حملتنى على أن أدلف الى أعماق أشد غوراً .

كنت مرة فى صحبة أسرة فى « فنتور » أمضى اجازتى . والعادة فى

مثل هذه الأسر أن تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف أهلها للنزهة والترويض . فاصطحبتني الفتاة يوماً الى تلال جميلة هادئة تحيط ببلدة «فنتور» ولست ممن يتئدون في المشي . ولكن رفيقتي كانت أسرع مني عدواً، فجرتني وراءها وأخذت تثرثر طيلة الوقت، وكنت أجيب على ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة « نعم »أو «لا» وفي بعض الأحيان «بنعم، ماأجمل هــذا أو ذاك » . وكانت كأنها طير يطير ، وظللت أفكر متى نعود الى المنزل، بعد أن ضربنا في السير وبلغنا قمة تل . ولكننا لم نكد نعتلي القمة حتى أخذت أفكر في كيف نهبط مرة أخرى . وعلى الرغم من حذائها العالي الكعب ، فان هذه السيدة التي كادت تتجاوز من العمر الخامسة بعد العشرين ، هبطت من فوق التل كأنها سهم زل عن كبد القوس . أما انا فكنت في حيرة الخجل اجاهد لأهبط ذلك المرتقى الوعر . ووقفت هي تبتسم وتشجعني وتعرض على أن تأتي لنجدتي . وبكل ما يمكن أن يتصور ذهني من الصعوبة اخذت أعالج الأمر ، فاتساند مرة، وأزحف على ركبتي أخرى ، حتى استطعت أن اهبط الى سفح التل ، فصاحت بملء فيها «برافو » . ولكن ضحكاتها أوقعتني في خجل مرير لاأستطيع وصفه .

غير انى لم استطع أن أفلت من غير اضرار . لأن الله أراد ان يخلصني من سرطان الكذب والبهتان .

ذهبت مرة الى « بريتن » . وقابلت هناك ارملة عجوزاً معتدلة

الثروة . حدث هذا خلال السنة الأولى من اقامتى فى انجلترا . وكان جدول الطعام فى الفندق مكتوباً بالفرنسية التى لا أعرف منها الا القليل، وجلست الى المائدة التى جلست اليها هذه الأرملة . وقد لحظت انى غريب وانى مرتبك ، فسارعت الى مساعدتى . بادرتنى قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئا » . ! فشكرتها وأبنت لها عن الصعوبة التى تعترضنى لأنى لا أستطيع ان أميز بين ألوان الطعام وايها يتفق وخطة النباتيين لأنى لا أعرف الفرنسية الا جهداً . فقالت : «اسمح لى ان أساعدك . سأوضح لك الألوان وارشدك الى ما تأكل » وكانت هذه بادرة علاقة استحالت الى صداقة استمرت طوال اقامتى فى انجلترا وزمناً طويلا بعدها . واعطتنى عنوانها فى لندن ودعتنى الى الغداء فى بيتها كل يوم احد . فكانت تحتفى بى وتقدمنى الى فتيات وتحملنى على الاشتباك معهن فى الحديث ، وكان من بينهن على الأخص سيدة فتية كانت تقيم معها ، وكثيراً ما كانت تتركنا معاً فى وحدة شاملة .

شعرت أولا بأن الأمر شاق متعب . فكنت لا أستطيع أن ابدأ حديثاً . ولا أقدر ان اشترك فى فكاهة . ولكن هذه السيدة الفتية قادتنى الى الطريق ورسمت لى الخطة . وبدأت اتعلم . ومع مرور الزمن بدأت أتشوق الى يوم الأحد من كل أسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتى الشابة .

وأخذت الأرملة العجوز تمد أطراف شباكها يوماً بعد يوم . فكانت تظهر الاهتمام بمقابلاتنا . وليس من البعيد انها كانت تخط من حولنا خطة تحاول تنفيذها . فتولتنى حيرة مزعجة . كيف أقوى على ان أخبر ربة البيت بأنى متزوج ؟ غير انى عنيت لو انى أخبرتها . اذن لرأت انه من الصعب عقد خطبة بيننا : ولكن الوقت لم يكن قد فات بعد. ورأيت أن اعلان الحق كفيل بأن يوفر على تعساً أكبر من التعس الذى أشعر به . وبهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطاباً جاء فيه :

« لقد شملنى عطفك منذ أن تقابلنا فى « بريتن » لأول مرة ، حتى انك عنيت بى كما تعنى الام بابنها ، وفكرت فى أن اتزوج ، وأخذت تقدميننى لفتيات لأعقد معهن يوماً أواصر الألفة والصداقة . ولأنى لا أرغب فى ان تمادى الأمور الى أبعد مما وصلت الآن ، أصارحك بأنى لم أكن خليقاً بعطفك هذا . كان من الواجب على ان أعرفك منذ بدأت زيارتى لمنزلك انى متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم الهنود يخفون فى انجلترا أمر زواجهم ، فتابعتهم فى هذا، وانى لآسف لأنى اضطررت لأن أخفى عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكنى الآن مغتبط لأن الله قد أمدنى بشجاعة حملتنى على ان اقول الحق وان أصارحك به. فهل لك ان تغفرى لى زلتى ؟ وانى لأؤكد لك بأنى لم أتجاوز حد الأدب مع السيدة التى تفضلت بأن قدمتنى اليها . فانى أعرف الحدود التى يجب أن

أقف عندها . أما انت ، فلأنك جاهلة أمر زواجى ، فقد رغبت فى أن تتم خطبتنا . ومن أجل انى رغبت فى انلا تتجاوز الأمور حدها الذى بلغت اليه ، رأيت واجباً على ان أطلعك على الحقيقة »

« أما اذا وصلك هذا وكان شعورك انى كنت غير خليق بأن أوجد تحت سقفك وفى ضيافتك ، فانى أؤكد لك بأن هذا يسوءنى كل الاساءة . ان لك فى عنقى دينا لا يوفيه عرفان الجميل .والشكران جزاء ماأظهرت نحوي من العطف والحنو . فان رأيت بعد هذا ان لاتطرحينى وانى جدير بكرمك الذى سوف لا آلو جهداً فى ان أجعله من نصيبى ، فلا شك فى انى أكون سعيداً ، واعتبر أن هذه خاطرة أخرى من خاطرات حنوك وعطفك » .

كتبت هذا الخطاب مرات لأنقحه مرة بعد أخرى . ولكنه على كل حال أزاح عن كاهلى عبئا كنت أشعر بثقل وطأته . وفى عودة البريد تلقيت الرد فكان فيه مايلى : —

« وصلنى خطابك الذى عبر عن اخلاصك . ولقد اغتبط كلانا به ، كما أضحكنا كثيرا . فان الحقيقة التى أخفيتها عنا، وتعتقد انك اجرمت فى اخفائها ، يمكن العفو عنها . ولكنك أحسنت فى انك أوقفتنا على حقيقة حالك . وان دعوتى لك ماتزال جارية كما كانت . انا لفى انتظارك يوم الأحد المقبل ، ونتشوق لسماع رواية زواجك وانت طفل لعلنا نسر ونضحك بعض الشىء، ونسرى عن أنفسنا على حسابك . ولست فى

حاجة لأن أؤكد لك أن صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث » .

بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . ومذ ونيت منذ ذلك الحين أن أتكلم في زواجي، كلما سنحت فرصة للكلام فيه .

. . .

قبل أن تنتهي السنة الثانية من اقامتي في انجلترا ، بدأت علاقتي بأخوين من الآخذين بمبدأ الثيوصوفية ـ Theosophism ـ وكان كلاهما غير متزوج ، وتكلما معي عن اسفار « الغيتا » ـ The Gita ـ وكانا في ذلك الوقت منكبين على قراءه ترجمة سير «إدوين ارنولد» لكتابنا المسمى « الأغنية السماوية » ودعياني لأن أقرأ الأصل معهما. فشعرت بالخجل لأني لم أكن قرأت « الأغنية السماوية » لافي اللغة السنسكريتية ولا في اللغة الكجراتية . فاضطررت لأن أصارحهما بأني لم أقرأ « الغيتا » ولكن أقرؤه معهما بسرور ، وان معرفتي بالسنسكريتية ان كانت « لجة » ناقصة ، فقد أملت أن أفهم الأصل بحيث أستطع أن أعرف أين عجزت الترجمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت أقرأ « الغيتا » معهما.ولقدأثر في جزء من الفصل الثاني تأثيراً لاينسى ، وعلى الأخص المقطوعة الآتية :ـ

« اذا عكف الانسان على حاجات البدن ، فهنالك يبدأ الميل اليها ، ومن الميل تتولد الرغبة، ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة. والشهوة تولد الطيش والتهور . وبذلك تخون الانسان الذاكرة فيقضي على

الأغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى الغرض والعقل والانسان ».

ولقد ظهر لى أن الكتاب لايقدر بثمن . وهذه الفكرة التى كونتها فى أسفار « الغيتا » ماتزال حتى اليوم تنمو وتتطور فى نفسى ، حتى انى لأعتبرها اليوم أسمى الأسفار التى تعرفنا الحق . ولقد أمدنى هذا الكتاب بأكبر المساعدات فى أشد ساعات محنتى حلكة . وقرأت بعد ذلك كل الترجمات الانجليزية التى ظهرت لهذه الأسفار ، فرأيت أن ترجمة سير « إدوين ارنولد » أحكمها وأصفاها . فقد حافظ على الأصل ، بيد أنه صقلها ، فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من أنى قرأت « الغيتا » مع هذين الصديقين ، فانى لن أدعى أنى درستها اذ ذاك . ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت أصحب « الغيتا » اذ جعلته كتابى اليومى .

أرشدانى بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « أدوين ارنولد» عنوانه « نور آسيا » . وكنت لا أعرف أن لسير « أرنولد » كتابا آخر غير « الأغنية السماوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلذة واكباب لم أجدها حتى فى قراءة « الغيتا » . وما فتحت الكتاب حتى اختلبنى ، فلم أستطع أن ألقيه من يدى ، وصحبتهما بعد ذلك الى محفل « بلافاتسكى » وقدمانى الى مدام « بلافاتسكى » ومسز « بزانت » . وكانت مسز « بزانت » قد انتمت الى الجمعية الثيوصوفية حديثاً ، فتتبعت بكل عناية حديث

اعتناقها هذا المذهب . ونصح لى الصديقان أن أنتمى للجمعية ، ولكنى رفضت بأدب قائلا « ان معرفتى بحقائق دينى غير تامة ، ولهذا لا أريد أن أتصل بأية جماعة دينية » وأذكر أنى قرأت بارشادهما كتاب مدام « بلافاتسكى » ـ « مفتاح الثيوصوفية » . ولقد كان من أثر قراءتى لهذا الكتاب ما حملنى على أن أقرأ كتباً أخرى عن الهندوكية، خرجت منها بفكرة كاملة فى تحامل المبشرين على الدين الهندوكى ، اذ يزعمون أنه مدخول بالخرافات والأساطير .

وفى ذلك الوقت قابلت نصرانياً مستقيم الفكر فى « مانشستر » فى فندق خاص بالنباتيين . فتكلمنا فى الدين النصرانى . وأطلعته على ما ثبت فى ذهنى من أعمال المبشرين فى راجكوت ـ فتألم مما سمع وقال ـ « انى من النباتيين، ولا أشرب الخمر. وكثير من النصارى يأكلون اللحم ويعاقرون بنت الحان ولكن كلا الأمرين غير مسموح به فى الأناجيل . أرجوك أن تقرأ الكتاب المقدس » . فقبلت نصيحته وأعطانى نسخة . وخيل الى بقدر ما تسمح بذلك ذاكرتى أنه كان يبيع الكتب المقدسة ، وانى اشتريت منه نسخة تحتوى على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . وأخذت أطالعه ، ولكنى عجزت عن أن أتم قراءة العهد القديم . وشعرت بهذا العجز عند ما أتممت قراءة سفر التكوين . أما الفصول التى تتلوه فقد بعثت بالنعاس الى جفونى، فتثاقلت، وأخذنى الاغفاء. غير أنى حملت نفسى على متابعة

القراءة لأستطيع أن أقول انى قرأت الـكتاب ، فتصفحت الاسـفار الاخرى بصعوبة ، وبأقل ما يمكن أن يتصور من اللذة أو القـدرة على الفهم . وكرهت أن أقرأ سفر العدد .

أما العهد الجديد فقد أثر فى نفسى تأثيراً مخالفا كل المخالفة لهـذا ، وعلى الأخص « موعظة الجبل » فانها وجدت طريقا مباشراً الى قلبى . ولقـد أخـذت أوازن بينها وبين الغيتا ــ وتخلقت بقول عيسى « لاتقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء » . وكان تأثيره فى نفسى بالغاً لا يقاوم . وزين لى عقلى الصغير أن أوفق بين الغيتا ونور آسيا وموعظة الجبل .

وكان من أثر مطالعتى هـذه ان ولعت بقراءة سير أصحاب الأديان الأخري . وأرشـدنى صـديق الى كتاب كارليل « الأبطال وعبادة البطولة » وقرأت الفصل الذى عقـده فى « البطل فى صورة نبى » وعرفت فى نبى الاسـلام الفطنة البالغة والشجاعة النادرة . وفى عيسى التقشف والصلابة .

وما عـدا هذه المطالعات التى دارت حول الدين ، لم أقرأ شيئا ، لأن ميعاد الامتحان كان قـد أزف وبذلت كل جهدي فى الا كباب على الدرس . ولـكن اتجه فـكرى الى ضرورة أن أقرأ عن الدين أ كثر مما قرأت فى كتب الدين، وان ألم بكل الأديان العظمى .

وكيف أستطع أن أعرف شيئا عن الالحاد وانكار وجود الله بجانب هذا ؟ ان كل هندى يعرف اسم « برادلو » ـ Bradlaugh ـ والحاده . فقرأت فى الالحاد كتاباً نسيت اسمه لأنه لم يترك أى أثر فى نفسى ، وكنت اذ ذاك قد اقتحمت مفازة الالحاد، وكانت مسز « بزانت » فى ذلك الحين قد انتقلت من الالحاد الى الألوهية ، فقوى هذا الحادث عندى الزهد فى الالحاد ، بعد أن قرأت كتابها « كيف أصبحت ثيوصوفية » .

. . .

فى ذلك الحين مات برادلو [1] ـ Bradlaugh ـ ودفن فى مدفن « بروكوود » ولقد شهدت الجنازة ، كما شهدها كل هندي مقيم فى لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا أن ننتظر فى محطة السكة الحديدية مقدم القطار . فتقدم أحد زعماء الالحاد من أحد رجال الدين وسأله : اتعتقد يا سيدى فى وجود الله ؟ فأجابه الرجل « أفعل » مغضياً من صوته . فأجابه الملحد وعلى فمه ابتسامة الواثق من نفسه « أتسلم أيضاً أن محيط كرة الأرض ٢٤،٠٠٠ ميل ؟ أتوسل اليك أن تعرفنى ما هو حجم إلهك ، وأين هو » . ؟

« نعم ، اننا لو عرفناه حقاً ، اذا لعرفنا ان مثواه فى قلبينا معاً »

(١) مؤلف من أحرار الفكر ألف كتاباً مسروقاً عنوانه « ما كسبت الانسانية من الالحاد » (المترجم)

فأجابه الملحد « لا تهزأ بي كما تهزأ بطفل » — ولقد لفظ هذه الكلمات وفى عينيه نظرة المنتصر الظافر . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب . وكان لهذا الحديث أثر فى نفسى زادنى بغضاً فى الالحاد وزهداً فيه .

هبط انجلترا فى ذلك الوقت هندى معروف هو « نارايان همشاندرا » وكنت سمعت عنه ككاتب . وكنا أول ماتلاقينا فى منزل مس «مانِنج» وهى من أعضاء الجمعية الهندية الوطنية . واعتدت أن ألزم الصمت التام كلما زرت بيتها ، فلا أتكلم إلا إذا كلمت . فقدمتنى إلى « همشاندرا » ولم يكن يعرف الانجليزية . وكان هندامه عجيباً . بنطلون غليظ صفيق ومعطف كثير الثنايا متسخ رمادى اللون ، مقصوص على الطريقة الباريسية . ثم انه كان بلا ياقة وبلا رباط رقبة . وعلى رأسه قلنسوة من صوف يتدلى منها زر كبير . وعلى صدره تترسل لحية كثة طويلة. وكان نحيلا قصير القامة . وقد شابت وجهه المستدير ندوب الجدرى،واستوى فى وسط ذلك الوجه أنف ليس بالدقيق ولا بالغليظ.ومثل هذا الشخص الغريب وبملبسه هذا ، كان مرشحاً لأن يزحم فى الشوارع جماعات لندن المعروفة بأناقتها .

كنا نتقابل كل يوم . واتضح لى أن هناك توافقا كبيراً بين ما يجول برأسينا من الأفكار وما نعتزم من العمل . وكلانا كان نباتيا . وغالب ما كنا نتعاطى طعام الظهر معاً . وكنت فى ذلك الوقت أعيش بسبعة عشر

شلناً فى الأسبوع وأطهو طعامى بنفسى . وكنت أختلف إلى حجرته آونة بعد أخرى ، كما كان يختلف هو إلى حجرتى . وكنت أطهو على الطريقة الانكليزية ، ولم يكن يلتذ الا بالطهو على الطريقة الهندية . كنت أصنع حساء الجزر فكان يرثى لذوقى . وعثر مرة على قليل من العدس فطبخه وحضر به الى سكنى . فأكلت منه بشوق وشغف ، ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهو . كنت أذهب اليه بألوان طعامى النادرة ، وكان يحضر الى بألوان طعامه.

كان اسم الكردينال «ماننج » على كل لسان . وكان اعتصاب عمال أحواض السفن قد قضي عليه بأسرع ما يتصور انسان ، بفضل مساعى « جون برنز » والكردينال « ماننج » . وحدثت « نارايان همشاندرا » عن شكر « دزرائيلى » ومدحه بساطة الكردينال : فقال « اذن فلابد من أن أرى ذلك الحكيم » .

« انه رجل عظيم القدر ، فكيف تتوقع أن تقابله ؟ »

« ولماذا ؟ انى أعرف كيف يكون ذلك . سأجعلك تكتب له نيابة عنى فتقول له انى مؤلف وانى أريد أن أهنئه شخصياً بعمله الانسانى ، وانى سأصحبك معى كمترجم لأنى لا أعرف الانجليزية » .

فكتبت خطاباً بهذا المعنى . وبعد يومين أو ثلاثة وصلتنا بطاقة من الكردينال « ماننج » محدداً لنا موعداً . فذهبنا اليه معاً . أما أنا

فارتديت بزة الزيارات. وبقى « نارايان همشاندرا » كما هو بمعطفه المعروف وبنطلونه الذى وصفت. وحاولت أن أهزأ به، ولكنه ضحك منى قائلا :ـ

« أنتم معشر المتمدينين جبناء . ان العظماء لايعنون بمظاهر الأشخاص انما ينظرون فى القلوب » .

ودخلنا قصر الكردينال . وما ان أخذنا مجلسنا حتى دخل علينا « جنتلمان » نحيف طويل القامة وسلم علينا يداً بيد . وهنا بدأ « همشاندرا » مقالته :

« لا أريد أن أضيع عليك وقتك . فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت واجباً على أن أزورك لأشكرك على ما فعلت من خير للمضربين . ومن عادتى أن أزور حكماء الدين. ولهذا اضطررت أن أزعجك بزيارتى». وكان يتكلم باللغة الكجراتية ، وأنا أترجم الى الانجليزية

فرد عليه الكردينال قائلا : ـ انى لمسرور بزيارتك . وآمل أن تكون اقامتك فى لندن مواتية ، وأن تتمكن من الاتصال بالقوم هنا . وليباركك الله». ولما أتم هذه الكلمات وقف وودعنا .

زارنى « همشاندرا » مرة فى قميص و « دوقية » [1] كما نلبس فى الهند . ولم تكد ربة البيت تفتح له الباب اذ قرعه حتى ارتدت مفزوعة قائلة « رجل به مس يريد ان يراك » .

---

(١) قطعة طويلة من القماش القطنى ، تطوى حول الوسط وتغطى الجزء الأسفل من الجسم .

فسارعت الى الباب وكم كانت دهشتى عندما رأيت « همشاندرا » على هذه الصورة وفى هـذا الزى ، فأخذت . غير أن وجهه لم ينم عن شيء ، اللهم الا عن تلك الابتسامة الهادئة التى عودناها منه .

« ولـكن ألم يهزأ بك الأطفال فى الطريق ؟ »

« نعم فعلوا . فلما أهملتهم سكتوا » .

وذهب همشاندرا الى باريس بعد أن أقام فى لندن بضعة أشهر . وبدأ يتعلم الفرنسوية وحاول أن يترجم منها كتباً . وكنت أعرف من الفرنسوية قدراً مكننى من مراجعـة ترجمته ، فأعطانيها لأطالعها . وسرعان ما استبان لى أنها لم تـكن ترجمة بل مادة جديدة تماماً .

وأخيرا صمم على أن يزور أمريكا . وبكل صعوبة استطاع أن يحصل على تذكرة سفر فى الدرجة الرابعة . ولما كان فى أمريكا حوكم لأنه قليل الاحتشام فى ملبسه ، لأنه خرج يوماً فى قميص ودوقية . وأذكر أنه برئ من هذه التهمة .

كان من السهل على أن أزاول مهنة المحاماة فى انجلترا . ولـكن المرانة كانت غير ميسورة المنال . كنت قد درست القانون كمادة أساسية ، ولـكن لم أدرس كيف أتابع الاجراء القانونى . درست مبادئ القانون غير أنى لم أدر كيف أطبقها فى مزاولة مهنتى .

. . .

كانت الشكوك تمزق أحشائى تمزيقاً خلال درس القانون . فأطلعت

بعض أصدقائى على ما أحس من هموم . واقترح أحدهم أن ألجأ إلى « دباباى نايورجى » فى طلب العون والنصيحة . وكنت أشعر بأنه ليس من حقى فى شىء أن أزعج مثل هذا الرجل العظيم وأشغله بنفسى ، على الرغم من أنى كنت أحمل اليه كتاب توصية من الهند . وما فاتنى يوماً أن أسمع له خطابا أزمع القاءه ، بل كنت أذهب الى المكان وأصغى اليه من ركن فى الحجرة كنت آوى اليه ، ثم أنصرف بعد أن أشبع سمعى وبصرى . ومن أجل أن يكون أكثر احتكاكا بالطلبة أسس جمعية . واعتدت أن أحضر اجتماعاته . وكنت أسر كل السرور بما أرى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجمعت شجاعتى وقدمت له كتاب التوصية . فابتدرنى بقوله « يمكنك أن تحضر الى لتتلقى نصائحى فى أى وقت تشاء » ولكنى لم أحاول أن أنتفع قط من وعده هذا بشىء .

ولقد نسيت الآن ان كان صديقى هذا بعينه هو الذى قدمنى الى مستر « فردريك بنكت » ـ Mr · Frederiak Pincutt ـ كان من حزب المحافظين ، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان صافياً من غير شائبة . ولقد سأله الكثيرون من الطلبة النصح والمساعدة ، وسألته بدورى أن أحظى بموعد ، فلم يبخل به . ولن أنس ماأعيش هذه المحاورة . فلقد رحب بى كصديق وهزأ بتشاؤمى قائلا ـ « كن على

يقين من انه ليس بشيء غير عادى أن يصبح الانسان محامياً ذا مرانة وحصافة . فالأمانة والعمل ، كافيان لأن يجعلاه يعيش . وليست كل القضايا مرتبكة الأجزاء كما تتوهم . ولكن عرفنى ماهى معلوماتك العامة ومطالعاتك » .

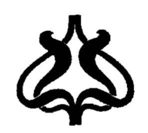
فلما أطلعته على مقدار معرفتى ، وهى ضئيلة ، رأيت انه امتعض . ولكن امتعاضه لم يدم أكثر من دقيقة ، وسرعان ما أشرق وجهه بابتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر فى اضطرابك . إن معلوماتك العامة ضعيفة . انك قليل الخبرة بالحياة . والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان المحامى يجب أن يدرس الطبيعة البشرية . وواجب على كل هندى أن يلم بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن ينبغى لك أن تعرف هذا . واتضح لى انك لم تقرأ شيئا مما كتب « كاى » أو « ملسون » من تاريخ العصيان فى الهند . الجأ الى هذا فى الحال ، ثم اقرأ كتاباً أو كتابين فى الطبيعة البشرية » .

شعرت بأنى مدين بأكبر دين لذلك الصديق الذى أمدنى بهذه المساعدة القيمة . على أن نصيحة « بنكت » ان كانت لم تفدنى فائدة مباشرة، فانى استعضت بصداقته عما خيل الى أن أنال من فائدة بنصحه. وان وجهه الغر البسوم مايزال حياً فى مخيلتى ، وما زلت أعتقد أن

الـكفاية العليا ليست ضرورية لـكى يكون الانسان محامياً ناجحاً فى الحياة . فالأمانة والاكباب على العمل يكفيان . ومذ كان لى فى الحياة نصيب من هاتين الصفتين ، شعرت بأنى حققت قوله .

فلما اجتزت الاختبار النهائى فى القانون ، انتهت مدة اقامتى فى انجلترا .



الفصل الخامس

العودة الى الهند

حان الوقت الذى أغادر فيه انجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » فى شهر يونية ، وكانت الرياح «الموسمية» Monsoon قد أخذت تهب عندما بلغنا بحر العرب وظل الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباى ، بعد أن غادرنا ميناء عدن . وأصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير انى ظللت معافى ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت أقف على ظهر السفينة أرقب هياج العاصفة وتلاطم الأمواج الثائرة . وكان أكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى اثنين أوثلاثة أنا واحد منهم ، فتقدم لنا عصيدة القرطم فى أطباق نتشبث بها فى أحضاننا لئلا تفلت منها العصيدة وتلوثنا .

كانت العاصفة التى ترسل بأهازيجها فى الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرةفى نفسى . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع أن تهزنى أو تزعجنى . وعن هذا عجزت أيضاً العاصفة التى كانت تثور فى نفسى. وكنت أتوقع أن أواجه عاصفة أخرى يثيرها أهل طائفتى. أضف الى ذلك ما كنت أشعر به من عجز عن أن أبدأ حياتى كمحام . ولما كنت بطبعى

مصلحاً ، أخذت أكد نفسى فى التفكير بأية ناحية من نواحى الاصلاح أبدا . ولكن القدر كان يخبأ لى أكثر مما جال بخاطرى .

حضر أخى الأكبر من « كاثياوار » ليتلقانى على المرفأ . وكان قد تعرف بدكتور « مهتا » وأخيه ونزلنا ضيفين فى بيت أخى دكتور « مهتا » بعد أن ألح على أخى إلحاحاً . وبذلك تحولت المعرفة التى بدأت فى انجلترا الى صداقة دائمة بين الأسرتين ، وظللت طوال رحلتى الى وطنى أتطلع الى لقاء أمى . وكنت أجهل أنها لم تعد بعد بين الأحياء لتتلقانى بذراعيها وتضمنى الى صدرها . ولقد ألقى الى أخى بهذا الخبر المحزن ، بعد أن أخفاه عنى طوال اقامتى فى انجلترا ، وأراد بذلك أن يكفينى مؤنة الصدمة وأنا فى بلاد أجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لى ، ولكنى لم أتطوح مع الحزن والأسى . وكان حزنى على فقد أمى أعظم من حزنى على فقد أبى. غير أنى أذكر تماماً أنى لم أتماد فى التعبير عن حزنى الى الحد الذى يخرجنى عن الوقار ، حتى لقد استطعت أن أحبس دموعى، وأن أمضى فى أعمالى كما لو كنت فى حالتى العادية ، وكأن لم يكن فى قلبى حزن عميق .

قدمنى دكتور « مهتا » الى كثير من الأصدقاء ، وكان أحدهم أخاه واسمه « ريفاشنكر جاجثان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة ظلت طول عمرنا على أحسن حال . ولكنى أريد أن أشير على وجه خاص الى « تقدمة » قدمنى بها دكتور « مهتا » للشاعر ريشاند **Raychand**

وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة دكتور « مهتا » وأحد المساهمين فى اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير أن أول لقاء به أقنعنى أنه رجل قويم الأخلاق واسع المعرفة . وكان يلقب «بالمعلمة» (١) Shatavadhani وحرضنى دكتور « مهتا » أن أمتحن قوة ذاكرته ، فأخذت أعيد كلمات مما أعرف من مختلف اللغات الأوربية ، وسألته أن يعيدها ، فأعادها على نفس الترتيب الذى نطقتها به . ولقد شعرت بأنى أحسده على كفايته هذه ، غير أنى لم أوخذ بها . أما ما أثار اعجابى به بحق، فسعة معرفته بالكتب المقدسة وأخلاقه العالية ، وتحرقه واشتهاؤه أن يحقق ذاته ويصبح بهامستقلا فى أفق جديد . وكان هذا غرضه الذى من أجله يعيش. وكثيراً ما كان يردد « أبياتاً» من شعر « مكتاناد » Muktanad كنت أشعر أنهـا محفورة على صفحات قلبه : —

« أشعر بأنى فى نعيم عندما « أراه » (الله) فى كل عمل من أعمال يومى . والحق أنه الخيط الذى يصل حياة مكتاناد »

كانت تجارة « ريشاندباى (٢)» تقوم بمئات الألوف من الروبيات .

---

(١) الـكلمة الهندية Shata - vadhani معناها الشخص الذى يستطيع أن يتذكر أو يعى مائة شئ فى آن واحد ،ويخيل إلى أن كلمة معلمة أقرب كلمة عربية يمكن بها التعبير عن هذا المعنى .

(٢) العادة المتبعة فى مقاطعة كوجرات وبعض مقاطعات غيرها فى الهنـد تقضى بأن يضاف مقطع « باى » أو « بهـاى » — Bhai — ومعناه أخ — الى اسم الصديق تـكريماً واظهاراً للود .

وكان خبيراً باللآلىء والماس . ولم تكن تعترضه مشكلة من مشاكل العمل الا وتصبح بين يديه سهلة هينة . ولكن كل هذه الأشياء لم تكن المحور الذى تدور من حوله عجلة حياته . أما حياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة فى أن يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الأشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينياً ويومياته . فكان لدى انتهائه من عمله يتناول الكتاب الدينى أو اليوميات . وأكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن أنها منتخبات من يومياته . والرجل الذي يستطيع أن يعكف تواً وبمجرد أن يخلص من أعماله التجارية ، على الكتابة فى الأشياء الخفية العميقة فى أغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول ، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بأبحاثه الروحية وهو مغمور فى لجة عمله التجارى مرات لامرة واحدة . ولم ألاحظ أنه فقد توازنه العقلى فى أى ظرف من الظروف . ولم يكن بيننا أية علاقة دنيوية تربطنا ، ومع هذا فكنت أتبعه اتباع الظل . كنت فى الأكثر محامياً مغموراً . ومع هذا فكنت لا أراه الا ويجرنى الى الكلام فى مسائل ذات صبغة دينية . وعلى الرغم من أنى كنت حتى ذلك الحين ما أزال أتلمس طريقى تلمساً ، ولم يكن لى أية لذة فى المناقشات الدينية ، كنت أجد فى حديثه هزة لا أعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً فى أن أزور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت أن أقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير

أن يترك واحـد منهم فى نفسى من الأثر ما ترك « ريشاندباى » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى أعماق نفسى ، وحازت قوة عقله عندى من الاحترام مالا يقل عن احترامى لجـده الأدبى ، وثقتى التى لايمكن أن يكتنفها شك فى أنه سوف لايغشنى أو يغرينى ، وانه سوف يرشدنى دائما ويفضى إلى بذات نفسه. ولذا لم أكن أجد غيره من ملجأ ، كلما ساورتنى الأزمات الروحية العنيفة

ومع هـذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامى له ، فانى لم أستطع أن أنزله من قلبى منزلة « الغورو » (١) ـ Guru ـ من نفسى . فان هذه المـكانة ظلت خالية ، وما أزال أبحث عمن يشغلها حتى الآن . على انى أعتقد بصحة النظرية الهندية فى « الغورو » وقيمته فى تحقيق السمو الروحانى . ويخيل الى ان هناك قسطاً عظيما من الحق فى الحـكمة القائلة بأن المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو » . فان معلما غير كامل العدة فى المسائل الدنيوية أمر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان، أما فى المسائل الروحانية فالأمر على خلاف ذلك . وان معلماً كاملا فى المسائل الروحانية ، بكل ماتحتمل صفة الـكمال من المعانى ، هو دون غيره الذى يصح للانسان أن يتوّجه ملـكا على عرش القلب والوجدان. وعلى هذا يجب أن يستمر الانسان يكافح طوال حياته فى سبيل بلوغ ذروة

---

(١) حكيم روحانى . وهو ليس اسم شخص ، بل يطلق على من يتصف بالحـكمة الروحانية ويوجه غيره الى الرشد .

الكمال . لأن كل انسان انما يصل الى « الغورو » الذى يستحق
وكفاحنا فى سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعى . والكمال يح
فى ثناياه ماينتظر الانسان فى الدنيا من ثواب.أما الباقى بعدذلك فبين يا
الله . وعلى الرغم من أننى ما استطعت أن أضع « ريشاندباى »
موضع « الغورو » من قلبى ، فانه كان فى كثير من الحالات مساعا
ومرشدى . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا فى آثرهم الثا
ويختلبوننى اختلاباً . ريشاندباى بعلاقته الشخصية ، وتولستو
بكتابه « ملكوت الله فى نفسك » (١) ورسكن بكتابه « حتى هـ
النهاية » (٢)

عقد أخى على آمالا كباراً . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبعـ
الصيت وذيوع الاسم.وكان كبير القلب متجاوزا عن الاخطاء،وهوف
ذلك سليم الفطرة ساذجها ، فالتف حوله كثير من الاصدقاء الاو
ومن طريقهم حاول أن يزودنى بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيل
عما قريب سوف أحصل على قدر كاف من المرانة والتقدم فى العمل
وعلى هذا التقدير أسرف فى نفقات البيت والمعيشة . ومضى يعمل بـ
جد ليمهد لى سبيل العمل كمحام أمام المحاكم .

كانت العاصفة التى أثارها زعماء طائفتى قبل سفرى الى انجلترا لا تز

) The kingdom of Gob is within you
) Unto this last

ثائرة ، حتى لقد انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداهما تواً لدى رجوعى الى الهند بدخولى مرة أخرى الى حظيرتها ، ومضت الأخرى مستمسكة بقرار فصلى الذى صدر قبل سفرى . فمن أجل أن يرضى أخى الطائفة الأولى ، أخذنى قبل سفرى لراجكوت الى « ناسك » وغسلنى فى النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت أعد وليمة طائفية لتكون بمثابة كفارة عن ذنبى . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب أخى لى كان عظيما ، ولم يكن تعلقى به يقل عن حبه لى . لهذا رضيت بأن أعمل كآلة تتحرك كما يريد معتبراً أن ارادته قانون على الطاعة له . على أن هذا قد فض اشكال رجوعى الى الطائفة من طريق عملى ، عرف أخى كيف يسلك السبيل اليه .

لم أحاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذى رفض أن أعود الى الطائفة . وكذلك لم أشعر بأى شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً فى اخراجى من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعى اليها . وفوق هذا ظللت أحترم قرار الطائفة الذى صدر بفصلى وحرمانى . فقد كان محرماً على أن أتناول الطعام فى بيت أقرب أقاربى حتى أختى وزوجها ، أو أن أتناول شربة ماء فى بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا أن يعدوا العدة ليخالفوا ذلك الأمر سراً وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير أنى كنت أرفض دائما أن أعمل فى السر عملا أخجل من أن آتيه جهرة .

وكان سلوكى واستقامتى سببين فى أن لايحاول رجال الطائفة ازعاجى بصورة من الصور. بل على الضد من ذلك لم أشهد من كل أفراد الطائفة الا كل كرم وسخاء ، وعلى الأخص من الفريق الذى ظل على رأيه فى حرمانى وطردى . وزادوا على ذلك أنهم ساعدونى فى عملى من غير أن يتوقعوا منى أية مساعدة أقوم بها من جانبى لصالح الطائفة : ولو أننى حاولت أن أعود الى حظيرة الطائفة وأخذت أدعو الى قبولى مرة أخرى ، أو لو أننى سعيت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وأن أزيد صدعها اتساعا ، أو هاجمت رءوس الطائفة وتحديتهم ، فما لا شك فيه أنهم كانوا يثأرون منى ويقابلون عملى بمثله . ولو أننى لم أعمل على تهدئة العاصفة ، لوجدت نفسي ، لدى وصولى الى الهند ، فى لجة من التهييج الطائفى ، كانت بلا ريب تضطرنى أن أتصنع ما ليس فى نفسى ، وأن أنافق وأن أتخذ الرياء قناعاً .

أما علاقتى بزوجى فكانت ماتزال الى ذلك الحين على غير ما أرغب أن تكون . فان اقامتى فى انجلترا لم تشفنى من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدى شكى فى كل شىء مهما كان تافها . وبذلك ظلت كل شهواتى العزيزة على غير مكفية . وصممت على أن تتعلم زوجى القراءة والكتابة وأن أساعدها فى التعليم ، ولكن شهوتى وقفت فى الطريق، وكان عليها أن تحتمل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيرى وكسلى . وحدث مرة أنى تطوحت فى النزق الى حد أنى أرسلتها الى بيت أبيها، ولم

أقبل أن تعود الى بيتى الا بعــد أن أذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعــد ذلك بقليل أن هذا كله لم يكن منى الا حمقاً واسرافاً .

أخذت أفــكر فى اصلاح تعليم الأولاد . فقد كان لاخوتى أولاد ، وكان ابنى الذى تركته قبل سفرى الى انجلترا طفلا قد شب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتى الى أن أعود هؤلاء الأولاد العكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا أقوياء الأبدان مشدودى الأصلاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وأن أتخذ من تجاربى الشخصية اماماً فى تنشئتهم. ولقد شجعنى على ذلك أخى ، ورجح نجاحى فى هذا الشأن فشلى . على أن عشرة الأولاد كانت من مباهجى التى أسر بها ، وما أزال حتى اليوم أعكف على عادة اللعب مع الأولاد والتفكه بهم ، ومنــذ ذلك الحين بدأت أفــكر فى أنى ربما أصلح لأن أكون معلما صالحا للأولاد .

وظهر لى أن الضرورة تدعو الى اصلاح طرق « التغذية » . وكان الشاى والقهوة كلاهما قد وجد مكانا فى نظام المنزل . وعمل أخى على أن يكون جواً انجليزياً صرفاً فى البيت استعداداً لقدومى . ولذا أخــذت الآنية الخزفية تدخل فى حيز الاستعمال بعد أن كانت تظل محفوظة للمناسبات . وأكملت « اصلاحاتى » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الأشياء من نظام. واستبدلت الشاى والقهوة ، بعصيدة القرطم ومنقوع الكاكاو . ولــكنهما فى الحقيقة أصبحا اضافيين على الشاى والقهوة .

وكنا نعرف من قبل الأحذية والنعال،وأكلت أنا « التفرنج » باستعمال الأردية الأوروبية .

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولا جرم أننا نجحنا في زيادة النفقات أو كما يقول أهل الهند نجحنا في أن نربط فيلا أبيض على بابنا ، ولكن كيف يمكن أن نسد نفقاته ؟ وكان البدء بالعمل في المحاماة براجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لأنى كنت فاقد الخبرة بكل ما يحتاج اليه « الوكيل » (١) من المعلومات والاجراءات ، وكنت أطلب عشرة أضعاف الأجر الذى يطلبه « الوكلاء » في الهند . فلم أسقط على صاحب قضية بلغ به النزق ذلك المبلغ الذى يغويه أن يوكلني في دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك « الانسان » فهل يصح أن أضيف الى جهلي ما يحتمل أن ينتج طغيان النصب والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار ديني ومسؤولياتي لهذه الدنيا ؟

ونصحني بعض الأصدقاء أن أهبط « بومباى » عسى أن أحصل على بعض المرانة العملية أمام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندى ولأحصل على ما يمكن أن أحصل عليه من الدعاوى القضائية . فقبلت النصح وذهبت الى « بومباى » . وفيها استأجرت منزلا ، وطباخاً لايقل جهله بالطهو عن جهلي به . وكان « برهمانياً » اسمه « رافيشنكر » ولم أكن أعامله معاملة الخادم ، بل كأنه أحد أفراد المنزل . وكان يصب

---

(١) Vakil ـ أى المحامى الذى يخرج من مدارس في الحقوق الهند .

الماء على جسمه صباً ، ولـكنه لايستحم أبداً . وكانت ملابسه قذرة على الدوام ، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة. ولـكن كيف يتسنى لى أن أحصل على طاه أليق منه ؟ . كنت أقول له: يمكن أن تكون جاهلا بالطهو ، ولـكن ألا يصح أن تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟ فكان يجيبنى فى بلاهة «عبادتى اليومية ! تذكر ياسيدى ان المحراث هو عبادتنا والفأس هى مراسمنا الدينية . اننى انما أعيش اعتماداً على مراحمك. فاذا فقدت الأمل فيها فان الزراعة تـكون ملجئى وظهيرى » .

هنا بدأت أكون معلماً ألقن « رافيشنكر » مايحتاج اليه من المعلومات الأولية . وبدأ الوقت يمر بى فى بطء مسئم ، فأخذت أطهو نصف طعامى . وأجرى الطهو على الطريقة النباتية الانكليزية . فبنيت موقداً، وبدأت أقوم بخدمة المطبخ مع « رافيشنكر » . وكنت لا أشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هـذا جرى خادمى . ولم يبق لى من شكوى أوجهها اليه الا ادمانه القـذارة ، حتى انه لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية .

غير اننى لم أستطع المقام فى « بومباى » أكثر من أربعـة أشهر أو خمسة لأنه لم يكن عندى من الدخل مايسد النفقات . وبعد أن يئست من أن أحصل على عمل فى « بومباى » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبى الأول . وهناك بدأت أعمل عملا معتدل القيمة ، وبلغ متوسط

دخلى ثلاثمائة روبية كل شهر ، ولـكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتى، بل الى تأثير أخى . فان شريكه كان ذا خبرة بالأعمال ، فـكان يعهد الى بالبسائط ، ويعهد بالمشكلات الى كبار المحامين .

وأرى انه من الواجب على أن اعترف اننى بدأت فى ذلك الوقت أفـكر فى ضرورة إعادة النظر فى مبدئى الذى جريت عليه من الامتناع عن دفع عمولة (سمسرة) . فقد أنبئت ان الحالة هنا على الضد مما أعهد . والعمولة تدفع فى « بومباى » للسماسرة ، ولـكنها فى راجكوت تدفع الى الوكلاء الذين يعونون المحامى بالقضايا . أما القاعدة هنا كما هى فى بومباى، فتحتم أن يدفع كل المحامين ومن غير استثناء نصيباً مئوياً من أتعابهم سمسرة. أما كلام أخى فى هـذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لى : « ترى اننى شريك مع وكيل آخر . وانى أميل دائمـاً أن نعهد اليك بكل القضايا التى نعرف انه فى مقـدورك مباشرتها . فاذا رفضت أن تدفع عمولة لشريكى ، فمن المحقق انك تضعنى فى مركز حرج . ولما كنا نشترك معاً فى معيشة واحدة فان أتعابك تعد دخلا مشتركاً لـكلينا وينالنى من ذلك نصيب . ولـكن ماذا يكون أمر شريكنا ؟ افرض مثلا انه عهد بقضية بين يديه الى محام آخر ، فانه ينال منه عمولة » ولقـد اقتنعت بهذا الـكلام ، وشعرت بأنى اذا أردت أن أعمل كمحام ، وجب على أن أضحى بمبدئى فى دفع العمولة ، وفى مثل الحالات التى ذكرها أخى على الأقل . هذا ما ساورنى وتردد فى نفسى ، أو بكلام أوضح ، بهـذا

خدعت نفسى وغششتها . ولامندوحة لى عن أن أضيف الى هذا انني لاأذكر انى دفعت عمولة ما فى حالة ما فى غير هذه الحالات التى جري عليها كلام أخى . وعلى الرغم من أننى جاهدت فى سبيل أن أوفق بين المتقاضين ارضاء لسر مهنتى ، فقد صدمت فى ذلك الحين أول صدمة عنيفة فى حياتى . ولقد سمعت كثيراً من قبل مايعنى الهنود بضابط انجليزى ، ولكنى لم أكن قد وقفت أمام ضابط انكليزى وجهاً لوجه حتى ذلك الحين .

كان أخى سكرتيراً ومستشاراً للمرحوم « راجابورباندر » وقد علقت فى عنقه من بعد ذلك تهمة أنه أشار بنصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك المنصب . ووضعت المسألة بين يدى القومسير السياسى ، وكان فى صدره من أخى حفيظة . وكنت أعرف ذلك الضابط لما كنت فى انكلترا ، ومما يمكن أن أصرح به انه كان على صداقة معى . وظن أخى أنه من المستحسن أن ألجأ إلى هذه الصداقة ، فألقى بكلمة طيبة عند الضابط تشفع لأخى بعض الشيء . وظن أخى أنه فى استطاعتى أن أوضح حقيقة الأمر للضابط لعل ذلك يخفف من حفيظته نحوه . غير أنى لم أوافق مطلقاً على هذه الفكرة ، لأنى لم أرد أن أجعل لصداقة حصلت مصادفة فى انكلترا، مدخلا فى مثل هذه الامور . فاذا كان أخى حقيقة قد أخطأ فأى شيء يفيد تدخلى أو توصيتى ؟ وإذا كان بريئا ، فما عليه إلا أن يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر وينتظر النتيجة . غير أن أخى

لم ترقه هذه النصيحة . وقال لى « انك لا تعرف كاثياوار . وعليك فوق ذلك أن تعرف الدنيا . فليس لشىء هنا قيمة الا الوسائط . ولا يخلق بك وأنت أخى أن تمتنع عن القيام بالواجب ، وأنت قادر على أن تفوه بكلمة طيبة عنى لضابط أنت على صلة به » .

ولقد أصبح من المستحيل على بعد ذلك أن أرفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتى وعلى كره منى . وكنت أعرف أنه لا يحق لى أن ألاقيه ، ومتحققاً فوق ذلك انى كنت على وشك تعريض احترامى الشخصى للامتهان . ولكنى على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت، وما كدت أذكره بصلتنا فى انكلترا ، حتى أبان لى سريعاً أن « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانيا فى اجازته ، غيره وهو قائم بمهام منصبه . ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التى كانت بيننا ، غير ان تذكيره بها قد جاوز به إلى الخشونة. أما خشونته فكان معناها « انك لم تأت الى هنا اليوم الا لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير انى رغم ما أدركت من الموقف ، شرحت شكاتى . وهنا عيل صبره ، وقال محتداً — « إن أخاك دساس ، وانى لا أريد أن أسمع شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندى وقت . واذا كان عند أخيك مايقوله فما عليه الا أن يلجأ الى المراجع المختصة » . وربما كنت أستحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات أعمى ، فعدت بعد كل هذا الى روايتى أتمها . وهنا وقف الصاحب وقال لى « يجب أن تذهب الآن » فقلت « ولكن

أرجوك أن تسمع منى » . فلم يزده كلامى هذا الا غضباً . فنادى خادمه وأمره أن يدلنى على طريق الباب . وكنت لا أزال متردداً عند ما أقبل الخادم . ووضع يديه فوق كتفى ودفعنى خارج الباب .

وما كدت أستقر فى مكانى حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتنى ، وتهجمت على من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هـذا الأمر ، اضطررت أن أرفع أمرى الى القضاء »

ولـكن سرعان ما تلقيت منـه الجواب على يد حاجبه وقـد جاء فيـه .

« لقد كنت بذيئا معى . فقد أمرتك بالذهاب وأنت امتنعت . فلم يكن لى من بد ازاء امتناعك من أن آمر خادمى بأن يريك طريق الباب. ولما سألك أن تترك مكتبى لم ترد أن تفعل ذلك ، فما كان لديه من وسيلة أخرى الا أن يستعمل معك من القوة قـدراً يكفى لاخراجك . وانك حر فى أن ترفع أمرك الى أية جهة أردت ».

عـدت الى المنزل وفى جيبى هذا الرد ، ذليلا خافض الرأس ، وقصصت على أخى كل ماحصل ، فحزن . ولـكن لم يكن يدرى طريقاً يسلينى به عمـا حدث . وكثيراً ماتحدث عن هـذا الأمر الى أصدقائه من الوكلاء ، لأنى لم أكن أعرف الطريق الرسمى لمقاضاة الصاحب ، وحدث أن السر « فيروزشاه مهتا » كان فى راجكوت فى ذلك الوقت ، وقد قـدم من بومباى لمباشرة قضية ما . ولـكن كيف السبيل لمحام

سغير حديث العهد بالمهنة ، أن يقابله ويحظى بلقياه ؟ ولـكن أرسلت ليه أوراق قضيتي من طريق الوكيل الذى دعاه الى راجكوت وسألته لرأى فى الموضوع . فقال للوكيل « أفهم غاندي ان مثل هـذه الأشياء مر عادى هنا . انه هبط من انجلترا قريباً ولايزال دمه حامياً . وانه لايعرف الضابط الانجليزى. فاذا كان يريح من مهنته شيئاً هنا، واذا كان لزمان يؤاتيه بالحاجات ؛ فقل له ان الأولى به أن يمزق مذكرته وأن يبلع لاهانة. فانه لن يربح شيئا من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك عاماً يرجح كثيراً أن يكون فى ذلك هدم مستقبله . وعليك أن تعرفه عنى ن عليه أن يعرف من الدنيا أكثر مما عرف حتى الآن » .

كان لهذه النصيحة مرارة السم فى فمى ، ولـكن لم يكن لى مندوحة ىن أن أبتلعها ، كما ابتلعت الاهانة ، ولـكنى على كل حال انتفعت بها اذ عاهدت نفسى على « أن لا أضعها فى مثل هذا الموضع الدقيق مرة أخرى وأن لا أحاول أن أستغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية » . ومنـذ ذلك الوقت لم أرتـكب جريمة الحنث بعهدى والرجوع عن تصميمى هـذا . غير ان هـذه الصدمة الأليمة غيرت مجرى حياتى تغييراً كليا . ولا شبهة مطلقاً فى انى كنت مخطئا اذ أقـدمت على الذهاب الى القومسير السياسى . غير أن حنقه وقلة صبره وغضبه ، جميعها كانت لاتتناسب مع خطئى . ولم يكن فى الأمر مايوجب طردى . لانى كنت سوف لا أستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . ولـكن

الواقع انه لم يستطع أن يحتمل منى كلاماً فى الموضوع . وكان فى مستطاعه أن يطلب منى فى أدب أن أذهب. ولكن القوة الغاشمة أسكرته الى درجة غير كفيلة بالاتزان . ولقد علمت فيما بعد أن الصبر أبعد الأشياء عن فضائله .

أما اذا عزمت على أن أزاول مهنتى فى ذلك المكان فمما لا شك فيه أن أكثر قضاياى سوف تنظر أمام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوقى أن أتوصل الى ترضيته والتفاهم معه ، كما انى لم أكن على استعداد لأن أتزلف اليه . ولما كنت قد هددت بأن أقاضيه ، صعب على أن أظل ساكتاً . غير انى سرعان ما بدأت أفهم شيئا من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الا كتلة مكونة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقى كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة فى النظام الحكومى . وكان الأمراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن فى وسعهم الا أن يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بأن هذا الجو مشبع بالسموم ، وكيف أبقى بعيدا عن التأثر به ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها . وما لبثت غير قليل حتى شعرت بأننى مكتئب خائر النفس ولحظ فىّ أخى هذا الأمر . وشعر كلانا بأننى اذا استطعت أن أجد عملا بعيداً عن هذا المكان ، استطعت أن أفلت من جو الدسائس والوشايات . ومن غير أن ألجأ الى وسائل غير شريفة ، لم يكن فى وسعى أن أشغل منصباً اداريا أو قضائيا .

ناهيك بمشكلتى مع القومسير السياسى .

كانت « پوربآندر » اذ ذاك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لأسعى فى أن أنال للأمير حقوقا أوسع من الحقوق التى يتمتع بها . وكذلك كنت أرغب فى أن أرى المدير لأناقشه فى مسألة أجور الأراضى وارتفاع القيمة التى تجبى من المستأجرين.غير انى وجدت هذا الضابط المدير ، ولو انه هندى ، أشنع من الصاحب أخلاقا وأشد نزقا. ولقد فشلت فى هذا الأمر فشلا عظيما ، حتى لقد خيل الى أن العدل يمنع عن زبائنى عمداً، وبذلك أعجز عن أن أصل اليه . وكل ما كان فى مستطاعى أن أعمله لا يتعدى أن أعرض أمري أمام القومسير السياسى أو الحاكم الذى لم يكن من شأنه الا أن يرفض النظر فى شكواى قائلا : « ليس من شأننا أن نتدخل فى الأمر » . أما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات ، فلا شك فى أن يكون لنا شأن . ولكن ماذا يكون العمل مادامت ادارة الصاحب هى القانون ! غير انى شعرت فى النهاية اننى ساخط مغيظ، ورغبت كل الرغبة فى أن أبعد عن جو الدسائس جهد ما أستطيع .

فى هذا الوقت كتبت احدى المؤسسات التجارية فى « پوربآندر » الى أخى تعرض عليه الآتى :

« لنا أعمال فى جنوب افريقية ، ومؤسسة من أكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا فى قضية تبلغ قيمتها أربعين ألفاً من الجنيهات الانجليزية .

ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها أمهر الوكلاء وأشهر المحامين . فاذا سمحت بأن ترسل أخاك الى جنوب افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . ولسوف يستطيع ، على ماترى ، أن يزودنا بنصائح ثمينة ، فضـلا عن أنه سيرى بلادا جديدة وينشىء علاقات مع أشخاص لم يكن يعرفهم » . وبعد مناقشة قبلت العرض من غير أية مساومة وأخذت أستعد للذهاب الى جنوب افريقية .



الفصل السادس

فى ناتال

كان « عبد الله شيث » ينتظرنى فى « دوربان » Durban ووصلت السفينة الى المرفأ . فلاحظت الناس يصعدون الى الباخرة ليلاقوا أصدقاءهم ، كما لاحظت أن الهنود غير محترمين . ولم يفتنى أن أرى طابعا من الانحطاط والوضاعة ظاهراً فى الطريقة التى عومل بها « عبد الله شيث » من الذين كانوا يعرفونه على ظهر الباخرة . غير أن « عبد الله شيث » كان قد ألف هذه المعاملة . والذين لاحظوا وجودى منهم

لم يتعففوا عن أن يرمقونى بنظرات الاحتقار الممزوجة بالتعجب والدهشة . فان لباسى كان يميزنى عن بقية الهنود . فقد كنت ألبس بذلة « فروك » وعمامة صغيرة .

وكان « عبد الله شيث » غير مثقف ، ولكنه كان واسع التجربة كبير الخبرة . ويمتاز بعقل حاد مدرك ، وكان يعرف فى نفسه هذه الكفاية . وبخبرته استطاع أن يلتقط من اللغة الانجليزية قدراً يمكنه من التكلم بها . فساعده هذا فى أعماله ، سواء أفى علاقاته الكثيرة بمديرى البنوك والتجار الأوربيين ، أم فى شرح مشاكله لمستشاريه . وكان الهنود يمجدونه ويحترمونه ، كما كانت مؤسسته أكبر المؤسسات الهندية ، أو على الأقل من أكبرها . ولكن بجانب كل هذه المزايا كانت فيه نقيصة واحدة . فانه كان بطبعه مرتاباً كثير الشك .

وله بالاسلام شغف يدفعه الى الفخر به، ويجعله كثير الميل الى المناقشة فى الفلسفة الاسلامية، وعلى الرغم من أنه كان جاهلا باللغة العربية ، كان المامه بالقرآن والأدب الاسلامى على وجه عام لا بأس به . أما الأمثال فكان فيها كنزاً لايفنى ولاينضب ، يلجأ الى ذاكرته فتواتيه بها عن غير جهد . ولقد زودتنى علاقتى به بكثير من المعلومات العملية عن الاسلام . ولما زادت ألفتنا ، كنا نمضى فى منافشات طويلة وأبحاث واسعة فى الأمور الدينية .

وفى اليوم الثانى أو الثالث من وصولى صحبنى لأرى محكمة «دوربان» وهنالك قدمنى لكثير من الناس وأجلسنى الى جانب محاميه . فظل

الحاكم ينظر الى ويحدجنى بعينيه ، ثم أمرنى بأن أخلع عمامتى فرفضت أن أصدع بما أمر وتركت المحكمة فى الحال . ووقع فى روعى أن الجلاد والصراع ينتظرانى حيث حللت أيضاً . ولقد أبان لى « عبد الله شيث » عن السبب الذى من أجله يطلب إلى بعض الهنود أن يخلعوا عمائمهم . فالذين يرتدون الملابس الاسلامية يمكن أن يسمح لهم بوضع عمائمهم ، أما غيرهم فمن الواجب أن يخلعوها اذا دخلوا المحكمة .

ويقضى علىّ الواجب أن أشرح هنا بعض التفاصيل لأظهر السبب فى هذا التفضيل . ففى خلال اليومين أو الثلاثة التى قضيتها قبل ذهابى الى المحكمة لاحظت أن الهنود منقسمون الى شيع . احداها شيعة التجار المسلمين ، ويدعون أنفسهم « أعراباً » والثانية شيعة الهندوكيين ، والثالثة شيعة كتاب « البارسى » (Parsi) . أما الكتاب الهندوكيون ، فلم يكونوا الى هؤلاء ولا إلى اولئك ، مالم تتصل مصالحهم « بالاعراب » . أما الكتاب البارسيون ، فيدعون انهم فارسيون أى أعجام . وللشيع الثلاث روابط وعلاقات تصل بينهم . ولكن أكبر شيعة منهم كانت تتكون من رجال التميل Tamil والتيلوجو Telugu وسكان شمالى الهند الذين وفدوا الى جنوبى افريقية بمقتضى عقود حررت معهم والعمال الأحرار أى الذين يشتغلون بغير عقود . أما الذين وفدوا بعقود فقدهبطوا على ناتال يعملون فيها خمس سنوات . أما الشيع الثلاث الأخر فلم يكن لهم من عمل الا من طريق الاتصال بهؤلاء ويدعونهم

الانجليز « الأجراء » Coolie وهى كلة هندية الأصل ومعناها حمال أوشيال . وقد تنصرف الى الأجير أو العامل ، فصرفها الانجليزالى الهنود اطلاقاً .

ولما كانت الأغلبية العظمى من الهنود فى جنوبى افريقية من طائفة الأجراء ، جرت العادة أن يدعى الهنود جميعاً أجراء ـ Coolie ـ أو « سامى » Sammi بلا تميز بين الأقدار ولا المهن . وكلة « سامى » محرفة عن « سوامى » Swami وهو مقطع يضاف الى نهاية الأسماء عند قبيلة «التميل» فى الهند .

لهذا عرفت فى جنوبى إفريقية بأنى محام من الأجراء Coolie Barrister كما كان يعرف التجار بأنهم تجار الأجراء Coolie merchants وبهذا نسى المعنى الذى تدل عليه كلمة كولى Coolie وأطلقت لتكون اسما علماً على كل هندى .

أما التجار المسلمون فكانوا يحاولون أن يتخلصوا من شناعة الصفة التى جرت على الهنود مجرى أسماء الأعلام ، فيقول أحدهم اذا ما دعى بهذا النعت « اننى لست أجيراً وانما انا عربى » أو يقول « اننى غير أجير ، وانما أنا تاجر » فاذا كان الرجل الانجليزى الذى يدور معه الحديث فيه شىء من الأدب أو حسن الذوق ، اعتذر اليه .

ولوضع العمامة على الرأس شأن كبير فى مثل الحالات التى قامت اذ ذاك فى جنوبى إفريقية . فان خلع العمامة الهندية من فوق الراس

ليس له من معنى الا انك تصبر على اهانة أو تبتلع مسبة رميت بها ، ولهذا فكرت فى أن أودع عمامتى الوداع الأخير وأن ألبس قبعة انجليزية تحمينى السب والاهانة ، وتوفر على كثيراً من المنازعات . ولكن « عبد الله شيث » لم يوافق على الفكرة وقال « انك لو أتيت شيئاً من هذا كان له أسوأ الأثر ، لأنك ستتحدى أولئك الذين يدعون إلى لبس العمامة الهندية ويحترمون لبسها . والعمامة تستوى على رأسك جيداً ، فاذا لبست قبعة ظن الناس انك « جرسوناً » (خادم فى مشرب) .

كان فى هذه النصيحة قدر من الحكمة والوطنية ، ولكن كان فيها بجانب هذا أيضاً قدر من الجمود وضيق الفكر . أما وجه الحكمة فيها فكان ظاهراً . و ما كان ليحتم على الاستمرار على لبس العمامة لو لم يدعه الى ذلك داعى الوطنية . أما اشارته الى أن الناس قد يظنوننى « جرسوناً » ففيها جمود . وكان من بين الهنود ذوى العقود أوالمتعاقدين على العمل ، هندوكيون ومسلمون ومسيحيون . أما المسيحيون فهم أبناء أولئك الذين اعتنقوا الدين المسيحى . ولقد كان عددهم كبيراً حتى سنة ١٨٩٣ . وكانوا يلبسون الزى الانجليزى ويكسبون عيشهم من العمل « كجرسونات » فى الفنادق . ولهذه الطائفة أشار « عبد الله شيث » لما نصحنى بأن أبقى على عمامتى . وكان الهنود يرون أن العمل فى الفنادق أمر مبتذل مذموم .

على كل حال اذ عنت لنصيحة «عبد الله شيث».ولـكنى كتبت الي الصحف شارحاً ما وقع لى ، ودافعت عن ضرورة لبس العمامة فى قاعة المحكمة . ولقد أخذ الأمر شأناً كبيراً فى الصحف وكان مثار مناقشات انتهى الأمر منها بأنى « زائر غير مرغوب فيه » . وكانت هذه الحادثة سبباً فى الاعلان عنى فأصبحت معروفاً على غير ما كنت أنتظر فى كل نواحى إفريقية الجنوبية فى خلال بضعة أيام . وانشق الرأى ، ففريق يناصرنى ، وفريق ينتقد «نزقى» من الانتقاد .

فى اليوم السابع أو الثامن من مقامى بجنوبى إفريقية ، غادرت « دوربان » . وأخذت تذكرة بالدرجة الأولى لدى السفر . وكانت العادة أن يدفع المسافر فى الدرجـة الأولى خمسة شلنات اذا أراد أن ينام فى عربة النوم . وحتم على عبـد الله شيث أن أؤجر فراشاً . ولـكن عنادى وخيلائى ورغبتى فى الاقتصاد ، كل هذه جعلتنى أرفض ما أشار به على . فقال لى « تصور أولا ان هذه البلاد غير الهند . ولله الحمد لدينا مايكفى نفقاتنا . فأرجوك أن لاتحرم نفسك من شىء أنت فى حاجة اليه » .

ووصل القطار الى « مرتزبرج » عاصمة « ناتال » فى الساعة التاسعة مساء وكانت حجرات النوم تهيأ فى هذه المحطة ، فتقدم خادم وسألنى اذا كنت محتاجاً لفراش ؟ فأجبته سلبا ، وانصرف . ولـكن هبط على مسافر وأخذ ينظر فى طولا وعرضاً . ورأى انى من ذوى « الألوان »

Coloured man فأزعجه هذا الأمر ، وخرج ثم عاد ومعه موظف أو موظفان من عمال السكة الحديد . ولكن ظل الكل صامتين هنيهة ، ثم قرب منى أحد الموظفين وقال لى : « قم من هنا . انك يجب أن تذهب الى عربة السبنسة . (١)

« ولكن معى تذكرة فى الدرجة الأولى »

فرد على الموظف الآخر قائلا : « هذا لايهم . انى آمرك بأن تذهب الى السبنسة ».

— « لقد سمح لى أن أسافر فى هذا المحل من «دوربان» وأنا مصمم على أن أظل به حتى نهاية سفرى »

— « انك سوف لاتظل به ، بل يجب عليك أن تغادره ، وإلا فانى سأضطر الى الاستعانة بأحد كونستبلات البوليس ليخرجك من هنا »

— « لابأس . افعل . وانى أرفض أن أخرج من هنا مختاراً »

وجاء الكونستبل ، فأمسك بيدى وجذبنى خارج العربة . وأخرج معى أمتعتى الى الرصيف . ولكنى رفضت أن أذهب الى حيث أمرت وأزف ميعاد السفر ، وأطلق البخار للقطار العنان . فذهبت الى حجرة الانتظار ، بعد ان أخذت معى حقيبة صغيرة تعودت أن أحملها فى يدى وتركت بقية أمتعتى حيث كانت . بعد ان عهدت بها الى موظفى سكة الحديد .

(١) السبنسة كلمة نطلقها فى مصر على كلمة — van — وهى عربة تكون فى مؤخرة القطار وفيها عامل يقوم ببعض أعمال ضرورية فى حالات خاصة.

وكنا فى فصل الشتاء، والشتاء فى الأماكن المرتفعة فى جنوب افريقية شديد البرد. ومدينة «مرتزبرج» على ارتفاع كبير، فكان البرد زمهريراً. وكان معطفى فى الحقيبة الكبيرة، وخشيت بل خفت أن أسأل عنها لئلا تنالنى اهانة أخرى، فجلست اهتز من البرد وفرائصى ترتعد. ولم يكن فى الحجرة نور، بل كانت فى ظلام دامس. وفى منتصف الليل جاء مسافر وحاول أن يشتبك معى فى الكلام، ولكنى كنت فى حالة يتعذر على فيها أن أجد من نفسى ميلا للحديث.

وبدأت أفكر فى واجبى فى مثل هذا الظرف وتلقاء هذه المعاملة. أيجب على أن أصارع وأجالد فى سبيل التمتع بحقوقى، أم أرجع إلى الهند؟ أم أتابع السفر إلى «بريتوريا» ثم أعود إلى الهند بعد أن أفرغ من قضيتى؟ وكنت أعتقد أن من الجبن أن أرجع إلى الهند قبل أن أقوم بكل التزاماتى وواجباتى. أما المتاعب التى تعرضت لها حتى الآن فتافهة ولا قيمة لها. وهى فى حقيقتها ليست إلا عرضا بسيطا من أعراض ذلك المرض الذى يدعونه مرض «اللون» فلا بد لى اذن من أن أحاول استئصال شأفة هذا المرض وأن أقاسى فى سبيل ذلك المتاعب والآلام.

وعلى هذا صممت أن أركب القطار التالى الى «بريتوريا». وفى الصباح أرسلت برقية مطولة الى مدير السكك الحديدية العام، وأخرى الى «عبد الله شيث» الذى قابل مدير السكة الحديدية بمجرد أن وقعت

البرقية فى يده . ولقد برر مدير سكة الحديد مسلك الموظفين ، ولـكنه أخبره بأنه أبدى تعليماته الى ناظر محطة « مرتزبرج » بأن ينظر فى أمر وصولى الى حيث أريد آمنا . وأرسل عبد الله شيث الى التجار الهنود فى مرتزبرج وغيرهم من أصدقائه فى أماكن أخرى يوصيهم بى خيراً . وحضر التجار ليلاقونى فى المحطة ، وأخذوا يطيبون خاطرى ويروون الحوادث التى وقعت لهم ، ويظهرون لى أن ماوقع ليس بشىء غير عادى . وأخبرونى أيضاً أن الهنود الذين يسافرون فى الدرجتين الأولى والثانية يجب أن يوطنوا النفس على أن يلاقوا من عمـال سكة الحـديد ومن المسافرين « البيض » مثل هذه المعاملة ، وقضيت اليوم اسمع لمثل هذه الروايات المحزنة . وأقبل قطار المساء . فاشتريت فى « مرتزبرج» تذكرة « النوم » التى رفضتها فى « دوربان » .

ووصـل القطار الى « شارلستون » فى الصباح . ولم يكن فى تلك الأيام مواصـلات بخارية بين « شارلستون » و « جوهنزبرج » بل كانت المواصلات تنحصر فى النقل على عربات كبيرة تقضى الليل فى بلدة « ستندرتون » أثناء السفر . وكان معى تذكرة تبيح لى السفر فى هذه العربة ، ولم تـكن قد ألغيت قانوناً على الرغم من تخلفى يوماً بأكمله فى بلدة « مرتزبرج » . وفضلا عن هـذا كان « عبد الله شيث » قد أرسل برقيـة الى متعهـد العربات فى « شارلستون » ليسهل لى طريق السفر .

غير أن المتعهد كان يحاول أن يستند الى أية حجة يمنعنى بها عن ركوب العربة لما عرف أنى « أجنبي » فقال لى « ان تذكرتك ألغيت » فرددت عليه بما يجب أن يقال فى مثل هذه الظروف . ولم يكن السبب فى عدم سماحه لى بالسفر فى العربة هو عدم وجود الفراغ ، بل كان سبباً آخر يحاول أن يخفيه . والمتبع فى مثل هذه الأسفار أن يجلس المسافرون داخل العربة ، ولكنى لما كنت معتبراً من «الاجراء» وأنى أجنبي ، رأى المراقب الذى يرافق المسافرين «البيض» أن أجلس بجوار السائق . وكانت هناك مقاعد على جانبى العربة من الخارج والواجب على هذا المراقب أن يجلس فى أحدها ، ولكنه جلس داخل العربة وأعطانى مقعده . واعتقدت أن هذا مجرد اخلال بالنظام وخروج على العدل،فضلا عما فيه من اهانة واذلال .ولكنى فضلت أن أذعن ، لأنه لم يكن فى مستطاعى أن أقتحم طريقى إلىداخل العربة ، وإذا احتججت سافرت العربة وتركتنى حيث أنا .ومعنى هذا أنى أخسر يوماً آخر ، ولايعلم إلا الله ما كان يحدث فى ذلكاليوم . وعلىالرغم مما كنت أشعر به فى نفسى من غيظ وحنق ، جلست باحتراس إلى جانب السائق .

حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت بنا العربة إلى « برديكوت » وأراد المراقب أن يجلس حيث كنت أجلس لأنه أراد أن يدخن . ولعله كان يشعر أنه فى حاجة إلى الهواء الطلق . فأخذ من السائق قطعة قذرة من الخيش وفرشها على الممشى ونادانى قائلا ــ «أنت ياهذا.اجلس

هنا لأنى أريد أن أجلس إلى جانب السائق »· وكانت هـذه الاهانة أكثر مما يمكن أن أحتمل ، ولـكنى قلت له فى خوف ورعدة ـ « إنك بنفسك الذى أجلستنى هنا ، على الرغم أن من حقى أن أجلس داخل العربة . غير أنى احتملت هذه الاهانة · والآن لأنك تريد أن تجلس فى الخارج لتدخن ، تريدنى أن أجلس عنـد قدميك · وانى لأرفض أن أذعن لهذا مالم آخذ مقعدى داخل العربة . »

وإذ كنت أجهد نفسى جهداً لأخرج هذه الـكلمات، تقدم الرجل نحوى وبدأ يصفعنى على أذنى صفعاً مؤلما شديداً ، وأمسك بذراعى وحاول أن يجذبنى إليه فتشبثت بأجزاء من العربة وصممت على أن أظل متشبثاً بها ، حتى ولو كسر رسغى ، وكان المسافرون يشهدون هذا المنظر ، والرجل يجذبنى اليه ويعمل جهده ليزحزحنى من مكانى ، وأنا متشبث به . وكان قوياً بقدر ما كنت ضعيفاً . وفى النهاية أخذت الرحمة تعمل فى قلوب بعض المسافرين فنادوا الرجل قائلين « اتركه أيها الرجل . انه على حق · فانه إذا لم يستطع أن يجلس حيث أردت ، فاتركه يجلس معنا» فأجابهم المراقب « لا تخافوا » · ولـكن الظاهر أنه شعر بأنه هزم ، فامتنع عن ضربى ، وترك ذراعى متجهماً ، وأمر الخادم « الهوتنتوتى » أن يشغل المقعد الذي كان هيأه لى ، وأخذ هو مقعده .

وأخذ المسافرون أمكنتهم ، وأعطيت اشارة السير ، وانطلقت العربة فى مسيرها وكان قلبى يدق دقات سريعة قوية ، حتى لقد خيل إلى أنه

يكون من العجب إذا أنا وصلت إلى حيث كنت أريد وفى نفس يتردد. وكان الرجل يحدجنى بنظرة غضب بين آونة وأخرى مشيراً إلى بيده فى تهديد قائلا . « خذ حذرك . فانى إذا وصلت إلى « ستندرتون » فسأريك عاقبة عنادك » . ولكن ظللت صامتاً أدعو الله أن يكون فى عونى.

ولما خيم الظلام كنافى « ستندرتون » ولم أكد أرى وجوهاً هندية حتى صعدت من أعماق رئتى تنهدة طويلة . وبمجرد أن نزلت من العربة قال لى هؤلاء الأصدقاء نحن فى انتظارك لنرافقك إلى محل تجارة « عيسى شيث » فقد أرسل الينا « دادا عبد الله » برقية بهذا المعنى . فاغتبطت ورافقتهم إلى محل « شيث عيسى حاجى سومر » والتف من حولى كتاب المحل ، وقصصت عليهم كل ما حدث لى فحزنوا ، ولكنهم انطلقوا يعيدون على سمعى ما وقع لكل منهم من التجاريب المريرة .

وأردت أن أخبر مدير شركة العربات بكل ما وقع لى . فكتبت اليه خطابا ، قصصت فيه كل ما حصل تماماً ، ووجهت انتباهه إلى التهديد الذى هددنى به العامل ، وكذلك طلبت منه تأكيداً بأن يعطينى مكانا مع بقية المسافرين داخل العربة عند ما تستأنف السفر صبيحة الغد . فكان جواب المدير ما يلى :

« إن العربة التى ستغادر ستندرتون أكبر من العربة الأولى . ورجالها غير رجال تلك . والعامل المشكو منه سيكون بعيداً عن العمل غدا ، وسيخصص لك محل مع بقية المسافرين فكان فى جوابه

هذا بعض الترضية . ولم يكن لدى أية فكرة فى مقاضاة الرجل الذى ضربنى وبذلك انتهى الأمر عند هذا الحد .

وفى الصباح رافقنى رجال « عيسى شيث » إلى العربة ، وأخذت فيها مكانا لائقاً ، ثم وصلت «جوهنز برج» فى المساء آمناً .

إن ستندرتون قرية صغيرة ، وجوهنز برج بلدة كبيرة . وكان عبد الله شيث قد أبرق إلى «جوهنز برج» أيضاً ، وأعطانى اسم «محمد قاسم قمر الدين» وعنوان محله التجارى . وحضر إلى خادمه ليتلقانى فى موقف العربات . ولكن لم أره ، كما أنه لم يعرفنى . فعزمت على الذهاب إلى فندق . وركبت عربة وأمرت السائق أن يذهب بى إلى « الجراند أوتيل ناسيونال » وقابلت مدير الفندق وسألته عن حجرة . فأخذ ينظر فى هنيهة ، وقال فى أدب ـ « متأسف ليس عندنا مكان » فعدت إلى العربة وأمرت السائق أن يذهب إلى محل تجارة محمد قاسم قمر الدين . وهنالك وجدت عبد الغنى شيث يرتقب وصولى ، فتلقانى بكل ترحاب ، ومضى يضحك مما حدث لى فى الفندق قائلا « وهل تنتظر أنه يمكن أن تقبل فى الفندق ؟ »

ـ ولم لا .

ـ « ستعرف السبب بعد أن تقيم هنا بضعة أيام . اننا لا نستطيع أن نعيش فوق هذه الأرض ما لم نتحمل ونتسامح . وفى سبيل جمع المال نتغاضى عن السباب . هكذا نحن هنا »

وأخذ يقص على سمعي مختلف أنواع الصعاب والمشقات التى يعانيها الهنود فى جنوبى أفريقية ·

وبعد أن مضي على مقامي زمن قال لى ـ « إن هذه البـلاد ليست بالديار التى تليق بأمثالك . وأنك سوف تمضي إلى بريتوريا غداً · فعليك أن تسافر فى الدرجة الثالثة . فان مجرى الأحوال فى الترنسفال أشنع منه فى الناتال . فان تذاكر الدرجة الأولى والثانيـة لاتصرف بتاتاً للهنود · وإن كل مجهود فى سبيل تغيير هذا النظام يذهب هباء . ولقد أرسلنا مرات عديدة من ينوب عنا للـكلام فى هذا الشأن ، ولـكن رجالنا على وجه عام يكرهون السفر فى الدرجتين الاولى والثانية »

فأرسلت فى طلب لوائح سكة حديد وقرأتها بعناية · وبعد الدرس وجدت فيها مخرجاً · فان اللغة القديمة التى كتبت بها اللوائح لم تـكن مضبوطة ولا بينة الحدود تماماً . واللغة التى كتبت بها لوائح سـكة الحديد كانت أحط من تلك بمراحل ·

فقلت لشيث «أريد أن أسافر فى الدرجة الأولى · فاذا لم أستطع فانى أفضل أن أركب عربة إلى بريتوريا ، وهى لا تبعد أكثر من سـبعة وثلاثين ميلا »

فأرشدنى شيث عبد الغنى عمـا يقتضى هذا الأمر من ضياع الوقت وزيادة النفقات · ولـكنه وافق على أن أسافر فى الدرجة الأولى ، وأرسلنا بذلك مذكرة إلى ناظر المحطة ، ذكرت فيها أنى محام وأنى أسافر

دائما فى الدرجة الأولى ، وأن عملى يقضى على بأن أصل إلى بريتوريا فى أقرب فرصة ممكنة . ولم يكن لدى من الوقت ما يسمح بانتظار جوابه ، وفضلت أن أتلقاه منه شخصياً فى المحطة، وكان لى غرض من تلقى جوابه بشخصى خفية عن أصدقائى . فاذا كان ناظر المحطة سيرسل إلى رداً مكتوبا فمن المؤكد أنه سيقول « لا » مادام مقتنعاً بأن الشخص المسافر لايزيد عن محام من « الاجراء » فيكون من الأوفق إذن أن أظهر أمامه فى بزتى الانجليزية ، وأن أتكلم اليه ، فربما أحمله على أن يرضى بصرف تذكرة فى الدرجة الأولى . ولذا ذهبت إلى المحطة فى بذلة « فروك » ورباط رقبة من الطراز الأول ، وأبرزت جنيهاً انجليزياً ليأخذ منه أجرة السفر ، وسألته أن يعطينى تذكرة فى الدرجة الأولى .

ـ فسألنى ـ « هل أرسلت إلى هذه الرقعة ؟ »

ـ نعم . وانى لأكون ممنوناً إذا سمحت لى بتذكرة ، فان واجبى يقضى على أن أصل إلى بريتوريا اليوم .

فتبسم فى حنو وقال « إنى لست من أهل الترنسفال ، بل هولاندى . ولذا أقدر شعورك وأمنحك عطفى . وسأعطيك التذكرة التى تطلبها ، ولكن على شرط أنه إذا أراد مراقب القطار أن ينقلك إلى الدرجة الثالثة ، فلا تحملنى أية مسؤولية فى الأمر . وأعنى بذلك أنك لاتقاضى الشركة . وآمل أن تصل سالما فانى أراك سيداً كريماً » .

وصرف التذكرة ، فشكرته وأكدت له انى سأرعى عهدى معه .

وجاء شيث عبد الغنى ليودعنى على المحطة . ولقد أبدى أقصى الدهشة عندما عرف أنى تحصلت على تذكرة فى الدرجة الأولى ، ولكنه حذرنى قائلا ـ «سأكون بلا شك شاكراً للعناية إذا أنت وصلت بريتوريا سالما. وأخشى أن لا يتركك مراقب القطار آمنا فى الدرجة الأولى . واذا تركك هو ، فان المسافرين سوف لا يتركونك » .

وأخذت مكانى فى الدرجة الأولى من العربة وسافر القطار . وفى محطة « جرمستون » أتى المراقب ليفحص التذاكر ، فغضب إذ وجدنى فى الدرجة الأولى وأشار إلى بأصبعه آمراً أن أذهب إلى الدرجة الثالثة . فأبرزت له تذكرتى فقال ـ « إن هذا لا يهم . يجب أن تذهب إلى الدرجة الثالثة . »

ولم يكن معى فى العين التى أجلس بها إلا رجلا انجليزياً . فتحدى المراقب قائلا ـ « ماذا تعنى بذلك . ومن أجل أى شىء تتعب هـذا السيد ؟ ألا ترى أن معه تذكرة فى الدرجة الأولى ؟ أما أنا فلا أشعر بأى تكليف فى أن يرافقنى فى السفر » ـ ثم نظر إلى وقال ـ « تفضل واسترح حيث أنت » . فتمتم المراقب قائلا ـ « إذا كنت تريد أن ترافق أجيراً فى السفر فماذا يهمنى ؟ » . ثم انصرف .

وحوالى الساعة الثامنة مساء وصل القطار الى بريتوريا .

ولقد ترقبت أن يتلقانى فى المحطة شخص من قبل محامى «داداعبدالله» وكنت قد صممت على أن لا أنزل فى بيت أحـد من الهنود ، فـكان

من المنتظر أن لا أجد أحداً منهم . غير أنى لم أجد أحداً أيضاً من قبل المحامى . ولقد علمت بعد ذلك أننى وصلت يوم أحد ، ولم يكن فى مستطاعه أن يرسل أى شخص من غير أن يكون فى ذلك شيء من التكليف والامتعاض . ولم أكن أعرف إلى أين أذهب ، وخفت أن لا يسمح لى بالمبيت فى فندق من الفنادق .

أما محطة بريتوريا سنة ١٨٩٣ فغيرها الآن ، فقد كانت أنوارها ضئيلة وكان المسافرون قليلى العدد . فتأخرت عن الخروج وتركت جميع الركاب يخرجون قبلى ، حتى أستطيع أن أسأل العامل الذى يجمع التذاكر عما اذا كان فى قدرته أن يهديني الى فندق صغير ، أو الى أى مكان من نوعه أستطيع أن أقضى فيه الليل ، والا فانى أقضى الليلة على رصيف المحطة . ولا بد لى من الاعتراف بأنى خفت أن أسأله هذا السؤال حذر أن يهينني أو يشتمنى .

وخلت المحطة من كل المسافرين وسلمت تذكرتى للعامل ثم أخذت ألقى عليه أسئلتى . فأجابنى فى أدب جم ، ولكن اتضح لى أنه لا يستطيع مساعدتى ، وساق الى القدر فى تلك اللحظة عبداً اميركياً ، تدخل فى الأمر واشتبك معنا فى الحديث فقال ـ « أرى انك غريب . وليس لك هنا أصدقاء ، فاذا سمحت أن ترافقنى هديتك الى فندق صغير يملكه رجل أمريكى يعرفنى معرفة أكيدة . وأظن أنه لا يرفض قبولك »

ولم يحل قبولى مساعدته دون شكوك وريب . غير أنى شكرته وقبلت

اقتراحه ، فاقتادنى الى فندق اسمه « أسرة جونستون » وانتحى بالمدير ناحية يكلمه ، فقبل أن أقضى عنده الليلة على شرط أن أتناول غذائى فى حجرتى ولا أبرحها . ثم قال لى ـ « كن على يقين من أنى بعيد عن شعور كراهية الالوان . ولكنى أجرى على العادات الأوربية هنا . واذا سمحت لك بأن تتناول طعامك فى حجرة الأكل ، فربما امتعض نزلائى أو تركوا الفندق بتاتاً » ـ فأجبته

ـ أشكرك على أنك قبلتنى هذه الليلة . كنت قليل الخبرة بالأحوال هنا ، ولكنى أزداد بها علما مع الزمن . والآن أستطيع أن أقدر موقفك ولا يهمنى أن أتناول عشائى فى حجرتى ، وآمل أن توفق الى ترتيب أدق فى اليوم التالى » .

وذهب بى الى حجرتى ، وظللت بها أنتظر عشائى وأتسلى بالغناء ، لأنى كنت وحدى . ولم يكن فى الفندق كثير من النزلاء . وكنت أنتظر الخادم ليحضر الطعام ، ولكن جاء مستر « جونستون » بنفسه وقال لى ـ « لقد شعرت بكثير من الخجل اذ طلبت منك أن تتناول طعامك هنا . فتكلمت مع بقية النزلاء بشأنك وسألتهم ان كانوا يسمحون لك بتناول الطعام فى حجرة الأكل . فأبدوا أن لا اعتراض لهم البتة على ذلك، بيد أنهم لا يرون أى مانع من أن تظل هنا ماشئت المقام . فتفضل بالنزول الى حجرة الأكل ولك أن تظل بها كيفما شئت » .

فشكرته وذهبت الى حجرة الاكل وتناولت عشائى مغتبطا وبشهية عظيمة

الفصل السابع

فى بريتوريا

فى صبيحة اليوم الثانى ذهبت الى مكتب مستر بيكر المحامى ، وكان عبد الله شيث (صاحب الدعوى) قد زودنى ببعض معلومات عنه . ولذا لم يدهشنى انه استقبلنى بأنس وبشاسة ، وأخذ يسألنى عن بعض الأشياء . ثم قال لى — « ليس عندنا من عمل تشغله كمحام لأننا بالفعل قد لجأنا الى أكابر ذوى الرأى . والقضية كثيرة الشعب والتفاريع ، بيد انها معقدة . وغاية ما أستطيع أن أنتفع بك فيه هو أن تساعدنى بامدادى بالمعلومات الضرورية . وفى مستطاعك أن تجعل علاقتى بموكلى أكثر سهولة ، وستكون أنت المسلك الوحيد الذى به أتمكن من التزود بالمعلومات منه . وهذا على ما أعتقد أمر ذو قيمة . وانك لواجد كراهية الجنس واللون قد بلغت حداً مخيفاً فى هذه البلاد ، وليس من السهل أن تجد محلا تقيم فيه باطمئنان . ولكن أعرف امرأة فقيرة هى زوجة رجل تاجر رقيق الحال . وغالب ظنى انها تقبل أن تعيش معها وبذلك يمكن أن يزيد دخلها »

فأخذنى الى منزلها وكلمها فى خلوة بشأنى وقبلت أن أبقى معها تلقاء خمسة وثلاثين شلناً فى الأسبوع نوماً وطعاماً .

أما مستر بيكر فكان من كبار المبشرين بالدين النصرانى ، وأكثرهم حماسة . ولا يزال حيا الى الآن ، وقد تفرغ للرسالة التبشيرية وترك مهنته الأصلية . وهو متوسط الغنى . ولقد استمر يكاتبنى ، ولكنه ظل فى كل ما يكتب أميناً لمعتقده . فهو لا يزال يذكر النصرانية وفخامتها وسمو مراميها ، ويزعم انه من المستحيل أن ينعم الانسان بالسلام الأبدى ، مالم يعتقد ان عيسى ابن الله ، وانه مخلص النوع الانسانى .

ومنذ أول مقابلة استطاع مستر « بيكر » أن يستخلص منى متجهى الدينى ، فقلت له : « انى هندوكى مولداً ، ولكنى لا أعرف كثيراً عن تفاصيل الدين الهندوكى ، ومعرفتى بالأديان الأخرى أقل من معرفتى بدينى الأصلى ، وفى الحقيقة لا أستطيع أن أحدد بالضبط موقفى من الأمور الدينية ، أو أن أحقق ماهو ، أو مايجب أن يكون معتقدي . وانى لأميل أن أدرس دينى الأصيل بعناية ، وأن أكب على درس الأديان الأخرى ، على قدر ما تسمح ظروفى » .

فاغتبط مستر بيكر إذ سمع منى هذا الكلام وقال: «انى أحد مديرى بعثة التبشير العامة فى جنوبى افريقية ، وشيدت كنيسة خاصة بمالى لألقي بها مواعظ دينية بانتظام.ولست من أولئك المصابين بمرض الجنس أو اللون . ولى أصدقاء يرون رأيى هذا ، فنجتمع كل يوم حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ونكب على صلاة حارة ندعو الله فيها أن يمنحنا

السلام والنور ، وانى لأسر أن توافينا الى هناك لأقدمك الى أترابى ، الذين سوف يغتبطون بمرآك ، ولا أحجم عن أن أقول انك سوف تسر بصحبتهم . وكذلك أريد أن أزودك ببعض الكتب الدينية لتقرأها ، ولو أنك يجب أن تعرف أن أبا الكتب كلها هو الانجيل المقدس ، وهو الذى اخصك بالنصيحة فى أن تجعله سميرك »

فشكرت مستر بيكر ووعدته بأنى سوف أشهد صلاة الساعة الأولى بعد الظهر بانتظام على قدر ما أستطيع فقال : « اذن سأنتظرك غداً حوالى الساعة الأولى لنذهب معا ونصلى » ثم افترقنا بعد التحية الواجبة .

ولم يكن لدى من الوقت ما يكفى للتفكير والتأمل ، فذهبت تواً الى الخان الذى كنت أنزل فيه ودفعت حسابى وانتقلت الى مأواى الجديد حيث تناولت وجبة الظهر ، وكانت سيدة المنزل من الطيبات ، فأعدت لى غذاء نباتيا . غير انه مضى زمن قبل أن أتعود على المعيشة مع الأسرة وأشعر انى فى منزلى . وبعد ذلك ذهبت لألاقى ذلك الصديق الذى زودنى « دادا عبد الله » بتوصية له . فعلمت منه أكثر مما كنت أعلم عن المتاعب التى يعانيها الهنود فى جنوبى افريقية ، وأظهر لى تصميمه على أن أعيش معه فشكرته وعرفته انى أفضل ترتيب حياتى على وجه يقنعنى ، فاكتفى بأن يسألنى أن لا أحجم عن أن ألجأ اليه فى كل شىء احتاج اليه . .

وخيم الظلام ، فعدت الى المنزل وتناولت عشائى ثم ذهبت الى حجرتى واستلقيت مغموراً فى لجة عميقة من الأفكار ، ولم يكن لدى من عمل يشغلنى فى ذلك الوقت ، ولكن الذى أثار دهشتى انحصر فى ذلك الاهتمام الذى وجهه الى مستر بيكر . وأخذت أفكر فيما يمكن أن تكون الفائدة التى أجنيها من العمل مع زملاء انحصر كل همهم فى الدين ؟ والى أى حد يجوز لى أن أذهب فى درس النصرانية ؟ وكيف أستطيع أن أفهم النصرانية من غير أن أدرس ديانتى الهندوكية درسا عميقا مستفيضاً ؟ ولقد خلصت من هذه التأملات بنتيجة واحدة محصلها أن أكب خالى الفكر والغرض على درس كل مايقع لى وأن أتصرف مع مستر بيكر وجماعته كما يريد الله أن يهدينى ، على أن لا أتطوح الى التفكير فى اعتناق دين آخر قبل أن أعرف ما هو دينى الأصيل . وما وصل بى الفكر الى هذا الحد حتى أغفيت وأخذتنى سنات نوم هادئة طويلة .

وفى اليوم التالى حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ذهبت الى ملتقى العبادة الذى أقامه مستر بيكر فقدمنى الى مس هاريس ومس جاب ومستر كوتس وغيرهم . وقد ركع الجميع يصلون فركعت مثلهم . وكانت الصلاة مجرد ابتهال الى الله فى طلب أشياء كثيرة ، كل منهم على حسب حاجته . ولكن التوسل الدائم كان فى سبيل الدعاء بأن يمر اليوم فى سلام وأن يأمر القادر الأحد بأن تفتح أبواب القلب . ولكن أضيف الى ذلك دعاء توجهوا به نحوى بقولهم — « يارب أنر الطريق لأخينا الجديد

الذى هبط جمعيتنا ، وأنعم عليه يارب بما أنعمت به علينا من طمأنينة، وخلصه بحق سيدنا عيسى كما خلصتنا . أجب دعاءنا بحق عيسى عليك » ولم يكن فى هذه الاجتماعات تراتيل أو موسيقى وكنا نفترق كل يوم عقب الابتهال بطلب شيء خاص ، كل منا إلى بيته لتناول الطعام . ولم تكن الصلاة تستغرق أكثر من خمس دقائق .

أما مس هاريس ومس جاب فكانتا آنستين حطمتا الشباب ودلفتا إلى الكهولة . وكانتا تعيشان معاً . فعينتا لى موعداً الساعة الرابعة بعد ظهر كل أحد لا تناول معهما الشاى فى بيتهما فاذا اجتمعنا فى ذلك الموعد ، أعطيت لمستر كوتس يومياتى الدينية التى تعودت أن أدونها خلال الأسبوع وأتناقش معه فى الكتب التى كنت أقرأها والآثار التى تخلفها مطبوعة فى نفسى . وكانت الآنستان تقصان علينا تجاريبهما اللذيذة وتصوران الطمأنينة والسلام اللذين تحسان بهما فى نفسيهما . أما مستر كوتس فكان شاباً مخلص السريرة صريحاً . وكنا نخرج للنزهة ماشيين ، فكان لا يترك فرصة تمر دون أن يقدمنى إلى غيره من الرجال المشتغلين بنشر النصرانية . فلما زادت ألفتنا أخذ يعطينى كتباً يختارها لى بنفسه ، حتى أصبح عندى مجموعة كبيرة منها . وبقدر كاف من الايمان الثابت أكببت على قراءة هذه الكتب ، ولكن لم أترك أمراً فيها من غير أن أقتله بحثا ومناقشة .

وبقدر ما أهدى إلى من كتب ، قدمنى لأصدقاء من مخلصى النصارى .

وكان من بين هؤلاء أسرة تنتمي إلى جمعية تدعى «اخوان بليموث» . غير اني لا أنكر أن أكثر الذين قدمني اليهم مستر كوتس كانوا أخياراً طيبين . وأبين ماظهر لى من اخلاقهم انهم كانوا يخافون الله . ولكن حدث ذات يوم أن جابهني أحد أعضاء « اخوان بليموث » بسؤال لم أكن على استعداد لأن اجيب عليه . قال

«انك لاتستطيع أن تدرك مافى ديننا من جمال . ويظهر من كل أقوالك أنك تعكف دائما على التأمل والتفكير فى خطايانا كل لحظة من لحظات حياتك ، محاولا أن تصلح من أمورنا وان تعوضنا عنها كفارة واستغفاراً . فكيف تتصور ان دورانك حول هذه الدائرة التى لاتنتهى يمكن أن يحبوك الخلاص الاخروى . انك لن يطمئن لك قلب أو يحل بصدرك السلام . انك تسلم باننا جميعاً واقعون فى الخطيئة . ولذا يجب أن تعرف مدى مايصل اليه معتقدنا من الكمال . فان الغرض الذى تحاول الوصول اليه من طريق التفكير فى ذنوبنا ، انما هو طمع فيما لامطمع فيه ، ولكنا رغم هذا نتطلع الى الخلاص الاخروى والفداء التام . وكيف نستطيع أن نحتمل عبء الخطية ؟ اننا لانستطيع أن نلقيه على كاهل عيسى . فانه وحده ابن الله المحرر عن المعاصى والخطيئات. هو القائل بأن أولئك الذين يؤمنون به دون غيرهم هم الذين سوف يفوزون بالخلود الأبدى . وفى هذا سر الرحمة الالهية غير المتناهية . ولما كان ايماننا

بعيسى كاملا وثقتنا بغفرانه تامة ، اعتقد بجانب هـذا ان خطايانا لن تقيد ضمائرنا . اننا يجب ان نعصى وان نخطىء . لأن من المستحيل أن يعيش الانسان فى هذه الدنيا منزها عن الخطيئة . ومن أجل هذا تعذب عيسى وكفر عن كل خطايا النوع الانسانى . والذى يقبل فـداء عيسى ويعتقد به ، هو دون غـيره الذى يحظى بالسلام الأبدى . فانظر الآن وقس الفارق بين القلق الذى تحسه فى حياتك ، وبين السلام والطمأنينة التى نلحظها فى حياتنا »

غير أن هذا التدليل سقطت عندى حجته سقوطا كاملا ، فأجبته فى خضوع « إذا كان هذا هو النصرانية ، فانه يستحيل على أن أقبلها . إننى لا أبحث عن الخلاص والفداء عن كل ما يترتب على خطاياى ، انى أبحث كيف أتخلص من الخطيئة ذاتهـا ، بل من مجرد التفكير فى أن أخطىء . وحتى أبلغ هذا الغرض ، سأظل مغتبطا بأن أكون حائراً قلقا » . فرد على محدثى قائلا « إنى أؤكد لك أن محاولتك بائرة . وأرجو أن تعاود التفكير فيما قلت لك » . ولقد برهن محدثى على أنه يعنى مايقول ، فانه كان يرتـكب الخطايا عمداً وباختياره ، وقال لى مرة ان ارتكابه هذه الخطايا لا يهمه ولا يحزنه ولا يقلق باله .

ولـكنى كنت علمت قبل أن تكون لى أية علاقة بهؤلاء الصحاب ، ان ليس النصارى جميعاً من المؤمنين بهذه النظرية فى الخلاص الأخروى . فان مستر كوتس كان يخاف الله ويخشاه . وكان صـافى القلب ، يعتقد

بحرارة فى احتمال أن يصل الانسان الى براءة النفس . أما الآنستان فكانتا من مذهبه · ولقد زاد اقتناعى بهذا مذ وجدت أن بعض الكتب التى أهداها الى كانت تفيض اخلاصاً وتعبداً . فكنت تجد أن مستر كوتس قد اضطرب وقلق من جراء ما حدث معى ، غير أنى استطعت أن أحقق لديه أن معتقداً فاثلا يستقر فى نفس أحد « اخوان بليموث » لن يغير من رأيى فى حقيقة النصرانية ، وأن الصعاب التى تواجهنى انما تقع فى نواح أخرى غير هذه · وأبنت له من بعد أن هذه الصعاب تحوم حول الأناجيل والتفاسير المقبولة فيها .

وقبل أن أسوق الكلام فى علاقات أخرى مع النصارى ، يجب على أن أمضى فى سرد تجاريب وقعت لى فى ذلك الحين · فقد كان لتاجر يدعى «شيث طيب حاجى خان محمد» فى«بريتوريا» نفس المركز الذى يشغله « دادا عبد الله » فى ناتال . ولم يكن من المستطاع أن تقوم حركة عامة من غير أن يكون هو المحرك لها . فتعرفت به فى أول أسبوع هبطت فيه بريتوريا وأطلعته على رغبتى فى أن أتعرف الى كل هندى مقيم فيها . وأول خطوة خطوتها أنى دعوت الى اجتماع شهده تجار «الميان» كما شهده قليل من الهندوكيين ، لأن الهندوكيين فى بريتوريا قليلو العدد ·

وألقيت فى هذا الاجتماع خطبة هى أول خطبة عامة ألقيتها فى حياتى ولقد أحطت بالموضوع بعد تحضيره وانحصر كلامى فيه على الحض على

الأمانة فى العمل والتعامل . فقد سمعت من كثير من التجار أن الصدق غير مستطاع فى العمل التجارى . فيقولون ان العمل التجارى أمر دنيوى صرف ، والصدق مبدأ دينى . ومعتقدهم أن العمل شىء والدين شىء آخر . فهاجمت هذا المعتقد فى خطبتى وسفهته ، ودعوت التجار الى ايقاظ روح الواجب فى نفوسهم .

ووجدت عادات الهنود فى جنوبى افريقية بعيدة عن أن تتفق مع القواعد الصحية مقيسة بعادات الانجليز الذين يعايشونهم ، فلفت أنظارهم الى هذا الأمر الهام . ثم أهبت بهم أن يتناسوا الخلافات الدينية والطائفية ، وأبنت لهم عن الضرورة التى تدعو الى ذلك . وفى النهاية اقترحت تأسيس جمعية يمكن أن تتصل بالسلطات الحكومية المختصة للنظر فى المصاعب التى تعترض حياة الجالية الهندية فى جنوبى افريقية ، وتعهدت بأن أبذل فى سبيل هذه الجمعية من الوقت والخدمات كل مستطاع .

ولقد اغتبطت بنتيجة الاجتماع وقر القرار على أن يعقد اجتماع كل أسبوع على ما أذكر . فكانت تعقد الاجتماعات بانتظام حيناً وبغير انتظام حيناً آخر ، فنتناول الرأى ونتناقش . فتعرفت بكل الهنود المقيمين فى بريتوريا ، وأحطت بكل أحوالهم خبراً . ثم حولت نظرى الى القومسير الانجليزى فى بريتوريا مستر « جكوبس ده وت » وحاولت أن أتعرف اليه . وكان هذا الرجل يعطف على الهنود ، ولكنه

كان ضعيف النفوذ . غير أنه على كل حال وعد بأن يساعدنا على قدر ما يستطيع ، ودعانى إلى لقياه كلما أردت أو مست الحاجة الى ذلك .

ثم اتصلت بعد ذلك بادارة سكة الحديد وأخبرت المشرفين عليها أنه حتى لدى الخضوع للوائحها ونظاماتها ، فان الصعاب التى يعانيها الهنود لدى السفر على خطوطها لا يمكن أن يكون لها أى مبرر . فحصلت على رد مفاده أن تذاكر الدرجتين الثانية والثالثة يمكن أن تصرف للهنود الذين يكونون فى هندام لائق . غير أن هذا الرد كان بعيداً عن أن يرضينى لأن الحكم على حسن الهندام أمر متروك لاختيار ناظر المحطة . وكان القومسير البريطانى قد أطلعنى على بعض الأوراق المتعلقة بأحوال الهنود ، كما سلمنى « طيب شيث » أوراقا أخرى تماثلها . فعرفت منها مقدار القسوة التى عومل بها الهنود لدى طردهم من أرض حكومة « الأورانج الحرة » فكان مقامى فى بريتوريا سبباً فى أن أدرس أحوال الهنود المقيمين فى ناتال وفى حكومة الأورانج الحرة ، ولم أكن أتوقع أن دراستى لأحوالهم سوف تكون ذات قيمة لا تقدر فى المستقبل ، لأنى كنت أفكر فى العودة الى وطنى فى نهاية العام ، ان لم يكن قبل ذلك ، اذا انتهت القضية التى دعيت من أجلها . ولكن الله أراد لى غير ما كنت أتوقع .

ولقد كان مقامى فى بريتوريا سنة كاملة أعظم تجربة وقعت لى فى حياتى . فهنالك أتيحت لى الفرص لأعرف شيئاً من سر الأعمال العامة ،

وعرفت إلى أية درجة يمكن أن تنتهى كفايتى فى مزاولتها . وهنالك بدأ الروح الدينى يكون قوة حية تحرك نفسى ومشاعرى ، واستطعت أن أحصل على مرانة كافية فى الاجراءات القضائية،فعرفت كل الأشياء التى يمكن لمحام مبتدىء أن يدرسها فى مكتب محام قديم ، واقتنعت بأنى لن أسقط فى الحيـاة إذا امتنهت المحاماة ، بعـد أن درست سر المهنة وأحطت بالوسائل التى لا مندوحة عنها للنجاح لمحام مثلى .

ولم تـكن قضية دادا عبـد الله من القضايا الصغيرة . فقـد كانت قيمتها تقدر بأربعين ألفا من الجنيهات الانجليزية ، وكان سببها عقوداً تجارية ، فـكثرت شعابها وتعددت نواحيها الفنية والحسابية . كما كان جزء منها يقوم أصلا على وثائق تعهدية ، وجزء على وعد بارسال وثائق أخرى مثلها . وكان وجـه الدفاع الذى يستمسك به خصومه قائمـا على الدعوى بأن هذه الوثائق قد أخذت بطريق الغش والخداع . فأخذت أدرس القضيــة أعمق درس ، وصرفت فيها من العناية جهــد مستطاعى . وكان موكلى رجلا فائق القــدرة ، ووضع فىَّ كل ثقته ، فسهل ذلك على مأموريتى . ولاحظت أن قدرتى على الترجمة قد تضاعفت من اكبابى على ترجمة الرسائل ، وكان أكثرها فى اللغة الـكجراتية .

غير انه على الرغم من اهتمامى بالمسائل الدينية والمسائل العامة معاً ، كنت لا اضحى فى سبيلها الا بجزء من وقتى ، اذ لم تـكن فى ذلك الحين من أوليات المسائل التى اهتم بها. لأن تحضير الدعوى استغرق كل همى. وقد

استغرق الجزء الأعظم من وقتى اكبابى على مراجعة القوانين والاطلاع على القضايا التى تعتبر الأحكام الصادرة فيها ذات مساس بالدعوى . فكانت النتيجة انى ألممت بحقائق القضية الماما أرجح انه لم يفز به طرفا الخصوم ، لأن أوراق كل منهما كانت فى حيازتى وتحت تصرفى .

وهنا تذكرت نصيحة مستر «بنكث» اذ قال لى وأنا فى لندن مرة ان الحقائق يتكون منها ثلاثة ارباع الهيكل الذي تقوم عليه الدعوى . ولقد طبق هذه القاعدة فيما بعد محام شهير من محامى جنوبى افريقية هو المرحوم مستر «ليونارد» . ففى احدى القضايا التى كانت تحت اشرافى ، رأيت ان الحق وان كان فى جانب موكلى ، فان القانون حسب ظاهره كان ضده . فلما يئست من الدعوى ذهبت الى مستر «ليونارد» لاستشيره . فوافق على أن حقائق الدعوى قوية ، ولكنه قال لى: «مستر غاندى . لقد تعلمت شيئاً واحدا وهو اننا اذا عنينا بالحقائق فان القانون يعنى بنفسه . فالواجب اذن ان نتعمق فى درس حقائق هذه الدعوى الى غور اعمق» — وأوصانى بأن اكب على درس الدعوى درساً أوفى ، ثم أعود اليه مرة أخرى . فلما مضيت فى درس حقائق الدعوى تبينت فيها نواحى كانت غامضة ، وعثرت على دعوى مشابهة لها كانت موضوع مناقشة فى محاكم جنوبى افريقية . فسررت بهذه النتيجة وذهبت الى مستر «ليونارد» وأطلعته على كل شىء . فقال «حسناً سنربح الدعوى . ولكن يجب ان نجعل للقاضى الذى سوف يدرسها ، تقديرا فى أذهاننا » .

لما كنت احضر قضية « دادا عبد الله » لم اكن قد ادركت بعد ما للحقائق من قيمة وأثر فى الدعاوى القضائية. فالحقائق معناها «الحق» واذا لجأنا إلى الحق فان القانون يكون فى عوننا بطبيعة الحال، ومن غير احتياج الى جهد. وقد رأيت أن الحقائق فى قضية « دادا عبد الله »قوية كل القوة فأكسبت الدعوى مركزاً ممتازاً ، وان القانون لابد من أن يؤيده ويكون فى جانبه . ولكنى رأيت بجانب هذا ان الخصومة اذا اصر عليها الطرفان سوف تحطم المدعي والمدعى عليه معاً ، فوق انهما كانا من ذوى القربى ومن قطان مدينة واحدة . ولم يكن يعرف أحد الى أى زمن سوف تستمر الخصومة ـ فاذا تركت للمحاكم فربما استمرت الى غير نهاية،وبغير أن يكون منها أية فائدة لأحدهما،ولذا رغب كلاهما فى فض النزاع وشطب الدعوى اذا كان ذلك مستطاعا .

فقابلت « طيب شيث » ونصحته بأن يخضع للتحكيم . ورغبت اليه فى أن يقابل مستشاريه وخلصاءه وأشرت اليه بأنه اذا كان من المستطاع تعيين حكم يحوز ثقة الطرفين ، فان الخصومة تنتهى فى أقرب وقت . وكانت أتعاب المحامين آخذة فى الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى وصلت حداً كادت تستغرق فيه كل مالديهما من الموارد ، على الرغم من أنهما كانا من كبار التجار كما قلت من قبل . كما أن الدعوى استفرغت كل جهدهما واستحوذت على نشاطهما حتى كان يتعذر على أحدهما أن يجد وقتا يصرفه فى أى عمل آخر . وكنت ألاحظ أن سوء النية أخذ

يستفحل بينهما . وكان كلاهما يبذل أقصى جهده ليصل الى النتيجة التى يرغب فيهـا . وأخيراً وافق « طيب شيث » على اقتراحى ، وعين الحكم وعرضت عليه الدعوى بحذافيرها وربحها عبد الله .

غير أن هذا لم يرضنى ، فان موكلى اذا أراد أن ينفذ الحكم توا، فان « طيب شيث » سوف يعجز عن القيام بأداء ما يطلب «دادا عبدالله» . وهنالك عادة اكتسبت قوة الشريعة وان كانت غير مكتوبة ، يفضل معها رجال « الميمان » من أهـل « پوربانذر » الموت على الافلاس . وكان يتعذر على « طيب شيث » أن يدفع مبلغاً يوازى سبعة وثلاثين ألفا من الجنيهات ونفقات الدعوى . وكان مصمما على أن يدفع المبلغ كله غير منقوص درهماً واحداً ، كما كان يفزع من اعلان افلاسه . فلم يكن لدينا الا طريق واحد ، هو أن يقبل دادا عبـد الله أن يحصل على المبلغ أقساطا ممتدلة . وكان عبد الله رجلا كريم الأخلاق واسع الثروة، فقبل أن يحصل على حقه دفعاموزعة على عدد طويل من السنين. ولم تكن مهمتى فى تسوية الدفع على أقساط بأقل مشقة من سعيى فى سبيل التحكيم . غير أنهما اغتبطا بالنتيجة، كما رفع تسامحهما من مقامهما فى أعين الناس. أما فرحى فـكان عظيما ، فقد فقهت مسائل القانون العملية ، وأعنى بها أن أستحوذ على الناحيــة الشريفة من الطبيعة الانسانية ، وأن أفتح قلوب الناس للخير . وعرفت أن مهنة المحامى الحقيقية تنحصر فى التقريب بين الأطراف التى فصلتها المصالح والمطامع . ولقـد كان لهذا

الدرس العملى أثر فى نفسى حتى انى فى خلال العشرين عاماً التى قضيتها محامياً ، عملت على اتمام الصلح بين المتخاصمين فى مئات من القضايا التى عرضت على لأباشرها . ولم أخسر شيئاً من جراء مبدئى هذا . لم أفقد شيئاً من المال ؛ بله نفسى وروحى .

...

فى ذلك الوقت الذى قضيته فى « بريتوريا » كنت غالبا ما أرافق مستر كوتس فى نزهات ليلية ، وكنا قلما نرجع الى المنزل قبل الساعة العاشرة . ولكن كان هنالك قانون تتناول أحكامه « ذوى الألوان » القيمين فى الترنسفال، وكان يحظر على الهنود المشى على الأرصفة أو البقاء خارج المنازل إلى ما بعد الساعة التاسعة مساء من غير اجازة خاصة . فماذا سوف يحدث لو أن البوليس اعتقلنى ؟ وكان اهتمام مستر كوتس بالأمر أكثر من اهتمامى به . وكان من عادته أن يحصل على اجازات لخدمه السود . ولكن كيف يستطيع أن يعطينى احدى هذه الاجازات ؟ وللسيد وحده حق الحصول على اجازة لخادمه . فاذا طلب اجازة ، أو فرض وكان مستر كوتس مستعداً لأن يزودنى بواحدة منها ، فانه يكون فى خطر من أن يستكشف الأمر ويتهم بالغش والخداع .

لهذا صحبنى مستر كوتس أو أحد أصدقائه ، ولست أذكر من صحبنى منهما بالضبط ، الى أفوكاتو الحكومة دكتور « كروز » وظهر أننا من خريجى مدرسة واحدة . فلما علم بأنى أريد الحصول على اجازة تبيح لى

البقاء خارج المنزل الى ما بعد الساعة التاسعة ، أبدى أسفه وتأثر كل التأثر ، وعطف على كل العطف . ولم يكتف بأن يزودنى بالاجازة ، بل أعطانى خطاباً يبيح لى البقاء خارج المنزل فى أى وقت أشاء من غير أن يتدخل البوليس فى أمرى . ولذا كنت أصحب هذا الخطاب كلما برحت المنزل . أما أنى لم أحتج إلى إبرازه فى حادث من الحوادث ، فكان مجرد مصادفة لم تتكرر مع غيرى .

أما النتائج التى كانت تترتب على نظام المشى على الأرصفة ، فكانت معضلة . فقد تعودت أن أخترق شارع « برزدنت » إلى سهل فسيح يقع لدى نهايته . وكان بيت الرئيس « كروجر » فى ذلك الشارع ، وهو عبارة عن بناء يستوفى كمال الذوق غير ذى اتساع وليس له حديقة، ولا يمكن بحال تمييزه عن بقية المنازل القائمة حفاف الشارع . وكانت منازل بعض الأغنياء فى بريتوريا أكثر فخامة من منزل الرئيس كروجر وكلها محاطة بحدائق غناء . والحقيقة ان ما اتصف به الرئيس كروجر من البساطة كان مضرب الأمثال . ولولا رجل البوليس الواقف أمام الباب، لما استطعت أن تعرف أن المنزل مملوك لأحد كبار موظفى الحكومة . وكنت أمر على الرصيف وأتجاوز الشرطى كل يوم من غير أن يعترضنى أحد أو يقع لى حادث .

وكانت العادة أن يبدل رجل البوليس الواقف لدى الباب من آن لآخر . فحدث مرة أن أحدهم ، ومن غير أن يأمرنى بترك الرصيف (الممشى)

دفعنى بكل قوته وركلنى برجله إلى وسط الشارع . والحق أنى فزعت بها وقبل أن يكون لدى من الوقت ما يسمح لى بأن أسأله عن سبب فعلته ، ناداني مستر كوتس ، وقد اتفق ان كان ماراً بنفس المكان على ظهر جواده قائلا :

« غاندى – لقد رأيت كل شيء . وانى أسر أن أكون شاهدك اذا أردت أن تقاضى هذا الرجل : وانى لحزين لأنك هوجمت بشراسة وقلة أدب » فقلت له

« ليس بك من حاجة لأن تحزن . ماذا يمكن أن يعرف هذا الرجل المسكين فان كل « ذوى الألوان » لديه سواء فى هذه البلاد . والقاعدة التى وضعتها لسلوكى تقضى بأن لا ألجأ الى القضاء اذا نالنى أى أذى يتناول شخصى ، فليس اذن فى نيتى أن أقاضيه » فقال لى

– « انك لجدير بذلك . ولكن فكر فى الأمر مرة أخرى . فان الواجب أن نعطى مثل هذا الشخص درساً ينفعه »

ثم تكلم مع الشرطى وعنفه . ولم أستطع أن أعى ما قالا لأنهما كانا يتكلمان باللغة الدانمركية ، لأن الرجل كان من البوير ، ولكنه اعتذر إلى ، من غير أن تكون بى حاجة الى الاعتذار . لأنى كنت سامحته بالفعل .

غير أنى لم أخترق هذا الشارع مرة أخرى : فقد يتفق أن يأتى غيره ممن هم جاهلون بحادثتى معه ، وقد يعاملوننى بمثل ما عاملنى . ولماذا

أحمل جسمى ركلة ثانية من غير ضرورة ؟ لهذا أخذت طريقاً آخر لنزهتى .

بيد أن هذه الحادثة لم تذهب من غير أن تترك فى نفسى أثرا عميقا جعلنى أرثى لحال الجالية الهندية، فأخذت أناقشهم فى أن نقوم بتجربة ، اذا كان من الضروري أن نلجأ الى ذلك ، بعد أن أقابل القومسير الانجليزى وأكلمه فى أمر هذه الانظمة الجائرة .

فأكببت على درس الحالة السيئة التى وصلت اليها الجالية الهندية ، ولجأت الى التجارب الشخصية ، فضلا عن قراءة كل ما كتب فيها وسماع كل ما يمكن أن يستمع منها . وسرعان ما اتضح لى أن جنوبى افريقية ليست بالمكان الذى يستطيع هندى يحترم نفسه أن يقيم فيه ، وأخذ عقلى يشتغل ليل نهار فى التفكير فيما يمكن أن تكون الطريقة التى يلجأ اليها لمعالجة هذه الحالة وتحسينها

وطفق مستر « باكر » يشفق على مستقبلى فاصطحبنى إلى جمعية تدعى « جمعية ولنجتون » وكان من عادة البروتستانت من النصارى أن يعقدوا مثل هذه الاجتماعات كل عدد من السنين ليزدادوا بالدين نوراً ، وبالايمان صفاء . وقد ندعو عملهم هذا « بالاحياء الدينى » . وكانت جمعية ولنجتون من هذا الطراز ، ويرأسها رجل دينى معروف هو المحترم « اندرو موراى » . وقد تخيل مستر باكر أن عبير السمو الدينى وحماسة أعضاء الجمعية وتفانيهم فى الدين قد يحملنى على أن أعتنق النصرانية .

غير أن ملجأه الأخير كان ينحصر فى الصلاة والأدعية . لأن ثقته بالصلاة كانت لا تنتهى عند حد . بل كان يعتقد أن الله لن يخيب سؤال انسان يصلى اليـه ويدعوه بحرارة الايمـان . وكان يستشهد على ذلك بتصرف رجال من أمثـال جورج موللرفى بريستول ، وكان يتوسل بالصلاة الحارة حتى فى سبيل قضاء مصالحه الدنيوية . فـكنت أستمع الى كلامه فى تأثير الصلوات من غـير كثير انتباه ، وجعلته يعتقد أن ما من شيء يمنعنى عن اعتناق النصرانية اذا أنا استمعت الدعوة إليها . ولم أتردد فى أن أعده بهـذا الوعد لأنى كنت قد وطنت نفسى على أن أستجيب دائما لداعى الصوت الخفى الخارج من أعماق وجدانى . ولذا اغتبطت لأنى ألقيت بنفسى فى حماه . أما أن أعمل على غير ما يدعونى اليه ، فان ذلك يكون من آلم الأشياء إلى نفسى .

وذهبنا إلى مدينة ولنجتون ، ولقد لاقى مستر باكر بعض الصعاب لأنه يصطحب رجلا مثلى من ذوى الألوان . وكان قد قاسى الأمرين مراراً عديدة من قبل بسببي واضطررنا أن نقف السفر يوماً بأكمله ، لأن يوم الأحد أدركنا خلال سفرتنا ، ومن عادة مستر كوتس وصحبه أن لا يكسروا السبت . وبعد أخذ ورد طويلين قبل مدير فندق المحطة أن يقبلنى كنزيل ، ولـكنه لم يسمح لى مطلقا بأن أذهب الى حجرة الطعام . وكان مستر « باكر » ممن لا ينهزمون بسهولة . فاستمسك بالحقوق التى يجب أن يتمتع بها نزلاء الفنادق. ولـكن أدركت الصعوبة

التى تعترضه . وكذلك كان الأمر فى ولنجتون . فانى نزلت حيث نزل مستر با كر . وفضلاعن أنه كان يحاول أن يخفى عنى المتاعب التى سببتها له ، كنت أقف على الكثير منها ، على غير إرادة منه فى أن أعرفها .

وكان مقر هذه الجمعية عبارة عن حجرة يلتئم فيها عدد من غلاة النصارى . فأسرنى ما رأيت فيهم من حرارة الايمان . وقابلت هنالك مستر «اندرو موراى» وأدركت أن كثيراً منهم كانوا يصلون من أجلى ، وأحببت الاستماع إلى بعض تراتيلهم ، فقد كان فيها حلاوة ورنة جميلة .

واستمر الاجتماع ثلاثة أيام . واطلعت على مقدار ما بلغ الايمان بأفراد الجمهرة ، ولكنى لم أر سبباً يحملنى على أن أتبدل بمعتقدى معتقداً آخر . وتعذر على أن أعتقد أن من الممكن أن أصعد إلى السماء أو أن أمنح الخلاص بمجرد أن أصبح نصرانياً . ولما أطلعت بعض أصدقائى من الأعضاء على فكرى ، أسفوا وكأنهم صدموا وصدوا دون البلوغ الى أمنية عزيزة لديهم . ولكن لم يكن فى مستطاعى أن أفعل غير هذا ، فان المشكلات التى اعترضتنى كانت قد حلت فى مكان من نفسى أبعد من هذا غوراً . رأيت بعيداً على عقلى أن يعتقد أن عيسى وحده دون غيره كان ابن الله المتجسد ، وأنه لا خلود الا لمن يعتقد فى صحة رسالته واذا كان من الممكن أن يكون لله أولاد ، فكلنا أولاده . واذا كان عيسى مثل الله أو أنه الله بنفسه ، اذن فكل الناس يكونون كمثل الله أو يكونون الله بنفسه . ولم يتسع عقلي لاعتقاد أن عيسى بميتته وبدمه

قد فدى الانسانية وطهرها من خطاياها . على أنه قد يكون فى ذلك شئ من الحق ، ولكن مجازاً . ثم لم يغب عنى أنه على المعتقد النصرانى ، ليس من شئ فى الدنيا له روح إلا الانسان ، وليس كذلك بقية المخلوقات، التى يعتبر موتها فناء تاماً. وكنت أعتقد ما يخالف ذلك. ويمكننى أن أعتبر عيسى شهيداً، وأنه رمز التضحية المجسم ومعلم روحانى إلهى . ولكنه ليس أكمل انسان أخرجته البطون الى ظاهر الأرض. أما موته فوق الصليب فأروع مثال يمكن أن يقدم للانسانية . ولكن القول بأن صلبه قد تضمن أسراراً ومعجزات، فذلك مالم يكن فى مستطاعى الايمان به أو تصديقه . وكذلك لم تزودنى حياة المؤمنين من النصارى بما لم تزودنى به حياة غيرهم من المؤمنين بأديان أخرى . ورأيت فى حياة غير النصارى من صالح العمل والتفانى فى الاصلاح ، مثل ما رأيت فى النصارى تماماً . أما من الناحية الفلسفية فلم أدرك شيئاً خارقا للعادة فى المبادىء النصرانية ، فمن ناحية التضحية أرى أن الهنود يفوقون النصارى بمراحل واسعة . ولهذا تعذر على أن أعترف بأن النصرانية دين كامل ، أو أنها أكمل الأديان .

ولقد أفضيت بفكرتى هذه لكثير من أصدقائى النصارى ، ولكن أجوبتهم لم تكف لاقناعى ، وبقيت كما أنا . فلم أستطع أن أقبل مبدأ أن النصرانية كاملة ، ولا أنها أعظم الأديان . وكذلك كان معتقدى فى الدين الهندوكى حينذاك . فان النقائص التى تعتور الدين الهندوكى

كانت مكشوفة لى . وأخص ما كان يعتور ذهنى فى ذلك الوقت مبدأ معاملة « الأنجاس » . أما اعتبار هذا المبدأ جزءاً مكونا فى الدين الهندوكى ، فاعتقدت دائما أنه بدعة دخلت على الدين ، لا مبدأ أصيلا فيه . ولم أستطع أن أفقه معنى لتعدد الطوائف والمذاهب أو ما المعنى فى قول الذين يقولون بأن أسفار « الفيدا » هى كلمات الله المنزلة. فاذا كانت هذه الأسفار منزلة ، فلماذا لا تكون الأناجيل ، ولماذا لا يكون القرآن ؟

وبقدر ما رغب أصدقائى من النصارى فى أن أعتنق النصرانية ، رغب المسلمون فى أن أعتنق الاسلام . ولقد شغلنى « عبد الله شيث » بدرس مبادئ الاسلام ، وكان لديه ما يقول فى وصف جماله والتغنى بمحاسنه .

فكتبت إلى « ريشاند باى » أفضى اليه بمشكلاتى القليلة، كما كتبت إلى غيره من رؤساء الدين ، وتلقيت منهم أجوبة . ولقد غمرنى رد « ريشاند باى » بطمأنينة ، إذ نصحنى بأن أكون صبوراً ، وأن أتعمق فى درس الهندوكية . وانى أذكر جملة مما كتب إذ قال — « اعتقد ، من غير أن يكون اعتقادى هذا متأثراً بميولى النفسية ، ان ديناً آخر غير الهندوكية لا يمكن أن يحوز ما فيها من كمال الوضع أو عمق الفكرة أو سعة النظر فى دقائق النفس أو حب الاحسان » .

واشتريت ترجمة « صال » للقرآن وأخذت فى قراءتها ، كما حصلت على كتب أخرى تتعلق بالاسلام . وفضلا عن هذا اتصلت بكثير من أصدقائى النصارى فى انجلترا . فقدمنى أحدهم إلى « ادورد متلند » فشرعت أكاتبه . فأرسل إلى كتاب « الطريق القويم » وهو كتاب ألفه بالاشتراك مع « أنّا كنجسفورد » كما أرسل الى كتابا آخر هو « التفسير الجديد للاناجيل » فاغتبطت بكليهما ، بعد أن ظهر لى أنهما يؤيدان الهندوكية. أما الكتاب الذى اختلبنى بحق فكتاب تولوستوى « مملكة الله فى نفسك » فان ما خلف هذا الكتاب فى نفسى من الأثر باق لا يزول . وأمام ما فى هذا الكتاب من استقلال الفكر وسمو الآداب والأمانة والصدق ، تضاءلت كل الكتب التى أعطانيها مستر كوتس حتى أنها لم تعد شيئاً مذكوراً .

وجدت نفسى فى ذلك الوقت أكثر اكبابا على خدمة مصالح الجالية الهندية ، وإن ذلك الأمر أخذ يستهوينى شيئاً فشيئاً .

أما الدافع الذى دفعنى على أن أحصر همى فى ذلك فكان سعيى المتواصل فى سبيل أن « أحقق ذاتى » واستقل بها عن كل الأشياء وعن كل الأوهام. واعتقدت أن الدين الحقيقى انما ينحصر فى «العمل»، لأنى شعرت إذ ذاك بأن الله لا يمكن أن يتحقق فى نفسى إلا من طريق العمل . والعمل عندى قد انحصر فى خدمة « الهند » لأن الهند كانت الهدف الذى استهوانى بالفطرة، ومن غير أن أحاول أن أخلق فى نفسى

ميلا إليه يدفعنى إلى خدمة مصالحه . ولكنى لم أهبط جنوبى افريقية إلا هرباً من دسائس « كاثياوار » وفراراً من مكايدها ، وسعياً فى سبيل الحصول على رزقى وقوتى . غير أنى ، كما قلت من قبل ، وجدت نفسى مغموراً فى سبيل العثور على الله والعمل على « تحقيق ذاتى » والاستقلال بها عن كل ما يحيط بى فى الوجود من أشياء .

ولقد عرف فىّ أصدقائى من النصارى تعطشى إلى المعرفة ، حتى لقد بلغ بى التعطش إليها حد الرغبة الملحة . ولكنهم كانوا لا يتركوننى فى سلام ، ولو أظهرت لهم عدم اكترائى واستهتاري . فلما كنت فى « دوربان » استكشفنى مستر « والتون » رئيس بعثة المبشرين فى جنوبى افريقية ، وربطت بيننا أواصر الصداقة حتى أصبحت كأنى أحد أفراد أسرته . وكان السبب فى هذه الصداقة علاقتى بعدد من النصارى فى بريتوريا. وكان لمستر والتون نزعة خصيصة به، فانى لم أتذكر أبداً أنه دعانى إلى اعتناق النصرانية . بل اكتفى بأن يشرح لى حياته ويعرضها أمامى ككتاب مفتوح لأستخلص منها ما أريد ولأكون على علم بتفاصيلها . أما مسز والتون فكانت سيدة ذات آداب ، سامية المدارك ، واسعة العقل. ولقد اختلبنى ما فى حياة هذين الزوجين من نظام واتساق . وكان كل منا يعرف تماماً مايختلف فيه عن الآخر من وجهات النظر -وقدعجزت المناقشات الطويلة عن أن تقرب من نواحى الاختلاف، ولكن ظهر لى أن اختلاف وجهات النظر ومناقضة الآراء يصبح ذا

قيمة كبيرة من حيث الوقوف على الحقائق ، على شرط أن يعاون الاختلاف روح التسامح والاحسان وحب الحقيقة . ولقد تملكنى الاعجاب بما رأيت فى مستر ومسز والتون من التواضع والصبر والاحتمال والاكباب على العمل ، فكنت آنس بصحبتهما وأسعى لأن أصرف معهما من الوقت ما أقتصد من أعمالى الأخرى .

وكان لصداقتهما أثر كبير فى أن أحتفظ بالاهتمام بالدين والروح الدينية حيةً فى قرارة نفسى . ولكن لم أجد فى نفسى من حب الاكباب على البحث الدينى فى ذلك الوقت ما كنت أجد من قبل فى بريتوريا ، غير أن ما كنت أنفق من وقت فى الدرس الدينى ، وان كان ضئيلا ، لم يكن يخلو من فائدة وربح: بيد أنى لم أقطع مراسلاتى فى الابحاث الدينية، فقد استمر « ريشاند باي » يهدينى ويزودنى بالحقائق . وأرسل لى صديق كتاب « نارمادا شنكر » المسمى « ذر مافيشان » فانتفعت بمقدمته . وكنت قد سمعت بالحياة البوهيمية التى قضاها ذلك الشاعر ، ولكن مقدمة الكتاب أوقفتنى على التطور الانقلابى العظيم الذى طرأ على حياته من درس المبادىء الدينية ، فكان لذلك أثر فى نفسى اختلبنى اختلاباً .

وأخذت أحب الكتاب . فقرأته من ألفه الى يائه بكل عناية وانتباه ، وقرأت باهتمام كتاب العلامة « مكس موللر » وعنوانه « الهند ـ وما نتعلم منها » ، كما قرأت ترجمة « أسفار اليوبانشاد » التى

نشرتها الجمعية الثيوصوفية ، وكان هذا سبباً فى أن أوجه عنايتى إلى الهندوكية ، وأخذ ما فيها من جمال وجلال يظهر لى جلياً واضحاً . غير أن هذه النزعة لم تولد فى نفسى أثراً من التحامل على الأديان الأخرى . ثم قرأت كتاب « حياة محمد وخلفائه » تأليف« واشنجطون ارفنج » والفصل الذى كتبه كارليل فى البطل فى صورة نبي ، وكان هذا سبباً فى أن تسمو منزلة محمد فى نفسى إلى حد الاجلال العظيم والتقدير السامى . وقرأت أيضاً كتاباً عنوانه « كلمات زرادشت »

ومن هذه السبيل استطعت أن اوسع معلوماتى عن الديانات المختلفة . وقوّى فى هـذا الدرس نزعة النظر الذاتى والعمل على أن أضع موضع التنفيذ ما يستهوينى من المبادىء التى أدرسها خلال مطالعاتى. فجعلت ازاول بعض التجاريب « اليوجيـة » كما استطعت أن أدرك هذا المذهب فى الكتب الهندية التى وقعت لى . ولكن لم استطع أن أتقدم فيها ، وصممت على أن أعاود مزاولتها بارشاد ممرن خبير عنـد ما أعود الى الهند . ولكن لم أشبع فى نفسى هذه الرغبة حتى الآن .

وأخذت ادرس تولستوى درساً عميقاً واسعاً حتى استوعبته . فكان لكثير من كتبه آثار فى نفسى لن تزول . ومن هـذه الآثار اعتقاد ان الحب المتبادل بـين شعوب العالم ممكن التحقيق، وان لتحقيقه ممكنات كثيرة يمكن اللجوء اليها فى سبيل جعله عاماً بين الناس أجمعين .

فى ذلك الوقت بدأت علاقتى باسرة نصرانية اخرى . وتحت تأثير

هذه العلاقة أخذت اشهد اجتماعات « كنيسة ويزلى » كل أحد، وكنا ننصرف من الكنيسة الى الغداء فى بيتهم . غير ان الكنيسة لم تترك فى نفسى أى أثر . ولم أكن أرى فى الاجتماع من الروح الدينية شيئا . فانى لم أشهد فى المجتمعين روح التوجه الدينى والغمرة القدسية التى تشمل النفوس المتجهة الى الله . وكنت أرى فى المصلين جمعاً من الناس بهظتهم المطامع الدنيوية ، وانهم لا يذهبون الى الكنيسة الا للتسلية أو بحكم العادة . فكنت اغفى فى بعض الاحيان ويهوم برأسى النعاس ، فانتبه خجلا ، ولكن كثيرا ما كنت أرى غيرى من النصارى قد اخذتهم الغفوة . فلم استطع الاستمرار طويلا على هذه الحال ، فامتنعت عن الذهاب الى الكنيسة .

غير ان امتناعى عن الذهاب الى الكنيسة كان سببا فى أن تنقطع علاقتى تواً بالاسرة التى كنت ازورها كل أحد .واستطيع أن اقول بأنى حذرت من أن أزورها . وإليك ماوقع . فان مضيفتى كانت سيدة طيبة السريرة صافية النفس ، ولكنها كانت ضيقة العقل ، وكنا كثيرا مانتناول بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكنت فى ذلك الوقت اعيد قراءة كتاب «ارنولد» نور آسيا . فاخذنا مرة نقارن بين حياة عيسى وحياة بوذا ، فقلت لها مرة انظرى الى رحمة «غوتاما». انها لم تقتصر على النوع البشرى وحده ، بل تناولت كل الاحياء . ألا ترين ان الانسان يفيض قلبه بالحب اذ يفكر فى حمل وديع مسكين يحمله فوق كتفيه ؟

وان الانسان ليعجز عن أن يجد مثل هذا الحب الشامل لكل الاحياء فى حيـاة عيسى » ـ غير أن هذه المقارنة آلمت السيدة الطيبة القلب كل ألم . واستطعت ان أدرك شـيئا من مشاعرها . فكففت عن الكلام وذهبت الى قاعة الطعام وكان لها ابن لم يتجاوز الخامسة حضر مناقشتنا . ومن طبعى ان أسر بعشرة الأطفال ، وكنت وهذا الطفل صديقين حميمين ـ فأخذت أذم قطعة اللحم التى كانت فى صحنه وأمدح التفاحة التى كانت أمامى ـ فتأثر الطفل وأخـذ يمدح الفواكه ويذم اللحوم .

ولكن الأم استنكرت هذا . فحذرتنى أن أعود اليـه . فغيرت موضوع الكلام مستقوياً على نفسى . وفى الأسبوع التالى ذهبت لزيارة الأسرة ولكن لحظت شيئاً جديداً من الامتعاض . غير أنى لم أفكر فى الانقطاع عن الزيارة . غير أن السيدة سهلت لى الطريق فقالت لى ـ « يامستر غاندى . أرجو أن لا تمتعض إذا أنا صارحتك بأن طفلى لاينتفع بصداقتك . لقد أخذ يتوانى فى أكل اللحوم ويطلب الفواكه وذلك يذكرنى دائما بمناقشاتك . وهذا كثير احتماله . فانه إذا امتنع عن أكل اللحوم يضعف ، وربما يمرض . فكيف أحتمل هذا . فأرجو أن تحصر مناقشاتك معنا نحن الكبار . لأنى متأكدة أن مناقشاتك هذه لها أثر سيىء على الأطفال » . فأجبتها ـ « انى آسف . فانى أقدر شعورك كوالدة ، لأنى أيضاً لى أطفال . ومن الممكن أن تقف هذه الحال

عند حد ، ويجب إذن أن أمتنع عن هذه الزيارات ، دون أن يكون لذلك أى تأثير على صداقتنا » . فشكرتنى بسرور ظاهر .

وعلى الرغم من أنى اقتحمت طريقاً لم يرده لى أصدقائى النصارى ، فانى أشعر بأنى مدين لهم بما غرسوا فىّ من نزعة البحث الدينى . وسأذكر على الدوام علاقتى بهم مغتبطا مسروراً . غير أن الأيام كانت تخبأ لى من أمثال هذه العلاقات النفسية المقدسة ، كنوزاً أكبر مما زودتنى به فى ذلك الحين .



الفصل الثامن

عنف الغوغاء فى دوربان

فى منتصف سنة ١٨٩٦ عدت الى الهند . ولما كان الحصول على بواخر من الناتال تقصد رأساً الى كالكوتا ايسر من الحصول على بواخر تقصد الى بومباى ، سافرت على باخرة تقصد الثغر الأول . ذلك لأن الاجراء المتعاقدين كانوا يبحرون الى جنوبى افريقية أما من كالكوتا أو من مدراس . وبينما كنت اقطع الطريق بين كالكوتا وبومباى ، تخلفت عن القطار فقضيت يوماً فى « الله آباد » وهنالك بدأت مهمتى فى شرح الحالة فى جنوبى افريقية . فزرت مستر تشسنى _ Chesniy _ محرر جريدة البيونير « Pioneer » أى « الرائد » . فكلمنى بأدب وعرفنى بصراحة أن ميوله تتجه الى العطف على المستعمرين . ولكنه على الرغم من هذا وعدنى بأن يقرأ أى شىء أكتبه ويشير إليه فى جريدته . وبهذا اكتفيت .

وفى أثناء اقامتى فى الهند كتبت رسالة شرحت فيها حالة الهنود فى جنوبى افريقية . فأشارت اليها كل الجرائد على وجه التقريب وطبعت مرتين . ووزع منها خمسة آلاف نسخة فى كثير من أنحاء الهند

وفى أثناء هـذه الزيارة أتيح لى أن أرى زعماء الهند ، وهيئت لى الفرص العديدة التى ألقيت فيهـا خطابات عامة فى بومبـاى وپونا ومدراس . وليس من قصدى أن أشرح هذه الأشياء باطناب ولـكن حسبى أن أذكر أنه بينما كنت فى اجتماع عام فى كالـكوتا،وصلنى تلغراف من ناتال يسألنى فيه مرسلوه أن أعود إلى الناتال تواً ، فقصر هذا الحادث أمد زيارتى للهند . لأنى أدركت من هذا التلغراف أنه لابد أن تـكون قد قامت حركة معادية للهنود ، فتركت عملى الذى بدأته فى كالـكوتا غير كامل وذهبت إلى بومباى ، وركبت أول باخرة ومعى أسرتى .وكان بيت « دادا عبد الله » قداشترى الباخرة « كورلاند »ـ Gourland ـ وبذلك أضاف هذا البيت الى أعماله التجارية مخاطرة جـديدة ، بأن يكون له فوق البحار باخرة تمخرها بين « پوربندار » وناتال . وتبعت هذه الباخرة باخرةأخرى تدعى«نادرى»ـ Naderi ـ مملوكة لشركة بواخر خليج العجم ميممة شطر الناتال . فـكان ركاب الباخرتين يناهزون الثمانمائة مسافر .

وكانت الدعوة التى نشرتها فى الهند قد نالت من الاهتمام قدراً جعل الجرائد الهندية تهتم بهـا وتفسح لها من أعمدتها وجعل روتر يرسل اشارات برقية عنها إلى انجلترا . وهذا لم أعرفه إلا عندما وصلت الناتال . وكان وكيل روتر فى انجلترا قد أرسل برقيات إلى جنوبى افريقية لخص فيها خطاباتى فى الهند تلخيصاً مبالغا فيه . ولم يكن هذا الأمر جديداً

فى الهند كانت محوطة بروح الاحتياط حذر المبالغة والتفريط . ولما كنت أعرف بالتجربة أن شرح حادثة لشخص غريب عنها قد يحدث فيه من الأثر أكثر مما نقصد أن ننقل إلى ذهنه منها ، عملت جهدى فى أن أصف الموقف فى جنوبى افريقية لاخوانى الهنود بروح أكثر هوادة مما تجيز الحقائق الواقعة . ولكن قليلا من الأوروبيين كانوا يقرءون ما أكتب فى ناتال ، والذين كانوا يهتمون بها أقل من الذين يقرءونها . ولا شك فى أن الحالة كانت تختلف اختلافا ظاهراً بين هذا وبين الأثر الذى أحدثته خطاباتى وكتاباتى فى الهند . فان آلافا من الأوروبيين قرأوا برقيات روتر التى لخص فيها أقوالى . وتجد من جهة أخري أن موضوعاً له من التقدير والاهمية أن تتناقله البرقيات ، تصيبه لأول وهلة حمى الاهتمام به لاكثر مما يستحق . وظن الاوروبيون فى ناتال أن عملى فى الهند له من الاهمية ما قدروه له فى أنفسهم ، وان من المحتمل أن يلغى نظام الحصول على أجراء بالتعاقد معهم على العمل ، فيتأثر بالخسارة مئات من المزارعين الاوروبيين من جراء ذلك . وفضلا عن هذا فانهم شعروا بأن أهل الهند أصبحوا ينظرون اليهم بمنظار أسود .

وبينما كان الاوروبيون فى ناتال على ما وصفت من اضطراب العقل ، وصلتهم أخبار عودتى إلى ناتال على ظهر الباخرة « كورلاند » ومعى ثلاثمائة أو أربعمائة مسافر من الهنود ، وان الباخرة « نادرى » كانت على وشك الوصول فى الوقت ذاته وعليها عدد لا يقل عن هذا ، فألهبتهم

هذه الأخبار وزادتهم هياجاً ، وانفجرت براكين الشعور إلى أقصى حدودها . وعقد أوربيو ناتال اجتماعات كبيرة ، حضرها فى الغالب أكثر شخصياتهم ظهوراً ومنزلة . وكان المسافرون الهنود على وجه عام ، وأنا على وجه خاص ، موضع نقد مرير ، حتى لقد صور وصول الباخرتين كورلاند وناديرى إلى الناتال بمثابة « غزوة » هندية لتلك البلاد . وقال خطباؤهم انى أنا الذى أحضرت هؤلاء الثمانمائة من المسافرين إلى الناتال ، وان هذه هى الخطوة الاولى فى سبيل خطة مرسومة محصلها أنى أرمى إلى اغراق الناتال بسيل عرم من مهاجرى الهنود الاحرار. وترتب على هذا أن يصدر المجتمعون قرارات يقضون فيها بأن لا يسمح للمسافرين ، وأنا أولهم ، بأن ينزلوا إلى الناتال ، وأنه فى حالة ما اذا عجزت الحكومة عن أن تمنع المسافرين عن النزول ، فان اللجنة التى كونت من الأوربيين يكون لها الحق فى أن تنصح لأعضائها بأن يخرقوا القوانين ويمنعوا المسافرين عن هبوط أرض ناتال بالقوة . ووصلت الباخرتان إلى ناتال فى نفس اليوم الذى صدرت فيه هذه القرارات .

كان أول ماظهر الطاعون الدملى فى الهند سنة ١٨٩٦ . فأخذ الأوربيون هذه الحقيقة ذريعة يتذرعون بها ليمنعونى عن الهبوط الى بر الناتال.ولقد ووجهت الحكومة بكثير من الصعاب القانونية . ذلك لأن قانون تحديد الهجرة لم يكن قد عمل به بعد . فى حين ان ميول الحكام

كانت كلها مع لجنة الأوربيين : يدلك على هذا ان مستر « اسكومب »
Mr Escombe ــ وهو عضو ظاهر من أعضاء الحكومة قد اخذ بضلع
كبير فى الاجتماعات التى عقدتها هذه اللجنة . وهنالك قاعدة مقررة معترف
بها فى كل الثغور بأنه فى حالة حدوث اصابة بمرض معد بين ركاب
باخرة ، أو اذا كانت الباخرة آتية من ثغر موبوء ، فرض عليها أن
تبقى تحت الحجر الصحى عدداً من الأيام . على أن هذا الحظر لا يمكن
أن يفرض إلا على أساس صحى فقط ، وعلى مقتضى أوامر يصدرها
الضابط الصحى فى الثغر . غير أن حكومة ناتال أساءت استعمال
سلطتها بأن فرضت هذا الحظر لأسباب سياسية . فعلى الرغم من انه
لم تحصل إصابة بمرض معد ، حجر على الباخرتين صحياً ، وظلتا تحت
هذا الحجر مدة أطول مما يلزم إذ بقيتا على هذه الحال ثلاثة وعشرين
يوماً . وفى أثناء هذه المدة كانت لجنة الأوروبين لاتنى نشطة عاملة .
حتى لقد نال الشركاء « دادا عبد الله » أصحاب الباخرة « كورلاند »
ووكلاء شركة بواخر خليج العجم التى كانت تملك الباخرة « نادىرى » ،
كثير من عنتهم وغطرستهم . ولقد استعملت مع أصحاب الباخرتين كل
المرغبات لكى يقتنعوا بأن تعود الباخرتان بمن عليهما من المسافرين من
حيث أتيتا ، ثم هددوا بالمقاطعة والعطل عن العمل إذا هم لم يصدعوا بما
طلب اليهم أو رفضوا ماعرض عليهم . ولكن الشركاء «دادا عبدالله»
كانوا على جانب عظيم من الشجاعة . حتى لقد أجابوا بأنهم لا يبالون

إذا نزل بهم الخراب وحل بهم الدمار ، وانهم سوف يخوضون غمار المعركة حتى نهايتها المرة ، ولكنهم لا يقبلون أن يجبروا على ارتكاب جريمة شنعاء بأن تعود الباخرة بمن عليها من المسافرين الأبرياء فى حالة لا معين لهم فيها . ولقد أظهروا بموقفهم هذا أن الوطنية لا تنقصهم . ولا أنسى أن أذكر أن محامى هذه المؤسسة وهو المستر « لوتون » كان رجلا شجاعاً مقداماً .

وشاء الحظ أن يصل الى افريقية فى ذلك الوقت هندى ذو مكانة هو السير « منشو هلال هيرالال نازار » وابن عم المرحوم « نانابهاى هاريداس » القاضى المعروف . ولم يكن لى به من صلة ، كما أنى لم أكن أعرف أنه ذاهب إلى جنوبى افريقية . ولا حاجة بى لأن أذكر أنه لم يكن لى من يد فى احضار المسافرين الذين غصت بهم الباخرتان كورلاند ونادرى . فالكثيرون منهم كانوا من سكان جنوبى افريقية الأقدمين . كما كان الكثيرون منهم ذاهبين رأساً إلى الترنسفال . ولقد أرسلت مذكرات تهديدية أرسلتها لجنة الأوروبيين إلى هؤلاء أيضاً ، فقرأها عليهم قباطنة الباخرتين . وجاء فى هذه المذكرات صراحة أن الاوروبيين الذين يقطنون ناتال كانوا فى هياج خطير وحالة خلقية مريعة ، فاذا حاول المسافرون الهنود على الرغم من هذا التحذير أن ينزلوا إلى البر ، فان رجال اللجنة الاوروبية سيكونون على المرفأ مستعدين لأن يلقوا كل من تمس قدماه منهم أرض ناتال إلى البحر .

فترجمت هذه المذكرة للمسافرين على ظهر الباخرة كورلاند . وترجمها لركاب الباخرة نادرى رجل هنـدى يعرف اللغة الانجليزية . وكانت النتيجة أن رفض ركاب الباخرتين العودة ، وأضـافوا إلى ذلك أن الـكثيرين منهم كانوا ذاهبين إلى الترنسفال ، وأن بعضهم من قطان ناتال المقيمين بها ، وأن لـكل منهم الحق المطلق فى أن ينزل إلى البر ، ولذا فانهم على الرغم من تهديدات لجنة الأوروبين، قد صمموا على النزول إلى البر ليعرفوا إن كان لهم الحق فى ذلك،أم أنهم حرموا قانوناً هذه الحقوق.

ولقد بلغت حكومة ناتال آخر حـدود الصبر على مثـل هذه الحال الشاذة . فالى أى حـد يمكن أن تسمح باستمرار مثل هذا الحظر غير القانونى ؟ كان قد مضى ثلاثة وعشرون يوماً ، من غير أن يلين الشركاء « دادا عبد الله » ومن غير أن ينكص المسافرون أو تهزم شجاعتهم . ورفع الحجر الصحى بعد ثلاثة وعشرين يوماً وسمح للباخرتين أن تقلعا إلى المرفأ . وكان مستر « اسكومب » قد استطاع فى هذه الأثنـاء أن يهدئ شيئاً من ثائرة أعضاء اللجنة الأوروبية . فقال فى احـدى الاجتماعات ــ « ان الأوروبيين فى دوربان قد أظهروا من الاتحـاد والشجاعة ما هو جدير بالثناء . لقـد فعلتم أقصى ما فى مستطاعكم ، وساعدتـكم الحـكومة ، فحجر على الهنود ثلاثاً وعشرين يوماً ، استطعتم فى أثنائها أن تعبروا عن شعوركم وعواطفـكم وتظهروا رأيـكم العام .

ولا شك فى أن هذا سيكون له أثره فى حكومة الامبراطورية ، كما أنه جعل الطريق الذى سوف تسير فيه حكومة الناتال سهلا معبداً . فاذا منعتم بعد ذلك هنديا واحدا عن النزول إلى البر ، أضررتم بمصالح الحكومة ووضعتم الحكومة فى موضع عسير ، وأوقفتموها فى أحرج موقف . وحتى بهذا سوف لا يمكنكم أن تمنعوا هندياً واحداً من النزول إلى ناتال . فليس المسافرون جميعاً ممن يحق لنا أن نغضب عليهم أو ننتقم منهم . وبينهم نساء وأطفال . ولما سافروا من بومباى لم يكن لديهم من علم بحقيقة شعوركم . فنصيحتى الخالصة لكم أن تتفرقوا وأن لا تعيقوا هؤلاء الناس عن مغادرة الباخرتين . وانى أؤكد لكم أن حكومة ناتال سوف تنال من المجلس التشريعى القوة الكافية التى تستطيع بها أن تقيد الهجرة إلى هذه البلاد » وليس هـذا غير تلخيص لما قال مستر « اسكومب » . ولقد امتعض سامعوه ، ولكنه كان ذا نفوذ واسع على الأوروبيين فى ناتال ، فتفرقوا احتراماً لنصحه ودخلت الباخرتان الى الميناء وألقتا مراسيهما على المرفأ .

وصلتنى رقعة من المستر اسكومب ينصح لى فيها بأن لا أغادر الباخرة مع بقية المسافرين ، وأن أنتظر الى المساء ، حتى يرسل إلى مراقب بوليس الميناء ليذهب معى الى البيت ، وأضاف الى ذلك أن أسرتى حرة فى أن تنزل الى البر فى أى وقت تشاء . ولم يكن هذا بمثابة أمر بمقتضى القانون، بل كان من باب النصيحة للقبطان لكى لايسمح لى

بالنزول من الباخرة، وليعرفني الخطر الذي يعتورني. ولم يكن لدى القبطان من السلطة ما يجعله يمنعني بالقوة من مغادرة السفينة ، ولكني صممت على أن أقبل مقترحاته . فأرسلت أسرتي إلى بيت صديقي القديم وموكلي « پارسي رستومجي » وأخبرتهم بأني سوف ألاقيهم هنالك . ولما نزل المسافرون من الباخرة حضر مستر « لوتون » مستشار دادا عبد الله وصديقي الشخصي لمقابلتي ، وسألني لماذا لم أغادر السفينة ؟ فأخبرته بأمر ما كان من خطاب مستر اسكومب . فقال لي بأنه يمقت فكرة بقائي الى المساء وأن أدخل المدينة دخول لص أو خصيم. وأني اذا لم أكن خائفاً ، أستطيع أن أرافقه فنسير إلى المدينة كما لو لم يكن قد حصل أي شيء . فأجبته بأن الأمر لم يكن عن خوف من ناحيتي بل كان عن مراعاة اللياقة والأدب في أن أرفض أو أقبل مقترح مستر اسكومب . فابتسم مستر لوتون وقال ـ « ماذا فعل لك مستر اسكومب حتى تهتم بمقترحه ؟ وأي سبب يحملك على أن تظن أنه انما اقترح ما اقترح شفقة عليك ورحمة بك، وليس الباعث عليه غرضاً آخر ؟ اني أعرف أكثر منك دقائق ما حصل بالمدينة وما كان من أثر مستر اسكومب في الحوادث التي وقعت » . ولكني قطعت عليه الحديث باعاءة

غير أن مستر لوتون عقب على ذلك بقوله : « يمكننا أن نفرض أن مستر اسكومب قد كتب رقعة اليك مدفوعاً بأسمى البواعث ، ولكنك اذا وافقت على مقترحه أهنت نفسك . ولذا أنصح اليك ، اذا كنت

على استعداد ، أن ترافقنى الآن . فالقبطان من رجالنا ، ومسؤليته مسؤوليتنا . وهو غير مسؤول إلا أمام « دادا عبد الله » . وانى لأعرف ما سوف يفكرون فيه ازاء هذا الأمر ، لأنهم أظهروا فى هذا الصراع شجاعة يندر مثالها . » ـ فأجبته ـ « دعنا نذهب اذن . وليس عندى تمهيدات أقوم بها . وكل ما على أن أضع عمامتى على رأسى . فلنخبر القبطان أولا ثم نغادر الباخرة ؟» . واستأذنا القبطان فأذن .

كان مستر لوتون محاميا قديما واسع الشهرة فى دوربان . وكنت قد عرفته وتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكان من عادتى أن أستشيره فى القضايا التى آنس فيها صعوبة أو أوكله عنى باعتباره أقدم منى بالمهنة عهداً وأوسع تجربة . وكان رجلا شجاعاً قوى البنية مفتول العضل . أما طريقنا فكان يخترق الشارع الرئيسى فى دوربان . ووافت الساعة منتصف الخامسة من المساء عند ما بدأنا فى المسير . وكانت السماء يكسوها غيم خفيف وكانت الشمس قد انحدرت نحو المغيب فلم تكن ترى . والماشى على قدميه أن يمضى ساعة برمتها حتى يصل الى بيت « پارسى رستو مجى » . وكان الناس الواقفون على أرصفة المرفأ ليسوا أكثر عدداً من المعتاد . ولكننا بمجرد أن نزلنا من الباخرة لحنا بعض الصبية . ولما كنت الهندى الوحيد الذى يلبس عمامة ذات طابع معين ، فسرعان ما عرفت ، وبدأ الصبية يصيحون « ها هو غاندى ! هنا غاندى ! حطموا غاندى ! أحيطوا بغاندى ! » وأقبلوا نحوى . وبدأ بعضهم يلقى

على الحجارة . وشاركهم بعد قليل أوربيون أسن منهم ، وأخذت جماعة الغوغاء المفتونين تزداد تدرجاً . وفكر مستر لوتون أن هناك خطرا محدقا بنا إذا مضينا نسير على الأقدام ، فنادى عربة يد لتقلنا . وحتى الساعة لم أكن قد ركبت عربة يد لأنى كنت أستهجن أن أستقل عربة يجرها واحد من بنى آدم . ولكننى شعرت بأن واجبى أن أستخدم عربة اليد لأول مرة . ولقد عالجت فى حياتى خمس أو ست حالات، وان شئت فقل تجاريب ، استبنت منها ان الشخص الذى يريد الله له النجاة لن يصيبه الضر ولو ألقى بنفسه فيه . وعلى الرغم من أننى نجوت هذه المرة أيضاً ، فانى ما شككت فى أن نجاتى لم تكن من عند نفسى ولا بمهارتى . وكان الذى يجر العربة رجل من « الزولو » ـ Zulus ـ فهدده الصبيان والرجال الأوروبيون بأنه إذا سمح لى بأن أستقل عربته فعقابه الضرب المبرح وتحطيم عربته . وسمعنا من هذا « الزولى » كلمة « خا » أى « لا » وذهب بعيداً عنا . فحمدت الله لأنى لم أحمل على أن أخجل نفسى بأن أركب عربة يجرها فرد من أبناء آدم .

لم يصبح أمامنا من مفر فى أن نمضى مشياً على الأقدام إلى حيث قصدنا. وتبعنا الغوغاء . ولم نكن ننتقل خطوة حتى يزداد الغوغاء فى العدد . وما وصلنا شارع « وست » ـ West ـ حتى أصبح عدد المتظاهرين مريعاً . وتقدم رجل قوى الأعصاب من مستر لوتون وفرق بينه وبينى . فأصبح فى موقف لا يستطيع فيه الدنو منى . وبدأ الغوغاء يسيئوننى

ويلقون على الحجارة ، بل وكل ما تصل اليه أيديهم . ورموا بعمامتى الى الأرض . ثم تقدم منى شخص بدين كثير الصياح وصفعنى على وجهى وركلنى بقدمه . وكنت على وشك أن أسقط على الأرض مغشياً على ، عندما أمسكت بحدائد منزل قريب منى . واستطعت أن أتنفس برهة ، ولما ذهبت عنى نوبة الاغماء بدأت أسير فى طريقى . وفى ذلك الوقت فقدت كل أمل فى أن أصل المنزل حياً . على انى أذكر جيداً انى حتى فى تلك الحالة لم أشعر فى قلبى بأية حفيظة نحو الذين يؤذوننى .

بينما كنت أسير ببطء متهادياً مترنحاً فى طريقى ، كانت مسز « الكسندر » زوجة مراقب بوليس دوربان مقبلة فى الناحية الأخرى . وكانت بيننا معرفة وثيقة ، والحق أنها سيدة فيها شجاعة واقدام . فعلى الرغم من أن السماء كانت غائمة وقد انحدرت الشمس للمغيب ، فانها نشرت شمسيتها لتقينى بها ومشت الى جانبى . ومن عادة الاوروبيين ان لايهينوا سيدة ، وعلى الأخص زوجة مراقب البوليس ، وهو رجل متقدم فى السن معروف عند الناس حق المعرفة محبوب لديهم ، فكيف يفكرون فى ايذائها ؟ وكان لابد من ان تؤذى اذاهم صوبوا نحوى . لذلك أشعر بأن المضار التى لحقتنى بعد صحبتها كانت غير ذات بال . وكان مراقب البوليس قد عرف بأن الغوغاء تهاجمنى فأرسل بعض رجاله لحمايتى . وأحاط بى رجال البوليس . وكان مركز البوليس فى طريقنا . فلما وصلنا وجدت ان مراقب البوليس كان واقفا ينتظر قدومنا . وعرض

على أن أحتمى بمركز البوليس فرفضت وشكرته قائلا . « لابد لى من أن أصل الى حيث أقصد. وانى لمؤمن بعبث أهل دوربان ايمانى بقداسة قضيتى . فشكراً لك على اهتمامك وارسالك رجال البوليس لحمايتى . وانى لأشكر مسز الكسندر لانها ساهمت بأكثر من الواجب فى سبيل سلامتى .

ووصلت بيت « رستومجى » من غير حادث آخر . وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله عندما وصلت . وأخذ طبيب الباخرة كورلاند يمتحن جروحى لأنه كان هنالك. فلم يجد فى كثيراً من الجراح . ولكن كدماً كبيراً كان يؤلمنى أشد الألم . غير أنى فضلا عن هذا لم اترك لاستريح . فان آلافا من الاوروبيين تجمهروا أمام منزل « رستومجى شيث » . ولما خيم الظلام شاركهم فى تجمهرهم عدد من « الفتوات » ، وأرسلوا الى رستومجى شيث كلمة يقولون فيها بانه اذا لم يسلمنى اليهم أحرقوا المنزل بمن فيه وأنا معهم . على ان رستومجى شيث كان هندياً من الذين لاتلين قناتهم . ولما علم مستر الكسندر مراقب البوليس بالحالة اختلط بالغوغاء ومعه عدد من البوليس السرى . واستحضر منصة ووقف عليها . ثم خدع الغوغاء بأنه سوف يتكلم فيهم ، وبهذه الخدعة استطاع أن يحتل باب منزل رستومجى حتى لايستطيع أحد أن يقتحمه ويدخل الى البيت ، وكان قد أوقف رجالا من البوليس السرى فى الأماكن الضرورية . وبمجرد أن وصل أمر أحد أتباعه أن يستخفى فى زى تاجر

هندى بأن يلبس ملابس هندية ويصبغ وجهه ، حتى يستطيع أن يقابلنى وأن يحمل الى الرسالة الآتية: « اذا كنت تريد أن تنقذ صاحبك وضيوفه وماله ، واسرتك شخصياً ، فانى أنصحك بأن تستخفى فى زى كونستابل هندى وتخرج من باب بيت رستومجى الخلفى ثم تندس مع رجلى هذا فى الجمع الحاشد حول المنزل وتتسلل الى مركز البوليس . ان عربة تنتظرك فى منعطف الشارع . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى أستطيع بها أن أنقذك وأنقذ غيرك . ان الغوغاء فى هياج حتى انه ليتعذر على أن أحكم أهواءهم . فاذا كنت متردداً فى اتباع مشورتى ، فانى أخشى أن يهدم الغوغاء بيت رستومجى من أساسه . وهنالك لا أستطيع أن اقدر كم من الارواح سوف تزهق وكم من الاموال سوف تبدد » . ولقد أدركت الموقف بسرعة فاستخفيت فى زى كونستابل وغادرت منزل رستومجى . ووصلت أنا والضابط مركز البوليس فى أمان . وفى ذلك الوقت كان مستر الكسندر يعاجن الغوغاء ويغنيهم أغنيات يستدعيها الموقف حينا ، ويتكلم فيهم حينا آخر . فلما علم أننى بلغت مركز البوليس ، انقلبت مجانته جداً وسأل :

ــ « ماذا تريدون » ؟

ــ « نريد غاندى » .

ــ « ماذا تريدون أن تفعلوا به » ؟

ــ « نحرقه » .

ـ « أى ضرر أحدث لكم » ؟

ـ « لقد سود وجوهنا فى الهند ويريد أن يغرق الناتال بسيل من الاجراء » .

ـ « وماذا سوف تعملون لو انه لم يخرج » ؟

ـ « اذن نحرق المنزل » .

ـ « ان زوجه وأولاده هنا أيضاً . وهنالك رجال ونساء غيرهم . أفلا تخجلون من أن تحرقوا نساء وأطفالا » ؟

« ان مسؤلية ذلك تقع عليك. اننا لانريد أن نؤذى أى شخص آخر ولذا نطلب اليك أن تسلمنا غاندى » .

وهنا ابتسم مراقب البوليس فى هدوء وأخبر الغوغاء بأنى غادرت منزل رستومجى ومررت فى وسطهم ووصلت إلى مأمن آخر . فصاحوا معاً . « هذا كذب ! هذا كذب ! » فأجابهم

« اذا كنتم لا تصدقون مراقب بوليسكم العجوز ، فأرجو أن تنتخبوا لجنة من بينكم مكونة من ثلاثة أو أربعة أفراد . على أن يتعهد الباقون أن لا يقتحموا المنزل ، فاذا لم تجد هذه اللجنة غاندى فى المنزل عدتم بسلام الى منازلكم . انكم مهتاجون اليوم ، ولا تريدون أن تطيعوا البوليس . وهذا مما يضعف الثقة بكم ، لا بالبوليس . لهذا تحايل البوليس عليكم ، فأخرج فريستكم من وسطكم نخسرتم الصفقة . ولا شك فى أنكم لا تلومون البوليس على هذا . ان البوليس الذى

أقمتموه ليحافظ على النظام قد قام بواجبه .

ولقد خاطب مراقب البوليس الغوغاء بلباقة وقوة حتى استل منهم الوعد الذى أراد . وعينت لجنة . وفحصت بيت رستوجى فحصاً دقيقاً ، وأخبروا الغوغاء بأن مراقب البوليس صادق وأنه كسب منهم الصفقة . وهنا امتعض الغوغاء . ولكنهم نفذوا عهدهم وانصرفوا من غير أن يرتكبوا عبثاً . وكان وقوع هذا الحادث فى يوم ١٣ من يناير سنة ١٨٩٧ .

...

فى صبيحة اليوم الذى رفع فيه الحجر الصحى عن الباخرتين ، قابلنى مكاتب احدى صحف دوربان على ظهر السفينة . وسألنى عن كل شيء وكان من السهل على أن أتنصل من التهم التى وجهت الى وأن أقيم له الدليل على ذلك بما أرضاه . ولقد أثبت له باسهاب أنى لم أتورط فى أية مغالاة ، وانى لم أفعل الا ما أعتقد أنه واجب على . وانى اذا توانيت عن أن أظهر ما أظهرت ، فانى لا أكون جديراً بأن أسمى رجلا . وظهر هذا كله على صفحات الجرائد فى اليوم التالى . ولقد اعترف ذوو النهى من الأوروبيين بخطئهم . وعبرت الصحف عن ميولها وعواطفها نحو الأوروبيين وموقفهم فى ناتال ، ولكنها بجانب هذا دافعت عن موقفى وعملى . وكان من وراء ذلك أن ازداد صيتى ذيوعاً ، واكتسب الهنود احتراماً ، حتى لقد ظهر أن الهنود ، ولو أنهم فقراء معدمين ، ليسوا

جبناء ، وأن التجار الهنود على استعداد لأن يجاهدوا ليحافظوا على احترامهم ومن أجل وطنهم ، من غير تقدير لما سوف ينزل بهم من خسائر . وعلى الرغم من أن الجالية الهندية كانت سوف تقاسى الآلام ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التى نزلت ببيت « دادا عبد الله » ، فان النتيجة اجمالا كانت مفيدة . فان الجالية الهندية استطاعت أن تمتحن قوتها ، وبذلك زادت ثقتها بنفسها. وأنا شخصياً قد استفدت من هذه التجربة ، حتى أنى ما فكرت فى ذلك اليوم إلا وشعرت بأن الله كان يهيئنى لأن أضع « الستياجراها » موضع التنفيذ . ولقد كان لحوادث ناتال هذه صدى تردد فى انجلترا ، فان مستر تشامبرلين وزير المستعمرات أبرق الى حكومة ناتال يسألها أن تحاكم الذين آذونى وأن يأخذ العدل مجراه فى مسألتى .

وكان مستر اسكومب مدعياً عمومياً فى حكومة ناتال فاستدعانى اليه وأطلعنى على برقية مستر تشمبرلين . وأظهر أسفه لما نالنى من الايذاء ، كما أبدى سروره من أن نتائج مطاردتى لم تكن أشد مما كانت. وأضاف الى ذلك ـ « انى أؤكد لك بأنه لم يكن من قصدى أن تؤذى أو يؤذى أى شخص من أفراد جاليتكم . ولأنى خفت من أن ينالك الأذى ، أرسلت اليك رقعتى ناصحاً بأن لا تغادر السفينة الا مساء . فلم تحب أن تأخذ باقتراحى . وليس من قصدي أن أوجه اليك أى لوم فى أنك أخذت بنصيحة مستر لوتون.فان من حقك أن تعمل كل ما تراه صوابا.

وحكومة ناتال تقبل كل طلبات مستر تشامبرلين بحذافيرها ، وترغب فى أن يقف مهاجموك موقف الاتهام . فهل يمكنك أن تستدل على أى شخص من الذين هاجموك ؟

فأجبته بأنه ربما كان فى امكانى أن اعين شخصاً أو اثنين منهم ، ولكنى صممت تصميما قاطعاً على أن لا أشكو أحداً . فان كل المعلومات التى تلقاها مهاجمى انما تلقوها من رؤسائهم وزعمائهم ، وانه لكثير أن يطلب الانسان من غوغاء أن يحكموا فيما اذا كانوا على صواب أو على خطأ . فاذا كان كل ماسمعوا عنى صحيحاً ، فمن الطبيعى أن يهتاجوا وأن يرتكبوا شيئاً من الخطأ فى ثورة من الغضب . وان الجماهير المستاءة الصاخبة كثيراً ماحاولت أن تنفذ العدالة بهذه الكيفية . واذا كان لى أن ألوم احداً فانى انما ألوم لجنة الاوروبيين . وربما يكون روتر قد نقل أخباراً مشوهة . ولكن زعماء الاوروبيين لما علموا بقدومى الى ناتال ، كان من الواجب عليهم وعلى اللجنة أن تسألنى فى الشكوك التى ساورتهم من جراء أعمالى فى الهند .

فأجابنى مستر اسكومب قائلا : «انى أفهم ماتقول حق الفهم ، وانى لاحترم أقوالك وأقدرها . انى لم أكن مستعداً لأن أسمع منك انك لاتريد أن تحاكم الذين آذوك وهاجموك . وانى ما كنت لاشعر بأية غضاضة من أن تطلب محاكمتهم . ولكن بما أنك أبديت تصميمك على أنك لاتريد أن تحاكمهم ، فانى لا أتردد فى أن أقول لك بأنك لم

تصل الى الرأى الصائب فى الموضوع لاغير ، بل أقول لك بصراحة بانك بهذا سوف تقدم لجاليتك خدمات أكبر مما قدمت لها، بما تبدى من القدرة على ضبط النفس . وكذلك يجب على أن أصرح فى الوقت ذاته بان رفضك أن تحاكم الذين آذوك سينقذ حكومة ناتال من أن تقف موقفاً من أسوإ ماتتصور . ولو أردت أن تحاكمهم، فاذن تضطر الحكومة الى القبض عليهم ، ولكن لايخفى عليك أن الاوروبيين سوف يهتاجون لهذا العمل وسوف يكون سبباً فى قيام عاصفة من النقد المرير لا يمكن لاية حكومة أن تواجهها. ولكنك اذا كنت قد صممت نهائياً على أن لاتحاكمهم ، فعليك اذن أن تكتب لى مذكرة تفيد ذلك . على انى لا أستطيع أن أدافع عن حكومتى بأن أرسل الى مستر تشامبرلين ملخصاً عن حديثك هذا . فانى سوف أبرق له ملخصاً من مذكرتك التى سوف تكتبها . على أننى لا أطلب منك أن تكتب لى هذه المذكرة الآن ، فالاوفق أن تستشير أصدقاءك . وخذ رأى مستر لوتون . واذا رأيت انك بعد استشارتك هذه لاتزال مصمماً على ماترى الآن،فاكتب الىَّ . ولكن يجب أن تبين فى مذكرتك بجلاء بأنك ترفض تحت مسؤوليتك الشخصية أن تحاكم الذين هاجموك . فنى هذه الحالة فقط أستطيع أن انتفع بما تكتب » .

فقلت له ــ «لم يكن عندى أية فكرة فى أنك أرسلت الى لتخاطبنى

فى هذا الشأن . ولم أستشر أى انسان فى هذا الموضوع ، ولا أريد أن أستشير أى شخص الآن . فانى لما صممت على أن أبارح الباخرة وأسير مع مستر لوتون ، كنت قد هيأت نفسى على أن لا أحزن أو أمتعض اذا نالنى أذى . فاعتبر اذن أن محاكمة الذين آذونى أمر خارج عن موضوع المناقشة . ان هذا عقيدة دينية ثابتة فى نفسى . »

وبعد أن فهت بهذه الكلمات تناولت ورقة بيضاء وكتبت له ما أراد وسلمتها اليه .



*

الفصل التاسع

حرب البوير

لما قامت حرب البوير فى سنة ١٨٩٩ واجه الهنود فى جنوب افريقية حالة دقيقة، بل مشكلة نشأت عن التساؤل فى الجانب العملى الذى يقومون به ازاء الحرب . أما البوريون فقد اشتبك كل الذكور منهم فى الحرب وحملوا السلاح . فترك المحامون مكاتبهم والمزاعون حقولهم والتجار متاجرهم والخدم وظائفهم ـ أما الانجليز فلم يشترك رجالهم فى الحرب بالنسبة التى اشترك بها رجال البوير . غير أن عدداً كبيراً من غير رجال الحرب فى مستعمرة الكاب والناتال وروديشيا تقدموا متطوعين لخوض غمار الحرب . وتبعهم فى ذلك كثير من المحامين ذوى المكانة والتجار ذوى الأموال والسمعة الحسنة . وكانت احدى التهم الموجهة إلى الهنود أنهم لم يهبطوا جنوب افريقية إلا ليبتزوا الأموال وانهم عبء ثقيل وكمية ميتة يحملها الانجليز على أكتافهم . بل شبهوا بالديدان التى تعيش فى جوف الخشب لتأكل منه اللباب، وانهم لا يعنون من مصالح جنوب افريقية بشىء الا تعمير جيوبهم . بل انهم لا يقومون باية تضحية حتى ولو غزيت البلاد أو هوجمت منازلهم وانتهكت حرماتها . وفى هذه

الحالة لاتصبح مهمة الانجليز قاصرة على الدفاع عن أنفسهم ، بل يتلو ذلك أنهم يضطرون الى حماية الهنود . ولقد بدأنا نفكر فى هذه الاعتبارات ، وشعرنا جميعا بأن هذه فرصة سانحة يمكننا أن نبرهن فيها أن هذه التهم لاأساس لها ، ولكن انتهينا من التفكير فى الأمر بالنتائج الآتية :

« ان الانجليز يستبدون بنا ويضطهدوننا بقدر ما يفعل البوير . واذا كنا نتعرض الى صعاب ومتاعب فى الترنسفال ، فان حالنا فى الناتال ليس بأقل منها فى تلك ،أوفى مستعمرة الكاب،صعوبة وقسوة.والفرق، ان كان هنالك فرق ، فانه يتناول الدرجة ، ولا يتناول الصفة . وفضلا عن هذا فاننا لسنا بأكثر من جالية من الارقاء . وبما اننا نعرف ان البوير،وهى أمة صغيرة، انما تحارب دفاعا عن حريتها ، فلماذا نشترك فى حرب تعجل بدمارها ؟ وفوق كل هذا لايمكن لأحد أن يتكهن بأن البوير سوف يهزمون. واذا انتصروا فلاشك فى أنهم سوف ينتقمون »

وكان من بين الهنود جماعة قوية تؤيد هذه النظرية بحرارة . وكنت أفهمها جيداً وأزنها الوزن الكافى . ولكن مع ذلك لم اقتنع فرفضت الأخذ بها وأثبت للجالية رأيى كالآتى :

« ان وجودنا فى جنوب افريقية يتوقف على أننا من رعايا بريطانيا . وما وتينا نعمل تحت هذا العنوان فى كثير من الظروف لنحقق هذا الأمر عملياً . وكنا نفخر دائما برعويتنا البريطانية ، وألقينا فى روع رجال الحكومة ، كما أقنعنا انفسنا ، بأن من دواعى الاغتباط ان نشعر

بهــذه المفخرة . وان قليلا من الامتيازات التى نتمتع بها انما نتمتع بها تحت عنوان اننا بريطانيون . وانه لمن أنــكى مايصيب كرامتنا باعتبارنا أمة ، ان نقف مكتوفى الأيدى ننظر بجمود الى الخطر الداهم يواجه الانجليز ويواجهنا معهم ، لأنهم يسيئون معاملتنا. وهذا الموقف السلبى الاجرامى، من شــأنه أن يضاعف متاعبنا . فاذا فاتتنا هــذه الفرصة التى جاءتنا عرضاً، لنبرهن من طريقها على فساد التهم التى نعتقد نحن انها غير صحيحة ولا أساس لها ، فاننا انما نقف بذلك موقف من يقدم نفسه للاتهام وبيده وثيقة الاثبات. ولا عجب بعد هذا اذا أمعن الانجليز فى اساءتنا وفى النظر الينا نظر الاحتقار والامتهان أكثر مما يفعلون . اننا لاشك نــكون مخطئين . أما قولنا بأن التهم التى توجه الينا لا أساس لها وفاسدة لدى الواقع وانها لم يقم عليها برهان واحد ، فليس له من معنى الا اننا نخدع أنفسنا . قد يكون فى القول بأننا فى الامبراطورية لانزيد عن اننا عبيد أرقاء قوة ، غير اننا عملنا حتى الآن على أن نحسن مركزنا ، وظللنا عاملين لهذا ونحن فى حضن الامبراطورية . ولقد كانت هذه سياسة زعمائنا فى الهند دائما ، كما هى سياستنا . أما اذا رغبنا رغبة حقيقية فى أن ننال حريتنا وأن نتمتع بتحسين أحوالنــا ونزيد رفاهتنا كأعضــاء فى الامبراطورية ، فهاهى أمامنا الفرصة الذهبية نتنهزها بأن نساعد الانجليز فى الحرب بكل الوسائل التى تصل يدنا اليها . وعلى الرغم من أنه يجب

علينا أن نذعن الى الاعتقاد بحقيقة أن العدل يؤيد البوير ، فان بجانب هذا يجب أن نفكر في أنه ليس من حق كل فرد يتمتع برعوية دولته ان يفرض عليها الأخذ برأيه فى كل الحالات . ان السلطات لا يمكن أن تكون دائما على صواب ، ولكن مادام أن الرعايا يدينون بالطاعة لحكوماتهم ، فان واجبهم على وجه عام يقضى عليهم بأن يعاونوا الحكومة بأنفسهم ، وان يذعنوا لوجهة نظرها » .

«وفضلاً عن هذا كله فانى أرى انه اذا رأت طائفة من الرعية ان عمل حكومتها لا يتفق وآداب الدين ، فهنالك يجب عليهم ، قبل أن يتقدموا بمساعدتها أو معاندتها، ان يحاولوا اقناع رجال الحكم بالاقلاع عن خطتهم ولو تعرضت حياتهم للخطر. على اننا لم نقم بعمل كهذا. بيد اننا لا نشعر بمثل هذا الجرح النفسى فى الحالة القائمة الآن ، وليس لأحد منا أن يقول اننا انما نرغب فى الابتعاد عن الاشتراك فى هذه الحرب لمثل هذا السبب الاجماعى . فواجبنا الطبيعى باعتبارنا أعضاء فى الامبراطورية ، ان لا نناقش فى احتمالات الحرب وتقديراتها ، بعد أن نشبت الحرب فعلا ، بل ان نشترك فيها ونساعد بقدر مايصل جهدنا. واذا فرضنا أخيراً انه فى حالة انتصار البوير - وانتصار البوير فى حدود الاحتمال الآن - تكون حالتنا فى النهاية اسوأ منها فى الابتداء ، وان البوير سوف ينزلون بنا اقسى الانتقام، ونكون بهذا قد ظلمنا البوير الشجعان وظلمنا أنفسنا. وانى لأرى أن التفكير فى مثل هذا ضياع ، ولا يكون له من معنى الا التعبير عن

خنوثتنا وضعفنا واتهاماً لولائنا . وهل يفكر انجليزى واحد الآن فيما يحتمل أن يحدث فيما لو خسرت انجلترا الحرب ؟ وان رجلا على وشك الاشتباك فى حرب دامية ، لا يمكن ان يفكر فى مثل هذه الوجوه ، إلا ويكون خائناً لرجولته . »

ولقد قبل الكثيرون وجهة نظرى غير أن المسألة العملية بدأت تواجهنا . فمن ذا الذى سوف يلقى بسمعه لصوت الهنود الضعفاء فى وسط هذه الجلبة الدامية التى تبعتها هذه الحرب الشعواء ؟ ولم يكن أحد منا قد استعمل من قبل سلاحاً من أسلحة الحرب . وحتى الأعمال التى يمكن أن يقوم بها غير المحاربين تحتاج إلى مرانة وتدريب . وليس منا من يعرف كيف يسير بنظام حربى . كما أنه ليس من السهل الهين أن يمشى الانسان مسافات بعيدة واحماله على ظهره . وقد يعاملنا البيض باعتبارنا « اجراء » ـ Coolies ـ أو يسبوننا أو ينظرون الينا نظرة احتقار . فكيف يمكن احتمال هذا كله ؟ وإذا تطوعنا للخدمة ، فما هى الطريقة التى نقنع بها الحكومة على أن تقبل منا هذا العرض ؟ وبعد نقاش انتهينا إلى الرأى الأخير . ومحصله اننا إذا كانت لدينا الارادة ، فان الله سوف يهبنا القدرة على أن نخدم فى الحرب ، وإنه لا يلزمنا أن نعنت أنفسنا بالتفكير فى كيفية القيام بما يعهد إلينا من الأعمال ، بل يجب علينا أن ندرب أنفسنا على القيام به إلى الغاية التى تصل إليها استطاعتنا ، واننا مادمنا قد صممنا على أن نخدم فى الحرب ، فالواجب

أن نمسك عن النظر فى تفضيل أى من الأعمال التى يعهد إلينا بها ، وأن نغضى حتى عن السباب إذا وجه إلينا .

ولقد واجهتنا صعوبات شـديدة فى سبيل أن يقبل طلبنا من جانب الحكومة . وقصتنا فى هذه الناحية طلية مسلية ، ولكن ليس هنا موضع سردها . ويكفى أن أشير هنا إلى أن زعماءنا تدربوا على العناية بالجرحى وتمريض المرضى ، وحصلوا على شهادات طبية بصلاحيتهم للعمل وأرسلوا خطابا للحكومة بذلك . ولقـد أحدث هذا الخطاب كما أحدثت رغبتنا الأكيدة فى خدمة أغراض الحرب فى أية ناحيـة تريد الحكومة أن توجهنا فيها ، أثراً عميقاً . فشكرتنا الحكومة فى خطاب رسمى ، ولـكنها رفضت ما عرضنا عليها مبقية على ذلك إلى حين . غير أن البوير قد استمروا فى تقدمهم كما لو كانوا سيلا مجتاحا ، وخيف أن يبلغوا دروبان . وتـكدس الجرحى والقتلى فى كل مكان . وكنا نجدد ملتمسنا حيناً بعد حين ، وفى النهاية سمحت الحكومة أن نكون ما سمى فيما بعـد « فرقة الأسعاف الهندية » . وكنا أبدينا رغبتنا فى أن نقوم بعمل النظافة فى المستشفيات وتمهدها بالـكنس ونقل الأوساخ . فلا عجب أن يكون تـكوين فرقة اسعاف منا فـكرة تقابل بكل ارتياح . واقترحنا أن ينضم إلينا الهنود الأجراء ذوو العقود . ولما كانت الحكومة فى احتياج اذ ذاك الى أكبر عدد ممكن من الرجال ، اتصل رجالها بالذين لديهم أجراء من ذوى العقود ، كى يسمحوا لرجالهم

بالتطوع . وبذلك استطعنا أن نكون فرقة للاسعاف عظيمة القدر مكونة من ١١٠٠ هندى غادرت دوربان الى خطوط النار . ولما عزمنا على المسير تلقينا من مستر اسكومب ـ الذى يعرفه القارىء من قبل ـ رسالة يبلغنا فيها تحياته وتبريكاته ، وكان اذ ذاك رئيس المتطوعين الأوروبين فى ناتال .

وكان عملنا هذا مادةمتجددة تغذى جرائد جنوبىافريقية،بل كان رسالة جديدة من الهنود لأهل تلك البلاد ، لأنه لم يكن يتوقع أحد أن الهنود سوف يشتركون فى هذه الحرب بأى عمل مهما كان نوعه . وكنا فى البدء قد تلقينا دروسنا الأولية فىالأسعاف الوقتى على الدكتور « بوذ » فرافقنا الى الميدان باعتباره مراقباً صحياً . وكان من رجال الدين الأتقياء، وعلى الرغم من أن عمله كان قاصراً على الاختلاط بالمسيحيين من الهنود ، فانه أخذ يخالط الهنود جميعاً من كل نحلة ودين . وكان فى الميدان فرقة اسعاف أوربية بجانب الفرقة الهندية ، وعمل كلاهما معاً فى مكان واحد .

وسرعان ماتراكمت علينا الأعمال ، وكانت أعمالا أشق مما تصورنا . فان حمل الجرحى من الميدان سبعة أو ثمانية أميال كان جزءا من عملنا اليومى . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن نضطر الى حمل جنود وضباط بالغة جراحهم ، مسافات بعيدة قد تبلغ بعض الأحيان خمساً وعشرين ميلا . وقد نبدأ بالمسير الساعة الثامنة صباحاً ، ونعنى

خلال الطريق باعطاء الجرحى جرعات من العقاقير ، ونواصل المسير فلا نصل الى المستشفى الا فى حدود الخامسة مساء . فلا شك اذن فى أن العمل كان شاقاً مضنياً . وحدث مرة أن اضطررنا أن نحمل جرحى على أكتافنا ونسير بهم خمساً وعشرين ميلا فى يوم واحد . أضف الى ذلك أن الجيش البريطانى أصيب بفشل تلو فشل فى بداءة الحرب ، وجرح منه الكثيرون . ولهذا كان من رأي الضباط أنه من الضرورى أن يقلعوا عن فكرة عدم دخولنا إلى خطوط النار . ولكن يجب أن أقرر هنا أنه عندما قامت مثل هذه الضرورة ، أخبرنا أن عقود التطوع تنص على أن نكون فى حمى من مثل هذا الخطر ، فلم يكن لدى الجنرال « بولر » ـ Buller ـ فكرة أن يجبرنا على أن نعمل فى خطوط النار مالم نكن على استعداد لأن نقبل العمل فى مثل هذا المأزق باختيارنا ، واذ ذاك يكون قبولنا أمراً يقابل بمنتهى الشكران والحمد . وكنا جميعاً فى توق لأن ندخل منطقة الخطر ، ولم نرغب فى أن نعمل خارجها منذ بدء عملنا . ولهذا سررنا بالفرصة السانحة . ولحسن الحظ لم يصب أحدنا بجرح سواء أمن الرصاص أم من أى شيء آخر . وعلى الرغم من أن فرقنا كثيراً ما كانت تتصل باعضاء فرق الاسعاف المؤقتة المكونة من الأوربيين أو تحتك بالجنود الاوروبية ، فلم يشعر واحد منا أن الاوروبيين أساءوا معاملته أو تصرفوا معه بشيء من الشذوذ . وكانت فرق الاسعاف المؤقتة مكونة من الأوروبيين المقيمين فى جنوبى افريقية ، وكلهم من الذين

أخذوا بضلع فى الدعوة التى قامت ضد الهنود قبل الحرب . فلما عرفوا أن الهنود نسوا هذه الاساءات ، وانهم هبوا للعمل الى جانبهم فى وقت الحاجة ، شعروا من أعماق قلوبهم بالعطف والمحبة . ولقد نوه الجنرال « بولر » بأعمالنا فى بلاغاته ، ونال السبعة والثلاثون رئيساً الذين كانوا يقودون الفرق مداليات حربية اعترافا بفضلهم .

ولما تمت أعمال الجنرال « بولر » فى انقاذ بلدة « لادى سميث » حلت فرقنا كما حلت الفرق الأوروبية . ولقد استمرت الحرب طويلا بعد ذلك . وظللنا على استعداد لأن نشترك فيها ، حتى لقد ذكر فى أمر تسريح الفرق ان الحكومة لا تنى عن دعوتنا للعمل إذا وقع ما يستدعى القيام بأعمال واسعة النطاق .

وأرى من الواجب أن أذكر حادثة ذات شأن فى هذا الوطن . فقد كان فى « لادى سميث » عندما حصرها البوير وهددوها عدد قليل من الهنود ، فضلا عمن كان بها من الأوروبيين . وكان بعضهم يتعاطى التجارة ، بينما كان الآخرون من الأجراء ذوى العقود يعملون فى مد السكك الحديدية أو كخدم لبعض الانجليز . ومن بينهم من يدعى « باربوسنغ » وكان يكنى دائما بالأجير ـ Coolie ـ وبالقرب من بلدة «لادى سميث» وضع البوير على تل مدفعاً من مدافع الميدان ، هدد المدينة بالدمار ، واستطاع أن يهدم بعض المبانى ويذهب ببعض الأرواح . وكان لابد من أن تمر دقيقة أو دقيقتان قبل أن تصل كرة هذا المدفع إلى هدف

سددت اليه . فاذا أمكن أن ينذر السكان بان المدفع أطلق قبل أن تصل كرته إلى حيث سددت ، أمكن للآهلين أن يحتموا ، وبذلك يدرءون عن أنفسهم الخطر . فكان « باربوسنغ » يجثم على شجرة قريبة من البلدة طيلة الوقت الذى كان يستعمل فيه المدفع لتهديدها ، وعيناه تنظران إلى التل ، ويقرع جرساً فى اللحظة التى يلمح فيها نار المدفع . فاذا سمع السكان الجرس احتموا حالا ونجوا بأنفسهم من كرة المدفع التى ينذرهم « الأجير » بأنها أطلقت لتحصد أرواحهم .

ولقد نوه الضابط الذى كان معهودا اليه أمر الدفاع عن «لادى سميث» بأعمال « باربوسنغ » فقال انه كان يقوم بعمله بكل نشاط وحماسة ؛ حتى انه لم يخطىء مرة فى أن يقرع الناقوس كلما أطلق المدفع . ولاحاجة بى الى القول بأن حياته كانت دائما فى خطر طيلة عمله هذا .

الفصل العاشر

الطاعون الأسود

فى « جوها نسبرج » ، حيث أقمت بعد أن وضعت حرب البوير أوزارها ، أخذت أعمالى القضائية تزداد وتتضاعف . وذات مرة كان عندى أربعة كتبة من الهنود ، ليس من الصعب على أن اقول انهم كانوا أقرب لأن اعتبرهم كأولادى منهم ككتبة مأجورين . ومع هذا فانهم لم يكفوا للقيام بالعمل .

وبلغ بى الجهد منتهاه . فترا كمت على الأعمـال ، حتى خيل الى انه من الصعب على مهما جهدت نفسى ، ان أقوم بأعمال مهنتى وأعمالى العامة . وشعرت انى أميل الى استخدام كاتب أوروبى . ولكنى لم أ كن على ثقة بأن أجد رجـلا أو امرأة أوروبية تخدم رجلا من ذوى الألوان مثلى . غير إنى صممت على أن ابحث . فاتصلت برجل مهنته أن يقدم الكاتبين على الآلة الكاتبة لمن يطلب أحداً منهم. وكنت أعرفه من قبل ، وسألته أن يبحث لى عن كاتب يعرف الاختزال اذا كان ذلك فى مستطاعه . وكان لديه عدد منهم ووعدنى بأنه يجتهد فى أن يجعل أحدهم يقبل العمل معى . ووقع على فتاة إيقوسيه تدعى مس «دك» ــ Miss Dick كانت قد وصلت من ايقوسيا فى تلك الآونة . ولم تـكن تأنف من أن

تحصل على عيشها بطريق شريف اينما وجد العمل ، وكانت فى حاجة . فأرسلها المتعهد الى وبأسرع مما كنت اتصور استطاعت أن تملكنى

ـ « انك لاتأنفين من أن تخدمى رجلا هندياً . »

فأجابتنى بحزم « أبداً »

ـ « ماذا تطلبين أجرا على عملك . »

ـ « هل تظن ان سبعة عشر جنيهاً ونصفاً يكون مرتباً كبيراً جدا ٠ ؟

ـ « لا أعتبر انه كبير جداً اذا كنت تستطيعين أن تؤدى ما أطلب من الأعمال . ومتى تبدئين » ؟

ـ « الآن اذا أردت . »

فسررت من أجوبتها ، وبدأت املى عليها خطابات . وقبل ان يمضى زمن طويل بدأت أشعر بأنها أصبحت فى منزلة ابنة أو أخت لى أكثر من كاتبة . وقلما كنت اجد أى خطأ يستحق الملاحظة على عملها معى . وكنت أعهد إليها غالبا بمراقبة الحسابات وكانت تبلغ بضعة آلاف من الجنيهات ، كما جعلتها أمينة على دفاتر الحساب . ولقد نالت ثقتى التامة ، وزادت العلاقة بأن جعلت تطلعنى على أفكارها وميولها . واستشارتنى فى مسألة اختيار زوج لها ، فأخليت سبيلها مغتبطا لتتزوج . . وبمجرد ان أصبحت مس « دك » مسز « مكدونالد » تركت العمل معى . ولكن كثيراً ما كانت تلبى كل ما أطلب منها اذا اضطرتنى الظروف أن ألجأ اليها .

وكانت لدى ضرورة فى أن تحل محلها كاتبة أخرى ، وساعدنى الحظ فى أن أجد فتاة أخرى تدعى مس «شلسين» ـ Miss Schelsin ـ قدمها إلى مستر « كلنباخ » . وهى الآن رئيسة مدرسة البنات فى الترنسفال ولم تكن تتجاوز السابعة عشرة عندما قدمت إلى . على أن بعض ميولها ونزعاتها كانت أكثر مما يمكن ان أحتمله أو يحتمله مستر « كلنباخ » . وقد أخذت تعمل لتتعلم أكثر مما تؤدى عملا . غير انها لم تكن مصابة بمرض اللون . ولم تكن لتقيم اى اعتبار لا للسن ولا لتجاريب الحياة . فانها لا تتأخر عن ان تهين أى رجل وأن تصارحه برأيها فيه . وكثيراً ما كانت توقعنى بتهورها واندفاعها فى مآزق حرجة ، ولكن كان فى مزاجها من الصدق والاخلاص ما يكفى لأن يذهب بكل أثر قد يخلفه تصرفها .

وكانت تضحيتها كبيرة . فقد ظلت زمناً طويلا لا تتناول أكثر من ستة جنيهات كل شهر ، ورفضت أن تأخذ أكثر من عشرة جنيهات . ولما أردت أن أحملها على أن تأخذ أزيد من هذا المبلغ كانت تردنى دائما قائلة ـ « انى لم أوجد هنا لآخذ مرتبا منك . انى انما أعمل معك لأنى أحب أن أعمل معك وأحب مثلك السامية لا أكثر » . وكانت شجاعتها لا تقل عن تضحيتها . انها من النساء القلائل اللاتى عرفتهن فعرفت فيهن خلقا أنقى من البلور وشجاعة تتضاءل بجانبها شجاعة الفرسان . ولقد أصبحت الآن امرأة متقدمة فى السن . ولست أعرف

من أفكارها الآن بقدر ما كانت تعمل معى ، ولكنى لا أتوانى عن القول بأن صلتى بهذه السيدة ستظل من الذكريات المقدسة عندي . ولهذا أعتقد انى انما أكون خائنا للحق اذا أنا حاولت أن أخفى شيئاً مما أعرف عنها . لم تكن تفرق بين الليل والنهار فى العمل للغرض الذى أخدمه . كانت تخاطر بالخروج فى جنح الظلام لتأدية بعض الخدمات وحيدة وترفض بغضب أن يخرج معها أحد لحراستها . وتطلع اليها ألوف من الهنود الاشداء والشجعان يستوحونها النصح والهداية . وفى أثناء القيام بحركة « الستيا جراها » Satyagraha سجن جميع الزعماء على وجه التقريب فقادت هى الحركة بمفردها ومن غير معين . فكانت تقود الألوف وترد على عدد عظيم من المراسلات وتقوم بشؤون جريدة «الرأى الهندى » ـ Indian Opinion ـ وتحمل كل هذا على أكتافها من غير أن تشكو نصباً أو تشعر بملل .

وكان « جوكهال » ـ أحد زعماء الهند ـ يعرف كل الذين يتصلون بى فى العمل ويشاركوننى فيه . ولقد امتدح الكثيرين منهم وقدر أعمالهم . ولكنه أعطى المقام الاول لمس « شلسين » وفضلها على كل الذين كانوا يعملون معى من أوروبيين وهنود . فقال لى « قلما وقعت على مثل التضحية أو الشجاعة أو الزهد الذى رأيته فى مس « شلسين » . انها تستحق المقام الأول بين كل الذين يعملون معك » .

وفى ذلك الوقت تقدم إلى السيد « مدنجيت » بفكرة إصدار

« الرأى الهندى » وأراد أن أشير عليه فى الأمر . وكانت فى يده مطبعة يديرها فوافقت على مقترحه ، وصدرت الجريدة فى سنة ١٩٠٤ وعلى رئاسة تحريرها السيد « منشو خلال نازار » . ولكن كان على أن أحمل عبء العمل كله ، لأنى كنت أغلب الاحيان أتقدم بحمل المسؤولية عن كل مايتعلق بالجريدة . ولم يكن هذا لأن السيد «منشو خلال» لم يكن قادراً على القيام باعبائها ، فانه كان يقوم بعمل صحفى واسع النطاق فى الهند ، بل لأنه لم يكن يتقدم للكتابة فى المسائل المتعلقة بجنوب افريقية مادمت موجوداً . وكان له الثقة التامة بقدرتى على الحكم فى الأشياء ، ولذلك ألقى على كاهلى عبء القيام بتحرير الجزء الصادر من قلم التحرير ومباشرته .

و بعد أن مضت كل هذه الأعوام على صدور هذه الجريدة أستطيع أن أحكم على أنها خدمت الجالية الهندية فى جنوب افريقية أجل خدمة. فاننا لم نفكر مطلقا فى أن نجعل هذه الجريدة عملا تجاريا . وفى خلال المدة التى ظلت هذه الجريدة تحت اشرافى ، لم يصبها من تغير فى الاتجاه الا وكان سببه تغير عميق يصيبنى فى حياتى . فالرأى الهندى وجريدة الهند الفتاة و نافاجيفان Navajivan وهى الجريدة الاسبوعية الكجراتية التى أصدرها ، كلها بمثابة مرآة ينعكس عليها جزء من حياتى . فكنت أفرغ فى أعمدة هذه الجريدة اسبوعاً بعد آخر عصارة ذهنى وخلاصة روحى ، وأخذت افسر مبادىء «الستيا جراها » وعملياتها . فى خلال

عشرة أعوام ، أى من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ ، ماعـدا العطلة الاجبارية التى كنت أقضيها فى السجن ، لم يصدر عدد منها من غير أن يكون لى فيه مقالة الا فى النادر القليل . ولا أذكر انى خططت كلمة واحدة فى هذه المقالات قبل ان اقتلها بحثا وتمحيصاً ، أو كلمة حاولت فيها أن أبالغ مختاراً، أو أى شىء قصدت منه مجرد ارضاء الناس. وبالحق ان اصدار هذه الجريدة كان لى بمثابة تدريب علمنى كيف أضبط نفسى ، كما كان لاصدقائى بيئة حسنة يتصلون من طريقها بأفـكارى . و كان المنتقدون قلما يقعون على شىء يستحق أن يوجه النقد اليه . وفى الواقع اعلم أن النغمة التى كنت احرر بها مقالاتى فى « الرأى الهندى» كانت تضطر النقاد الى أن يلجموا أقلامهم . ولا شك فى أن القيام بحركة « الستيا جراها » كانت مستحيلة بدون هـذه الصحيفة . أما بالنسبة الى فقد أصبحت مدرسة أدرس فيها الطبع البشرى فى كل حالاته وعلى مختلف ألوانه . ولما كان همى أن احدث رابطة نقية صافية بين المحرر وقرائه ، غمرنى سيل من المراسلات اعتاد كاتبوها أن يصارحونى بما فى قلوبهم . فكان بعضها أخوياً مشجعاً وبعضها انتقاديا أو هجومياً على مقتضى مزاج الذين يكتبونها . فـكانت هذه المراسلات مدرسة واسعة أقرأ فيها ما يصلنى منها وأهضمه هضما كافياً ثم أجيب عليه . حتى لقد خيل الى أن الجالية كانت تشعر أن من واجبها أن تكاتبنى . وهنا أدركت قيمة المسؤولية التى تلقى على كاهل الصحفى ، كما كانت السلطة

التى أصبحت لى على الجالية من طريق هذه الصحيفة، سبباً فى أن تكلل حملتى المقبلة بالنجاح وأن تصبح محترمة الجانب قوية لا تقاوم .

عند مابدأت باصدار هــذه الجريدة ، وفى أول شهر من عمرها ، استبنت بجلاء أن أول واجب الصحافة ينحصر فى الخدمة العامة . فان الصحافة قوة عظيمة . وكما ان السيل الجارف الذى لا يصده عن جريانه شئ ،قد يغرق البلاد ويذهب بالحرث والنسل ، كذلك يكون شأن القلم الجامح فانه لن يخلق إلا دماراً . أما اذا كان السلطان الذى يحكم القلم مستمدا من عوامل خارجية ، فان الأثر يكون أشد تسمما للافـكار وأمعن تهديماً من الحاجة الى الهوادة والتريث . ولن يكون للقلم من أثر تجنى فوائده، إلا اذا كان السلطان الذى يحكمه مستمدا من ضمير الـكاتب ووجدانه .

كتب على بعض الطوائف التى تؤدي إلينا أعظم الخدمات وأجلها ، وهم الذين اخترنا نحن الهنود أن ندعوهم انجاســاً أو منبوذين ، ان يعزلوا فى أماكن بعيدة عن جنبات المدائن والقرى . وكذلك كان الحال فى أوربا النصرانية ، فقد مر على اليهود عصر كانوا فيه أنجاس أوربا ، حتى لقد أطلق على الاحياء التى كانوا يسكنونها اسم بغيض ممقوت ــ Shetto ــ وعلى نفس هذه القاعدة أصبحنا أنجاس جنوب افريقية .

كان قدماء اليهود يعتقدون انهم شعب الله المختار ، ويخرجون عن هذا الاختيار كل الشعوب والأمم الأخرى . فـكانت النتيجة أن تقع على اخلافهم لعنة شديدة وعقاب مخيف تلقاء خيلائهم . وكذلك حدث

مع الهنود فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم «آرياس» _ Aryas _ متمدنين ، مع اعتبار جزء من ابنـاء عمومتهم وممن يمتون اليهم بصلة الدم ، انجاساً منبوذين ، فكانت النتيجة أن يحل بهم انتقام الهى لا ينال الهنود النازلين بجنوبى افريقية وحدهم بل يحل بالمسلمين والبارسيين ومعهم أولئك الذين نبذوهم وسموهم أنجاساً من أهل وطنهم وممن لهم جـلود لا تختلف فى اللون عن جلودهم .

ففى جنوبى افريقية أطلق علينا ذلك الاسم البغوض المهين «أجراء» _ Coolies _ وهذه الـكلمة فى الهند تدل على « الحمال » ، ولـكنها فى جنوبى افريقية تدل على معنى حقير دنس ، وتنقل الى ذهن الأوروبى نفس المعنى الذى ينقله اسم الأنجاس فى الهند ، حتى لقد سميت الأحياء التى خصصت للأجراء باسم « حظائر الأجراء » . وكان فى جوهانسبرج حظيرة من هذه الحظائر . فـكان الهنود يكدسون فيها تـكديساً ، لأن الحظيرة لم تكن لتتسع فى المساحة بنسبة ازدياد ساكنيها . وفضلا عن أن البلدية لم تـكن لتعنى بتنظيف المراحيض الا اتفاقاً ، فانها أهملت أن تتخذ أى اجراء صحى ، فضلا عن ترك الطرق وسخة غير معبدة ولا منارة . وكانت بعيدة عن أن تفـكر فى صحة الذين يحلون بهذه الحظائر. والهنود الذين يعيشون فيها ، كانوا على جهل تام بالقواعد الصحية، ولم يكونوا ليقوموا بشىء من هذا القبيل مالم ترشدهم البلدية اليه .

انذلك الترك الاجرامى الذى تعمدته البلدية ، وجهل النزلاء الهنود ،

تضافرا على أن يجعلا من هذه الحظائر موئلا للامراض . فالبلدية على أنها كانت بعيدة عن أن تعمل أى عمل من شأنه أن يحسن الحالة ، مع أن هذا كان من واجبها ، اتخذت هذه الحالة التى نشأت عن اهمالها بالذات ذريعة لأن تأمر بهدم المحلة التى يسكنها الأجراء ، واستصدرت أمراً بنزع ملكيتها من الذين يملكونها .

وبينما كان الهنود مذعورين فزعين من هذه الحال تفشى وباء الطاعون الأسود ،ويدعى الطاعون النيومونى أى الرئوى، وهو أنكى وأشد وطأة من الطاعون الدملى . ومن حسن الحظ أن محلة الهنود لم تكن مصدر الوباء ، بل ان الوباء تفشى فى منجم من مناجم الذهب بالقرب من جوها نسبرج . وكان أكثر العمال فى هذا المنجم من العبيد ، الذين لم يكن ليسأل عن نظافتهم وصحتهم إلا مؤاجروهم من البيض . وكان من بين العمال الذين يعملون هناك عدد قليل من الهنود ، أصيب ثلاثة وعشرون منهم بهذا الوباء ، وعادوا ذات ليلة الى حظائرهم يحملون معهم جراثيم هذا المرض الخبيث . واتفق أنه كان هناك السيد « مدنجيت » يسعى لاجتلاب مشتركين لجريدة « الرأى الهندى » . وكان رجلا لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه . فتأثر كل التأثر من مرأى هؤلاء الفرائس يقتلهم المرض ويقصر آجالهم الوباء ، فأرسل إلى مذكرة كتبها بالقلم الرصاص فيهاما يلى :

« حدث وباء فجائى بالطاعون الأسود . والواجب عليك أن تحضر توا لتتخذ الاجرآت الضرورية ، والا فاننالابد من أن نحتمل المسؤولية. أرجوك أن تحضر بسرعة » .

وكان السيد « مدنجيت » قد اقتحم باب منزل خال ووضع فيه كل المصابين . فركبت دراجتى الى المحلة مسرعا وأرسلت مذكرة الى كاتب المدينة أخطره بالحالة . وأسرع الدكتور « وليم جدفرى » الذى كان يزاول مهنته فى جوها نسبرج الى النجدة بمجرد أن علم بهذه الأخبار ، وأخذ يقوم بمهمة الطبيب والممرض معاً للمصابين . ويقينى الذى يقوم على تجاربى أن قلب الانسان ما دام طاهراً نقياً ، فان الكوارث تجر معها الرجال والمعدات لمقاومتها . وكان فى مكتبى أربعة من الهنود هم كاليانداس ومنكلال واثنان لا أذكر اسميهما . لقد جاء لى بكاليانداس أبوه لأقوم على تهذيبه . وانى لأصرح بأنى قلما التقيت بهندى فى جنوبى افريقية أطوع منه أو أكثر جاذبية . وكان لحسن الحظ غير متزوج إذ ذاك ، ولذا لم أتوان فى أن أعهد اليه بمهمات يستدعى القيام بها أن يجتاز المرء مآزق مهما كانت حرجة . أما منكلال فقد استخدمته فى جوها نسبرج . وكان أيضاً غير متزوج على ما أستطيع أن أذكر . وصممت على أن أضحى بأربعتهم . ولك أن تسميهم بما شئت ، فادعهم كتبتى أو زملائى أو أولادى . ولم يكن بى من حاجة لأن أستشير كاليانداس . فى حين أن الآخرين أظهروا استعدادهم التام للخدمة بمجرد

أن عرضت عليهم الأمر ، بل قالوا « حيثما تذهب نذهب » ، فكان لجوابهم على اختصاره رنة حلوة لن أنساها .

وكانت ليلة ليلاء . تلك الليلة التي قمنا في خلالها بالتمريض مسهدين . وكنت قد قمت من قبل بتمريض كثير من المرضى ، ولكن لم أمرض مصاباً بالطاعون الأسود . ولكن اتضح لي أن جراءة الدكتور « جدفرى » وجسارته ،معدية تطغى على من حوله . ولم يكن هناك من حاجة للقيام بمهمات كثيرة . فان واجبنا انحصر في أن نعطى للمرضى جرعاتهم بنظام ،وأن نقوم بتلبية طلباتهم ،وأن نحتفظ بهم وبفراشهم في حالة نظافة تامة . ولقد اغتبطت كل الاغتباط بما رأيت في فتياني من النشاط في العمل وعدم الاكتراث بالمتاعب والبعد عن الخوف . وأما تقدير الشجاعة التي أبداها دكتور « جدفرى » ورجل محنك مثل « مدنجيت » فما لا يقوى قلمي على وصفه . وكم كانت الروح التي أبداها الفتيان نبيلة سامية .

ولقد شكرني كاتب البلدة على أني استعملت البيت الخالي كمستشفى . واعترف لي فوق ذلك بأن مجلس البلدة لم يكن لديه المؤهلات التي يمكنه بها أن يقاوم مثل هذه المفاجأة ، ولكنه مستعد لأن يقوم بكل المساعدة التي في قدرته . وكذلك كان شأن البلدية فانها لم تكد تستيقظ وتشعر بمسؤوليتها ، حتى أخذت تعمل ما في مستطاعها بكل الوسائل الممكنة .

وفى اليوم التالى وضعت البلدية تحت تصرفى مظلة ، واقترحت أن ينقل المرضى اليها . ولكن البلدية لم تقم بتنظيفها . فانها كانت مهملة وغير نظيفة . فقمنا بتنظيفها ، وحصلنا على بعض الأسرة من محسنى الهنود ، ونسقنا مستشفى مؤقتا . وأرسلت الينا البلدية ممرضة، ولكن دكتور « جدفرى » ظل يواصل العمل .

وكانت الممرضة سيدة رحيمة القلب ، فأخذت تعنى بالمرضى عناية الممرضات العارفات بالواجب ، ولكنا منعناها عن أن تمسهم ، حتى لا تنتقل العدوى إليها .

ومات عشرون عندما كنا فى المظلة . وفى هذه الآونة كانت البلدية مشغولة فى اتخاذ اجراآت أخرى . وكانت هنالك مصحة للامراض المعدية تبعد عن جوهانسبرج سبعةأميال تقريباً . فنقل الثلاثة الباقون إلى خيام بالقرب منها ، وعملت الترتيبات اللازمة لارسال الاصابات الجديدة اليها . وفى خلال بضعة أيام سمعنا أن الممرضة الرحيمة أصيبت بالمرض وقضت نحبها .

وكنت لما انتشر الوباء قدأرسلت إلى الجرائد مقالا ملتهباً . أتهم فيه البلدية بالاهمال وأحملها مسؤولية التغاضى عن القيام بواجبها نحو محلة الهنود بعد أن أصبحت من ممتلكاتها ، وأعزو اليها السبب فى انتشار الوباء . فكان من أثر هذا المقال أن انضم إلىّ مستر « هنرى بولاك »، كما كان سبباً فى صداقتى بالمحترم « يوسف دوك » .

الفصل الحادى عشر

« حتى هذه النهاية »

قلت فى فصل سابق إنى اعتدت أن أتناول وجباتى فى مطعم نباتى . وهنالك التقيت بمستر « البرت وست » . وكنا نلتقى هنالك كل مساء ثم نخرج للنزهة بعد العشاء . فقرأ مقالى فى الصحف عن تفشى الطاعون ، ولما لم يجدنى فى المطعم ساورته الوساوس فى أمرى .

وكنت والمشتغلون معى قد أخذنا نخفف من أغذيتنا منذ أن تفشى الوباء ، لأنى كنت من قبل قد اتبعت قاعدة التخفيف من الأغذية عند انتشار الأوبئة . وكان هذا سبباً فى أن أمتنع عن تناول وجبة المساء كلية . وكنت أعرف صاحب المطعم معرفة أكيدة ، فعرفته بأنى أعنى بأمر المصابين بالطاعون ، ولذلك أرغب فى أن أتفادى الاتصال بالمترددين على المطعم جهد المستطاع ، فأنتهى من وجبتى قبل أن يصل غيرى إلى المكان .

ولما لم يجدنى فى المطعم يومين أو ثلاثة على التوالى ، زارنى مستر « وست » فى منزلى ذات يوم فى الصباح الباكر ، وكنت أتهيأ للخروج للنزهة . ولما فتحت له الباب بادرنى بقوله ــ « لم أجدك فى المطعم

وخفت أن يكون قد أصابك مكروه · ففكرت فى أن أحضر منذ الصباح لأكون على ثقة من أن أجدك فى البيت · والآن تجدنى تحت أمرك . انى على استعداد أن أخدم المرضى . وأنت تعرف أنى ليس ورائى من يحتاج إلىّ » .

فعبرت له عن شكرى وامتنانى ومن عير أن أفكر لحظة واحدة أجبته ـ « انى سوف لا أشغلك كممرض · واذا لم تقع اصابات أخرى، فانا سوف نفرغ من عملنا فى التمريض بعد يوم أو اثنين · ولكن لدى مع هذا أمر آخر » ·

ـ « ما هو »

ـ « هل تستطيع أن تعنى بمطبعة « الرأى الهندى » فى دوربان » ؟

ـ « انك تعلم أن عندى مطبعة . والراجح أنى سأذهب ، ولكن هل تسمح أن أعطيك رأيى الأخير فى المساء ؟ فأبق الكلام فى هذا الأمر إلى نزهتنا فى الليل . »

فاغتبطت بهذا . وفى أثناء تريضنا فى المساء أخبرنى أنه عزم على الذهاب · ولم يكن المرتب بأمر ذى بال عنده ، لأن المال لم يكن من مغرياته . ولكن اتفقنا على أن يكون مرتبه عشرة جنيهات انجليزية وجزءاً من الربح · وفى اليوم التالى سافر متر « وست » الى دوربان مع بريدالمساء . ومنذ ذلك الوقت حتى الساعة التى فارقت فيها شواطئ جنوبى افريقية ظل مستر « وست » يشاطرنى الأفراح والأتراح ·

كان مستر « وست » من أسرة مهنتها الزراعة فى مدينة « لوث » ـ Louth ـ وكان تعليمه قاصراً على ما يمكن تحصيله من مدرسة عادية ، ولكن مدرسة التجارب علمته كثيراً ، كما استطاع أن يعلم نفسه بنفسه. ولقد عرفته فعرفت أنه كان دائما رجلا انجليزياً من ذلك الطابع النقى القلب المتزن الذى يخاف الله ويحب الانسانية .

وعلى الرغم من أنى والمشتغلين معى قد أعفينا من عملنا فى تمريض المصابين بالوباء ، فقد كان أمامنا كثير من الأعمال التى ترتبت على تفشى الوباء ، تتطلب الانجاز . وكنت قد فرغت من مسألة اهمال البلدية للحى الهندى . ولكن البلدية لم تعن من الأمر بأكثر مما كان يهمها من صحة السكان الاوروبيين . فأخذت تنثر الأموال نثراً وتبددها تبديداً لتقاوم الطاعون . وعلى الرغم من الحوادث الاجرامية التى عددتها وألقيت مسؤوليتها على البلدية من اهمال الهنود وانكار وجودهم كأحياء بشرية ، لم يسعنى إلا أن أشكر لها اهتمامها وجزعها على حماية أرواح الاوروبيين ، حتى انى لم أتوان عن أن أمد لها يدى بكل مساعدة ممكنة لتخفيف الحمل عنها فى مهمتها الشاقة . ولقد شعرت بأنى اذا أمسكت عن أن أمد يد المعاونة ، فان مهمة البلدية ستكون أكثر صعوبة مما لو عاونتها ، ولم تكن تتوانى من ناحيتها عن استعمال القوى المسلحة ، وتفعل أشنع ما يتصور من الحوادث . ولكن سلطات البلدية كانت مغتبطة بسلوك الهنود ، حتى ان كل الاعمال التى اتصلت

فيما بعد بمقاومة الطاعون قد سهلت وعبدت سبيلها · ولقد استعملت كل نفوذى لدى الهنود كى أجعلهم يخضعون لما تأمر به البلدية ويؤدون لها ما تحتاج اليه · وكان من الصعب على الهنود أن يذهبوا هذا المذهب حتى النهاية ، ولكنى أتذكر أنه لم يخالف واحد منهم نصيحة أبديتها .

ووضعت محلة الهنود تحت حراسة يقظة قوية ، حتى ان الدخول اليها والخروج منها كان مستحيلا بغير أمر خاص . غير أنى والمشتغلين معى كان ممنا ترخيص حر يبيح لنا الدخول والخروج كيفما نشاء . وكان الغرض من هذا أن يخلى السكان هذه المحلة ويعيشوا فى خيام تضرب لهم فى سهل متسع يبعد عن جوها نسبرج ثلاثة عشر ميلا لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم تحرق المحلة حتى تدمرها النار تدميراً . وكان ترتيب العيش فى الخيام، ومايقتضى لذلك، من حمل الزاد والحاجيات الأخرى يحتاج الى زمن ما ، وفى خلال هذا الزمن ، ضربت الحراسة على المحلة . ولكن الناس كانوا وجلين مشفقين . غير أن وجودى معهم كان يسليهم ويطمئنهم .

وأشعلت النيران فى المحلة بعد اخلائها مباشرة . ولهذا السبب وفى الوقت نفسه أحرقت البلدية كل الاخشاب التى كانت تملكها فى السوق ، وتحملت خسارة تبلغ عشرة آلاف من الجنيهات . أما السبب الذى حملها على حرق أخشابها، فلأنها اكتشفت بعض فئران ميتة بين

الأخشاب . وبهذا كان من الواجب أن تمضى البلدية فى تحمل نفقات باهظة ، ولـكنها بذلك نجحت فى التغلب على انتشار الطاعون وتنفست المدينة الصعداء مرة أخرى .

وكان الطاعون سبباً فى أن يعظم قدرى ويرتفع شـأنى بين الهنود الفقراء ، وازداد عملى وتضاعفت واجباتى فازدادت مسؤولياتى . كما كانت اتصالاتى الجديدة بالأوروبيين وازديادها توثيقاً، سبباً فى أن تتكاثر التزاماتى الأدبية تلقاء الجميع .

وفى ذلك الوقت تعرفت بمستر « هنرى بولاك » فى نفس المطعم النباتى الذى تعرفت فيه بمستر « وست » . فذات ليلة أرسل إلى شاب كان يأكل على مائدة بعيـدة عنى بطاقته، مبدياً رغبته فى أن يقابلنى . فسألته أن يشاركنى الجلوس على مائدتى ، ففعل .

— « أنا سكرتير تحرير « الناقد » — Critic — ولما قرأت مقالك فى الصحف عن تفشى الطاعون شعرت برغبـة ملحة فى أن أراك . وانى لسعيد بهذه الفرصة . »

ولقد ملـكنى مستر « بولاك » منـذ أول مقابلة اذ آنست فيـه الصراحة والاخلاص . ومنذ أول لقاء توثقت علاقتنا ، وظهر أن آراءنا ومبادئنا تتفق فى كل المسائل الجوهرية . كان محباً للحياة البسيطة ، وفيه كفاية نادرة تمـكنه من أن ينفذ كل الأشياء التى تلائم عقـله ويخرجها الى حيز العمل ، حتى ان بعض الانقلابات التى أحدثها فى حياته كانت

موقوتة وبنت ساعتها فضلا عن التطرف والمغالاة فيها .

وكانت « الرأى الهندى » تزيد أعباؤها ونفقاتها المالية يوما بعد يوم :
وأول تقرير تسلمته من مستر « وست » عن حالتها كان مزعجاً . قال
فى تقريره ـ « انى لا أنتظر من العمـل ذلك الربح الذى توقعته . بل
أخشى أن تنالنا خسارة . فالكتب ليست مرتبة ، وهنالك متأخرات
يجب تحصيلها ـ ولكن الانسان لايستطيع أن يقف لها على أول يعرف
أو آخر يوصف . وهنالك حاجة ماســة للقيام بعمارة واسعة النطاق فى
كل أطراف العمل . غير أن هذا كله لا يجب أن يزعجك . فانى
سأجتهد فى أن أصلح الأحوال على قدر ما أستطيع . وسأبقى سواء
أحصلت على ربح أم لم أحصل » .

وكان من الممكن أن يترك مستر « وست » العمل بمجرد أن رأى
أن أمله فى الربح مفقود ، ولم يكن لى وجه أن ألومه . والواقع أنه
كان من حقه أن يقاضينى ، لأنى أوهمتـه بأن العمل مربح من غير أن
يكون بين يدى برهان قاطع على ذلك . ولكنه لم يتفوه يوماً بكلمة
يشتم منها ريح الشكوى أو التململ . غير أنى شعرت بأن هذا الأمر جعل
مستر « وست » يظن بأنى غرير ساذج .

لما تلقيت كتاب مستر « وست » سافرت توآ إلى ناتال . وكنت
قد وثقت فى مستر « بولاك » الثقة كلها، وقد حضر ليودعنى على المحطة
وترك معى كتاباً لأقرأه خلال الطريق ، وأكد لى أنى سوف أشغف به .

أما هذا الكتاب فكان كتاب « رسكن » الذى عنوانه « حتى هذه النهاية » _ Unto This Last .

لم أستطع أن ألق الكتاب من يدى منذ فتحته . لقد اختلبنى . ومسافة السفر من جوها نسبرج إلى ناتال أربعة وعشرون ساعة . فوصل القطار إلى دوربان فى المساء . ولكن لم أستطع أن أنام تلك الليلة، فانى كنت قد صممت أن أغير خطتى فى الحياة مستهدياً بالضوء الذى استمدته من الكتاب . ولم أكن قد قرأت كتاباً من تأليف « رسكن » قبل ذلك الوقت . ففى حياتى الدراسية ندر أن قرأت كتابا خارجا عن المتون المدرسية ، وبعد أن دلفت الى الحياة العامة ، لم يكن لدى من وقت كاف للقراءة . وترتب على هذا أن معرفتى المستمدة من الكتب كانت ضئيلة . وأعتقد بأنى لم أفقد كثيراً من جراء هذا القيد الجبرى . بل على الضد من ذلك أعتقد أن قلة قراءتى جعلتنى أهضم ما قرأت هضما كافياً . والكتاب الوحيد الذى استطاع أن يحدث انقلابا سريعاً فى حياتى هو كتاب « رسكن » _ حتى هذه النهاية _ ولشغفى به ترجمته الى اللغة الكجراتية .

ويقينى أنى استكشفت فى كتاب « رسكن » هذا بعضاً من أعمق ما تأصل فى نفسى من المعتقدات ، وكان هذا هو السبب فى أن الكتاب اختلبنى واستولى على كل الاستيلاء ، وحملنى على أن أحدث انقلابا جوهريا فى حياتى . فان الشاعر هو ذلك الرجل الذى يستطيع أن يوقظ

الخير الكامن فى قلب الانسان . وليس كل الشعراء متساوين فى التأثير لأن كل انسان انما ينشأ نشأة تختلف مقاييسها عن نشأة غيره .

واليك الصورة التى فهمت بها تعاليم « رسكن ! »

أولا ــ ان خير الفرد مشمول فى خير المجموع

ثانياً ــ ان عمل المحامى له نفس القيمة التى لعمل الحلاق ، فى أن لكليهما الحق فى أن يعيش من عمله .

ثالثاً ــ أن حياة العمل ــ أى حياة الزارع والصانع اليدوى ــ هى الحياة الجديرة بالانسان العاقل .

وكنت أعرف التعليم الأول . أما الثانى فكنت أشعر به ، ولكن لا أتبينه تماماً . وأما الثالث فلم يطرأ لى على بال . غير أن « رسكن » جعله أمامى جليا واضحاً على قدر ما أعتقد بأن التعليمين الثانى والثالث انما يندمجان فى الاول .

واستيقظت مع الفجر وفى حرقة لأن أضع هذه التعاليم موضع التنفيذ .

وتناقشت مع مستر « وست » فيما كان من أثر كتاب « رسكن » فى نفسى وعقلى، واقترحت عليه أن تنقل « الرأى الهندى » الى مزرعة يعمل فيها الجميع وبعرق جبينهم يتقاضون أجوراً متساوية ويعنون بالمطبعة فى وقت الفراغ . ووافق مستر « وست » على مقترحى وحددنا ثلاثة جنيهات أجراً لكل انسان ، مع غض النظر عن اللون والقومية .

ولكن واجهتنا مشكلة. فهل يقبل العشرة العمال الذين يعملون فى المطبعة على أن ينتقلوا معها إلى مزرعة ويقنعون بأجر معين كهذا ؟ غير أننا انتهينا من التفكير فى هذا الأمر بأن الذى لا يقبل منهم الأجر المحدد يبقى أجره كما هو ، ويجتهد تدرجا أن يتقرب من الأغراض التى نرمى اليها حتى يصبح عضواً فى المستعمرة الجديدة ·

من بين الذين كانوا يعملون فى المطبعة « شجا نلال غاندي » أحد أبناء أعمامى . فأدليت اليه بمقترحى فى نفس الوقت الذى ناقشت فيه مستر « وست » . وكان له زوج وأولاد . ولكنه تعود منذ صغره أن يعمل معى ويطيعنى ، لثقته بى . فوافق من غير أن يناقش أو يسأل سؤالا . وظل فى كنفى منذ ذلك الحين . وكان معنا رجل ميكانيكى هو « غوفندسوامى » فقبل المقترح أيضاً . أما الباقون فلم يقبلوا المقترح ولكنهم صارحونى بأنهم يذهبون معى إلى حيث أذهب .

وأتذكر أنى لم أحتج الى أكثر من يومين لأفرغ من هذا الترتيب مع العمال . وفى الحال أعلنت عن شراء قطعة أرض تقع قريباً من احدى محطات سكة الحديد بالقرب من دوربان . فوصلنى عرض يتعلق بمزرعة تدعى « العنقاء » ـ phoenix ـ وذهبت وبصحبتى مستر « وست » لنعاينها ، وفى أسبوع اشتريت عشرين « أكراً » من الارض ، تحتوى على ينبوع جميل وقليل من شجر البرتقال والمانجو . وكان بجوارها مساحة تبلغ ثمانين « أكراً » فيها عدد أكبر من أشجار الثمار وبيت ريفى

متخرب · فاشترينا هذه المساحة أيضاً ، ودفعنا فى الاثنين ثمنا ألفا من الجنيهات الانجليزية .

وكان « بارسى رستومجى » عونى وساعدى فى كل ما يماثل هـذه المشاريع . ففتن بهذا العمل . ووضع تحت تصرفى أنقاض مظلة حديدية كبيرة وغيرها من مواد البناء · وساعدنى بعض النجارين الهنود الذين عملوا معى فى حرب البوير على اقامة مكان للمطبعة .

وبدأت أعمل كى أحمـل-أولئك الذين قدموا معى من الهنـد من الأقارب والأصدقاء ليعملوا فى جنوبى افريقية ، وكانوا مشغولين بأعمال مختلفة . على أنهم هبطوا تلك البـلاد ليبحثوا عن الثروة ، فـكان من أشق الأعمال أن أستغويهم ، ولـكن البعض وافق على الذهاب معى . وليس لى أن أسجل هنا من أسمائهم إلا اسم « ماجنلال غاندى » فانه وحـده بقى معى ، فى حين عاد الباقون إلى أعمالهم الأولى . أما « ماجنلال » فقد ترك عمله ليلتقى بدلوه مع دلوى ، وبكفايته وتضحيته واستماتته فى سبيل العمل ، يستحق أن يوضع فى الصف الأول مع الذين عاونونى فى هذه التجاريب الخلقية العنيفة ، فضـلا عن أنه كان صانعاً يدوياً من أمهر الصناع . وهو من هذه الناحية يجب أن يسجل اسمه فى رأس القائمة .

كونت مستعمرة العنقاء سنة ١٩٠٤ وعلى الرغم من العقبات الشديدة فان « الرأى الهندى » مازالت تصدر عن هذه المستعمرة حتى الآن ·

ولم يكن من الهين أن يصدر أول عـدد من الجريدة عن مستعمرة العنقاء ، واذا لم أ كن قد اتخذت احتياطين بعينهما، لتعذر اصدار العدد الأول هناك ، ولتركنا أمره بتاتا . فلم يكن لدى من رغبة فى أن تـكون لدينا آلة لادارة المطبعة ، وفـكرت أن ادارتها باليد أ كثر ملاءمة مع البيئة الجديدة ، كما عزمت على أن يكون كل العمـل الزراعى يدوياً . ولـكن خشية أن يكون هذا الأمر غير ممكن التنفيذ ، نقلنا معنا آلة لادارة المطبعة ، تدار بالبترول . غير أنى اقترحت على مستر « وست » أن نحتاط فنصطحب شيئا يمكن أن يدير المطبعة باليـد فى حالة ما اذا تعطلت الآلة عن العمل . فاشترى عجلة يمكن بها أن تدار المطبعة بقوة السواعد .

ولن أنسى ما حييت أول ليلة . فقد ربطنا الصحف المصفوفة بالحروف على نحاسة المطبعة ، ولـكن الآلة تعطلت عن الدوران . فاستدعينا من دوربان مهندساً ليصلح من شـأنها . فعمل ومستر « وست » كل ما استطاعا ، ولـكن بغير جدوى . وتولانا القلق جميعاً . فحضر الى مستر « وست » أخيراً وعيناه مغرورقتان بالدمع وقال لى ـ « ان الآلة سوف لا تدور ، وأخشى أن تتعطل الصحيفة عن الصدور فى ميعادها » .

فأجبته : « اذا كان الأمر كذلك فلا حيلة لنا . وكذلك لا فائدة من ذرف الدموع . ولـكن الفائدة فى أن نعمل كل ما يستطيع بشر أن

يعمله . فهل فكرت فى عجلة اليد ؟ » .

ـ « ولكن أين الرجال الذين يديرونها ؟ وليس فينا الكفاية للقيام بأعبائها . اننا نحتاج الى أربع رجال يتناوبون عليها ، ورجالنا متعبون حتى الاعياء » .

ولم تكن أعمال البناء فى المستعمرة قد تمت بعد ، وكان النجارون لايزالون معنا . ورأيتهم نياماً على الأرض فى حجرة المطبعة . فقلت له مشيراً اليهم ، « ألا يمكن أن ننتفع بهؤلاء النجارين ؟ انه ينبغى أن نقضى الليل فى العمل . وأظن أن هذه الوسيلة لاتزال فى متناولنا »

فأجابنى ، « أما أنا فلا أجسر على أن أوقظ النجارين ، فى حين أن رجالنا يكاد يصرعهم الانهاك » .

فأيقظت النجارين وطلبت معونتهم . فلم يحتاجوا الى ضغط ، وقالوا . « اذا لم نكن على استعداد لأن نؤدى مانستطيع فى وقت الحاجة وطلب العون ، فأية فائدة فينا ؟ انه عمل ليس شاقاً » . أما رجالنا فكانوا على استعداد للعمل .

ولقد ظهر الفرح على أسارير مستر « وست » ، وبدأ يغنى أغنية يحبها عندما بدأنا فى العمل . فناوبت النجارين ، وأخذ كل من الموجودين دوره على التوالى ، وظللنا نعمل حتى الساعة السابعة من الصباح . وكان لا يزال أمامنا عمل كثير ؛ فقلت لمستر « وست » انه من المستحسن

أن نوقظ المهندس ليرى ان كان من الممكن أن تدور الآلة، فاذا استطاع أن يديرها أمكننا أن نفرغ من عملنا فى الميعاد المناسب .

وأيقظه مستر « وست » ، فذهب تواً الى حجرة الآلة . وسرعان مادارت الآلة بمجرد أن جربت التجربة الأولى . وتعالت أصوات الفرح من جوانب المطبعة . ولكنى تساءلت ، كيف حدث هذا ؟ كيف ان كل ما صرفنا من جهد ذهب عبثاً وكيف تدور الآلة فى هـذا الصباح كأن لم يكن بها خلل ما ؟ فأجابنى مستر « وست » ــ من الصعب أن تعرف السبب . ان الآلات قد تسلك بعض الأحيان مثل سلوكنا ، فتحتاج إلى الراحة .

وانى لاشعر بحزن عميق كلما تذكرت أنى أسست مستعمرة العنقاء ولكن لم أستطع المقام فيهـا غير قليل . وكانت فكرتى الأساسية أن أصفى أعمالى القضائية تدرجا وأقيم بعد تصفيتها فى العنقاء فأحصل على معاشى بقوة ساعدى وعرق جبينى وأجنى سعادة العمل باسعاد العنقاء وأهلها . ولكن لم يشأ القدر أن يكون هذا . فقد دلتنى تجاربى على أن الانسان يفكر فى حين أن الله يدبر أموره . ولكنى وجدت بجانب هذا أنه حيثما كان الغرض هو البحث عن الحق ، فلا أهميـة اذن ولا تفكير فى أن تفشل المشروعات التى يفكر فيها المرء ، لأن النتيجة

مهما كانت ،فلن تـكون شراً ، بل وغالب ما تـكون أفضل مما نتوقع .
وهكذا كان . فان المتجه الذى اتجهت فيـه العنقاء ، والحوادث التى وقعت بعد تأسيسها لم تـكن شراً على اطلاق القول .

ومن أجل أن نجعل كل مقيم فى مستعمرة العنقاء يحصل على قوته بقوة ساعده ، قسمنا الأرض الواقعة حول بناء المطبعة أقساماً كلا منها ثلاث « أكرات » . ووقع نصيبى على قسم منها . وفى كل قسم منها بنينا بيتاً من الخشب قائما على أعواد من الحديد . وكانت رغبتنا أن نقيم أكواخاً من لبنات الطين أو بيوتاً من اللبنات المحروقة ، ولـكن اتضح لنا أن المشروع كثير النفقة بما لا يتوازن مع مواردنا ، فضلا عن أن كل انسان كان يرغب فى أن يستقر فى مكانه فى أقرب وقت ممكن .

ولما عدت الى جوهانسبرج أخبرت « بولاك » بكل ما فعلت ، وبكل الانقلابات التى تناوبت على أفكارى ومتجهاتى . فكان سروره عظيما عنـد ما عرف أن الـكتاب الذى أقرضنى اياه كان له هذه النتائج البعيدة . وسألنى فى شوق ـ « أليس من الممكن أن أشترك فى هذا المشروع الجديد » فأجبته قائلا ـ « بدون شك . انك تستطيع اذا أردت أن تشترك فى المستعمرة » فأجابنى ـ « انى على استعداد تام ، اذا تفضلت وقبلتنى » ـ واشترك معنا .

ولقد أسرنى بقوة عزيمته . وأنذر رئيسه بأن لديه شهراً واحـداً

سوف يترك بعـده العمل . ووصل بعدها الى العنقاء فى الميعاد الذى حدده . ولقد أسر قلوب الجميع بالفته وحسن معاشرته ، وسرعان ما أصبح عضواً محبوباً فى أسرة العنقاء .

ان البساطة عنصر أصيل فى طبيعته . ولذا وجد أن الحياة فى العنقاء ليست شيئاً جديداً عليه ، فسبح فيها سبح السمك فى الماء .



اقرأ كتاب الثورة العربية للأستاذ امين سعيد

الفصل الثانى عشر

ثورة الزولو

لم يمض زمن طويل على هذه الحوادث ، حتى تناقلت الجرائد خبر ثورة قام بها « الزولو » فى ناتال . ولم أكن أحمل أية ضغينة ضد الزولو ، فانهم لم يضروا هنديا مقيما بجنوبى افريقية ، رغماً عن أنه كانت تساورنى شكوك كثيرة فى أمر هذه الثورة . وكنت اذ ذاك أعتقد أن الامبراطورية البريطانية لم توجد فوق ظهر هذه الأرض إلا للعمل على خير الانسانية . ولقد حال شعورى المطلق بالولاء لها عن أن أتمنى أى ضرر يلحق بالامبراطورية . ولذا لم تكن أحقية الزولو فى الثورة أو عدم أحقيتهم مما يؤثر فى حكمى القاطع فى الامر . وكان فى ناتال قوة من المتطوعين معدة للدفاع ، وكان من حق السلطات أن تضم اليها من تشاء للعمل تحت لوائها . وقرأت أن هذه القوة عبئت بالفعل للقيام بقمع الثورة . ولما كنت أعتبر نفسى من رعايا حكومة ناتال ، وصلتى بها وثيقة قائمة على العطف عليها وحب الخير لها ، كتبت إلى الحاكم العام معبراً عن استعدادى إذا كانت هناك أية ضرورة لأن أكون فرقة اسعاف هندية . فأرسل إلى على الفور كتابا بالقبول . ومن حسن

الحظ انى كنت قد اتخذت كل الترتيبات الضرورية قبل أن أرسل خطابى اليه . وكنت قد عزمت ، إذا قبل عرضى ، أن أترك بيتى فى جوها نسبرج فيؤجر « بولاك » بيتاً أصغر وتذهب زوجى الى مستعمرة العنقاء . وكنت على الدوام سعيداً بأن أتلقى من زوجى كل عون ومساعدة فلم تخطىء القاعدة هذه المرة أيضاً ، ولم أتذكر أنها وقفت فى وجهى وحالت دون ارادتى فى مثل هذه الأحوال طيلة حياتى.
وبمجرد أن وصلنى كتاب الحاكم ، ذهبت الى دوربان وطلبت مساعدة رجال من الهنود . ولم يكن هناك من حاجة إلى عدد كبير ، وكنا فى النهاية أربعة وعشرين رجلا منهم أربعة من الكجراتيين غيرى . أما الباقون فكانوا أجراء من جنوبى افريقية انتهت عقودهم ، ماعدا واحداً كان من الباتيين الأحرار .

ولقد أراد طبيب الفرقة التى ذهبت لاخضاع الثورة أن يرفع من قدرى وأن يهون على مهمتى فعيننى طبقا للتقاليد فى رتبة حربية مؤقتة، وعين ثلاثة من الآخرين انتخبتهم فى رتب أقل من رتبتى . ولما وصلت ميدان الثورة لم أجد هناك أى دلالة تدل على أن هناك ثورة بمعنى الكلمة . ولم أر أى أثر للمقاومة . أما الذى جعل الاضطرابات تتطور إلى ما يسمى ثورة ،فيرجع إلى أن زعيما من زعماء الزولو نصح الى اتباعه بالامتناع عن دفع ضريبة جديدة فرضتها الحكومة ، واعتدى على جاويش من الجيش مضى الى منطقته ليجبيها . ومهما يكن من الأمر ،

فان عواطفى كانت من الزولو ، واغتبطت عندما وصلت الى رئاسة هيأة الجيش وأخبرت أن عملنا الأساسى سينحصر فى تمريض الجرحى من رجال الزولو . ولقد رحب بنا الضابط الطبيب المعهود له بالمستشفى الحربى . وقال لنا ان الأوروبيين يرفضون أن يقدموا على تمريض جرحى السود ،وان جراحهم أخذت تتعفن من الاهمال وعدم العناية،وأنه يكاد يفقد صبره على تلك الحال ، بل أضاف إلى ذلك أنه يعتقد أن مقدمنا نجدة إلهية لانقاذ هؤلاء المساكين ، وسرعان ما زودنا بالأربطة والمطهرات وغيرها واصطحبنا إلى المستشفى المؤقت . وابتهج الزوليون بمرآنا . غير أن الجنود البيض كانوا يطلون علينا من ثنايا القضبان الحديدية التى تفصلنا عنهم ويغروننا بأن لا نعنى بجراح الثوار ، فلما نرفض، يصبون على الزولو أنواع السباب والشتم . واستطعت بعد قليل ان اختلط بهؤلاء الجنود ، فكفوا عن التدخل فى شؤوننا وأقلعوا عن خطتهم .

ان الجرحى الذين عهد الينا بتمريضهم لم يجرحوا فى ساحة حرب . وكان جزء منهم فى الحقيقة أسرى قبض عليهم لمجرد الاشتباه فى سلوكهم . ولكن الجنرال أمر بجلدهم فجلدوا وأحدث الجلد فى أجسامهم جراحاً بليغة ، أخذت تتعفن من عدم العناية والاهمال . أما الآخرون فكانوا من الزولو الموالين للحكومة جرحوا خطأ فى أثناء اطلاق النار على الثوار ، ولذا أعطوا عصائب يعصبون بها جراحهم . وفضلا عن عملى هذا عهد الى بتركيب بعض العقاقير وصرف الأدوية للجنود البيض . وكان هذا

العمل سهلا هيناً على ، لأنى كنت قد مرنت عليه سنة كاملةفى المستشفى الصغير الذى أسسه دكتور « بوذ » . واختلطت من طريق عملى هذا بكثير من الأوروبيين . وكنا نعمل فى فرقة يطلب منها سرعة الانتقال من مكان الى مكان . وقد صدرت اليها التعليمات بأن تتوجه حيثما نخبر بأن هنالك وجهاً للخطر . وكنا نتنقل فى الغالب فرساناً لامشاة . وبمجرد أن يتحرك مخيمنا من مكانه يلزمنا أن نتقدم راجلين ومعنا النقالات نحملها على أكتافنا . وحدث مرتين أو ثلاث مرات ان اضطررنا أن نمشى على أقدامنا أربعين ميلا فى اليوم . ولكن حيثما ذهبنا ، هيأنا الله لعمل انسانى نقوم به وننجزه . وكنا نحمل الى المخيم فى نقالاتنا جرحى الزولوالموالين الذين كانوا يجرحون خطأونعنى بجراحهمونمرضهم

ولقد كانت ثورة الزولو مليئة بالتجاريب الجديدة فضلا عن انها زودتنى بمادة واسعة للتفكير . فان حرب البوير، على حدتها ، لم تظهرنى على شىء من فظائع الحروب بقدر ما أظهرتنى ثورةالزولو . انهذه الثورة لم تكن حرباً بالمعنى المفهوم ، بل كانت صيداً مادته الأرواح البشرية . ولم يكن هذا رأيى وحدى ، بل كان رأى الكثيرين من الانجليز الذى صدف أن احادثهم . ولئن يقرع أذنيك صبيحة كل يوم دوى الطلقات التى ينثرها الجنود على المحلات الآمنة فتنفجر وتنشر الموت والألم ، وأن تعيش فى وسط الذين ينتثر على مسيرهم الموت ، لامتحان قاس للاعصاب ، بل تجربة من أشنع ماتجرب فى حياتك . ولكنى ازدردت

الجرعة المريرة بصبر،وعلى الأخص عندما اقتصر عمل فرقتي على تمريض جرحى الزولو. ولولم نعن بهم لما عنى بهم أحد. فكان عملي هذا مما يريح ضميري ويرضي وجداني.

ولكن كان هنالك ماهو أكثر من هذا مما يحمل على التفكير والتأمل. وكانت بقعة قليلة السكان نادرة العمران. وبين التلال وفى خلال الوديان والأغوار، كانت تنتثر حظائر الزولو الودعاء الذين يقال فيهم « متوحشون » . وكلما كنت أمشي مصحوباً بجرحى أو منفرداً بنفسي فى تلك الوحدة الهادئة، أقع فريسة فكر عميق.

أخذت أتدبر متأملا ذلك المبدأ الديني الذى ندعوه « براهما شاريا » Brahmcharya ومحصله مراعاة العفة وضبط الشهوات، وما يمكن أن يقوم عليه من المضمونات، واستقرت معتقداتي فى غور أعمق من أغوار نفسي. ولم أكن قد حققت بعد مقدار الحاجة الى ضبط الشهوات والطهارة فى سبيل العمل على تحقيق الذات، ولكن ظهر لى بجلاء ان الذى يريد أن يخدم الانسانية بكل مافى روحه من قوة ،لايمكن أن يحقق غرضه بغير هذا. وثبت عندى فى ذلك الحين ان لدى فرصاً كثيرة أخرى أستطيع أن أؤدى فيها خدمات من هذا النوع، وانى ولا شك سوف أجد نفسي عاجزاً عن تأديتها اذا أنا ظللت مغموراً فى شهوات هذه الحياة ومسراتها وفى اعقاب الأطفال والقيام على تربيتهم. وعلى الجملة ثبت فى يقيني أنى لا أستطيع أن اعيش للناحيتين: ناحية الشهوة،

وناحية الروح . على انني ما كنت لأقدم على أن أقذف بنفسي فى أتون هذه المعركة النفسية الحامية لو ان زوجتي كانت ترتقب طفلا جديداً . فمن غير أن تركن الى قواعد « البراهما شاريا » تكون خدمة مصالح الأسرة غير متفقة مع مراعاة صالح الجماعة . أما اذا وعينا قواعدها ، فان مصالح الطرفين يمكن التوفيق بينها . وبعد أن فكرت فى كل هذا شعرت بقلق منشؤه الرغبة فى أن أعاهد نفسي على هذا عهداً نهائياً . وكان عزمى على ان أعقد هذا العهد مصدراً للابتهاج على صورة ما . وكذلك وجد التصور مجالا للترسل والامتداد ، ففتح أمامى أبواباً للعمل النافع لا تنتهى غاياته

فلما وصلت مستعمرة العنقاء فاتحت شاجنلال وما جنلال ومستر وست فى موضوع البراهماشارياً ، كما فاتحت غيرهم فأحبوا الفكرة وأبدوا قبولهم لضرورة اخذ العهد . ولكنهم لم يتوانوا عن أن يظهروا الصعوبات التى يتطلبها القيام بهذه المهمة . على أن بعضهم أخذ ينفذ بصلابة قواعد « البراهما شاريا » ، ونجح بعضهم على ما أعرف . وكنت قد وقعت مع الواقعين ، وقطعت على نفسي عهداً على أن ارعى قواعد «البراهما شاريا » وانفذها مدى الحياة . والواقع انى لم أكن قد عرفت مقدار مايتطلب القيام بهذا العمل من قوة وصبر لما فيه من سعة الأفق والعظمة التى تتضاءل امامها النفوس البشرية . وما أزال حتى اليوم وصعاب القيام بهذا العمل تصادفنى فى طريقى وتقف امامى وجهاً لوجه .

على أن قيمة العهد الذى قطعته كانت تزداد مع الزمن قدراً ومكانة من نفسي ، حتى لقد آمنت بأن الحياة بدون « البراهما شاريا » تكون تافهة ولاطعم لها ، بل وتكون أقرب الى الحيوانية · فان السوائم لا تعرف بطبعها معنى لضبط النفس . أما الانسان فهو انسان لأنه يستطيع أن يضبط نفسه . وكل ماظهر لى من كتبنا الدينية انه افراط ومغالاة فى امتداح «البراهما شاريا » ، يظهر لى الآن على الضد مما كنت أرى من قبل ، انه صحيح وقائم على التجاريب الحقة ، وهذا الأمر يزداد عندى وضوحاً يوماً بعد يوم .

رأيت ان البراهماشاريا ، بما فيها من تلك القوة الشاملة والفاعلية التامة ، لايمكن أن تكون مراعاتها عملا سهلا هيناً ، وانها ليست شيئاً يتعلق بالجسم وحده والاحتكام فيه . حقيقة ان البراهماشاريا تبدأ بالاحتكام فى الجسم وتقييده ، ولكنها لا تنتهى عند ذلك . ذلك لأن اكتمالها يقتضى حتما الحيلولة بين الانسان وبين الأفكار السيئة . فان «البراهما شاريا » اذا كان مؤمنا ، لا يمكن ان تساوره « الأحلام » فى ان يشبع نهمة الجسم ، وامامه قبل الوصول الى هذه الغاية ، سفر طويل لابد من أن يقطعه اليها .

أما عن نفسى فلا بد من أن أقول ان مراعاة البراهما شاريا فى تقييد الجسم وحده كانت صعبة قاسية . اما اليوم فانى استطيع أن أقول بحق انى ناج من هذا . ولكن امامى أن اصل الى الغاية التى اقدر عندها

ان أحتكم فى فكرى ، وهذا أمر جوهرى ولا أقصد بهذا انه تعوزنى العزيمة أو القوة أو الارادة . كلا . ولكن لأنى ماأزال فى حيرة من أمر ذلك النبع الخفى الذى تعزونى من طريقه الأفكار السيئة . وما أشك فى أن الانسان لديه المفتاح الذى يغلق به الباب الذى تلجه وتنفذ منه الى عقله الأفكار غير المرغوب فيها . ولكن لكل انسان ان يفتش عن ذلك المفتاح ويجده من غير أن يستمد العون من غيره . ولقد ترك لنا القديسون والعرافون تجاريبهم . ولكنهم مع الأسف لم يتركوا لنا وصفات محققة معصومة عن الزلل نصل من طريقها الى هذه الغاية . ذلك لأن الكمال والحرية انما يأتيان من طريق واحد ، هو طريق العناية الأزلية ، ولذا ترك لنا الذين أفنوا أعمارهم فى البحث وراء الله متوناً مقدسة مثل كتاب « رامانامما » Ramanama ملئت بوصف ما لاقوا فى الحياة من خشونة ، وما زاولوا فيها من تقشف وتصوف . ومن غير أن نسلم بأنفسنا الى عنايته القدسية ، فان الأحتكام الكامل فى أفكارنا وتقييدها لن يكون كاملا . وهذا هو المبدأ الأساسى الذى تضمنته كل الكتب المقدسة . وانى لاحقق صدقه فى كل لحظة من لحظات حياتى التى اجهد فيها نفسى وراء الفوز « بالبراهما شاريا »

ولقد أخذت الحوادث فى جوها نسبرج وجهة جعلتنى اتجه نحو تطهير نفسى تمهيداً للعمل فى سبيل الستيا جراها [١] Satyagraha

(١) معناها قوة الحق وقوة الروح وهو الاسم الذى أطلقه مهاتما غاندى على المقاومة السلبية

وانى لأرى الآن بوضوح ان كل الحوادث الجوهرية التى وقعت فى حياتى والتى ترتبت على هـذا العهد ، انما كانت تعدنى لأن أقطعه على نفسى وروحى . فان المبـدأ الذى دعوته « ستيا جراها » كان له وجود فعلى من قبل أن يوضع له هذا الاسم . وفى الحق انهذا المبدأ عندما « ولد » لم أكن أستطيع أن أقول « ماهو » . فقد كنا نستعمل فى اللغـة « الكجراتية » الاصطلاح الانجليزى « المقـاومة السـلبية » Passive Resistance لنعبر عنه أو لنصفه . وبينما كنت فى جمعية من الأوروبيين رأيت أن هذا الاصطلاح ضيق الحدود ولا يدل على حقيقة المبدأ دلالة صحيحة . فقد فرض انه سلاح الضعيف المغلوب على أمره ، وأنه قد يكون مدخولا بالكراهية ، أو انه فى النهاية قد يلجأ الى أعمال العنف . ولذا حللت كل هذه المدخولات وأبنت عن حقيقة الحركة التى يقوم بها الهنود . فكان من الضروري مع هذا أن ينحت الهنود كلمة تدل دلالة واضحة جلية على حقيقة المعركة التى يخوضون غمارها .

غير انى لم أستطع أن أقع على كلمة تطلق اسماً علماً على حقيقة المبدأ ، ولذلك لجأت الى الاعلان على صفحات « الرأى الهندى » وحـددت جائزة ينالها القـارىء الذى يقترح أقوم اصطلاح . وفى النهاية فاز « ماجنلال غاندى » بنحت كلـمة « ستيا جراها » وهى تتركب فى الهندية من مقطعين « سات : حق » و « اجراها : صلابة » وصاغها هكذا Sadagraha ونال الجائزة . غير انى حباً فى أن أجعلها أبين وأجلى

غيرتها الى Satyagraha « ستيا جراها » ، فدخلت فى اللغة الكجراتية لتدل على حقيقة المعركة التى يخوضها الهنود . أما تاريخ الستيا جراها فهو عبارة عن تاريخ حياتى فى جنوب افريقية ، وعلى الأخص فى تجاربى الشاقة فى التزام الصدق فى تلك القارة النائية .

. . .

لقد نجت زوجى ثلاث مرات من الموت بعد أن تصاب بمرض عضال . فى المرات الثلاث كان شفاؤها راجعاً الى أدوية منزلية عادية . وعند ما مرضت المرة الأولى كنا نخوض احدى معارك الستيا جراها ، أو كنا على وشك أن نخوض احداها . وكانت تصاب بنوبات من النزيف . ونصحنى أحد أصدقائى من الأطباء باجراء عملية جراحية ، وافقت هى على اجرائها بعد تردد قليل . وكنت تراها مهزولة نحيلة ، وكان الدكتور مضطراً لأن يجرى العملية بغير تخدير . ولكن العملية نجحت ، رغم انها تألمت كثيراً . ولكن المدهش انها احتملتها بشجاعة نادرة المثال . وقام الدكتور وزوجه على خدمتها فصرفا نحوها جهداً ممدوحاً وانتباها انسانياً . ووقع هذا فى دوربان ، وتفضل الدكتور فأجاز لى أن أذهب الى جوها نسبرج وأن لا أكون فى قلق على المريضة

وفى خلال أيام قلائل وصلنى خطاب جاء فيه ان « كستربای » أصبحت اسوأ مما كانت ، وانها ضعيفة لا تستطيع الجلوس فى فراشها ، وانها اصيبت مرة بالاغماء وفقدت الحواس ، وكان الدكتور على علم بأنه

لا يجوز له ان يعطيها خمراً أو لحامن غير موافقتى . فخاطبنى تليفونيا من جوها نسبرج لاوافق على أن تعطى مرق العجل. فأجبته بأنى لا استطيع أن أعطى تصريحاً كهذا ، ولـكنها إذا كانت فى حالة تستطيع معها ان تعبر عماتريد ،فمن الواجب أن يؤخذ رأيها ، وانها حرة فى أن تفعل كيف تريد . فقاطعنى الدكتور قائلا :

ـ « ولـكن ارفض ان أستطلع رأى المريضة فى الأمر . ان الواجب يدعوك للحضور بنفسك . فاذا لم تتركنى حراً فى أن أصف ما أشاء من أصناف الأغذية ، فانى لن أتحمل مسؤولية شفاء زوجك . »

فركبت القطار الى دوربان فى نفس اليوم ، وقابلت الدكتور فأخبرنى بهدوئه المعهود قائلا « انى أعطيت زوجك مرق العجل فى الوقت الذى كلمتك فيه تليفونيا » فاجبته :

ـ « انى اعد هذا ياحضرة الدكتور غشاً » . فأجابنى

« انى لا أرى أى وجه للغش فى أن أصف داوء أو غـذاء لمريض . وفى الحقيقة نعتبر نحن معاشر الأطباء أنه من الفضيلة أن نغش مرضانا أو أقاربهم فى سبيل أن ننقذ حياة بشرية » .

فحسرنى الألم ، ولـكنى ظللت هادئاً . وكان الطبيب رجلا خيراً وصديقاً شخصياً لى . وأصبح له ولزوجه فى عنقى قيد من الجميل الذى لا ينسى ، ولـكنى لم أك مستعداً لأن أقبل الخضوع لآرائه الطبية . فقلت له .

ـ « خبرني يا دكتور ماذا تقترح أن نعمل الآن . انى لا أستطيع أن أصرح بحال أن تعطى زوجى لحما أو مرق العجل ، ولو أدى ذلك الى موتها ، ما لم تقبل هي أن تتعاطى هذه الأشياء » . فكان جوابه

ـ « أنت حر فى أن تظل على فلسفتك . ولكنى أخبرك أنك مادمت تعهد إلى بعلاج زوجك ، فلا بد من أن يكون لى الخيار المطلق فى أن أعطيها ما أشاء . أما إذا كنت لا توافق على هذا ، فانى أسألك آسفاً أن تأخذها معك . فانى لا أستطيع أن أراها تموت تحت سقفى » .

ـ « هل تعنى بهذا أنه يجب على أن أنقلها الآن ؟ »

ـ « ومتى سألتك أن تنقلها ؟ انى انما أريد أن أترك حراً . فاذا فعلت، فانى وزوجى سوف نعمل لها كل مافى مستطاعنا من الممكنات ، ويمكنك أن تذهب لمباشرة عملك من غير أن يكون لديك أقل شاغل من ناحيتها . ولكنك اذا كنت لا تستطيع أن تفهم هذا الشيء البسيط ، فانك تضطرنى لأن أسألك أن تنقل زوجك من بيتى » .

وأظن أن أحد أبنائى كان معى ، فوافق على رأيى كل الموافقة ، وقال بأن « كستربای » لا يجب أن تعطى مرق العجل بأى حال من الأحوال . وبعد ذلك تكلمت مع زوجى . وفى الحق انها كانت ضعيفة ضعفاً يتعذر معه أخذ رأيها فى هذا الموضوع . ولكنى رأيت أن من واجبى ، وان كان مؤلما ، أن أفعل هذا . وأخبرتها عن كل ما كان

بينى وبين الدكتور . فأجابتنى جواباً قاطعاً قائلة :

ـ « انى لن أتعاطى مرق العجل · ان من أندر الأشياء فى هذه الدنيا أن يولد المرء فى هذه الحياة مكتمل الانسانية · وانى لأفضل أن أموت بين ذراعيك ، من أن أدنس جسمى بمثل هذه الدنايات » .

فتوسلت إليها ، ثم أخبرتها أنها ليست مجبرة على أن تتبع رأيى ومذهبى . ورويت لها أمثالا اجتزأتها من هندوكيين يأكلون اللحم ويتعاطون الخمر كدواء · ولكنها ظلت صلبة ولم تلنْ فقالت ـ « لا ،أتوسل اليك أن تنقلنى من هذا المكان فى الحال » .

فاغتبطت . وعزمت على أن أنقلها ، ولكن بشىء من الانفعال . ثم أخبرت الدكتور عن عزمها . فقال لى !

ـ « كم أنت صلب أيها الرجل . كان من الواجب عليك أن تحجم عن أن تناقشها فى الأمر وهى على هذه الحال . وانى لاصارحك بأن زوجك ليست فى حالة تسمح لها بالانتقال . انها لا تستطيع الوقوف على رجليها لحظة واحدة · وانى لن أعجب اذا سمعت أنها ماتت فى الطريق. ولكن إذا كنت لاتزال عازماً على هذا ، فأنت حر فى أن تفعل ما تشاء. وأزيد على هذا أنك اذا لم تعطها مرق العجل ، فانى لن أخاطر بأن أقبلها فى بيتى يوماً واحداً » .

على هذا صممنا على أن ننقلها ونترك بيت الدكتور تواً · وكانت المطر ينزل رذاذاً ، والمحطة بعيدة بعض الشىء . وكان علينا أن نأخذ القطار

من دوربان الى مستعمرة العنقاء ، فاذا نزلنا من المحطة القريبة منها ، بقى علينا أن نقطع ميلين ونصفا. ولا شك فى أنى كنت أخاطر مخاطرة عظيمة وأقذف بنفسي فى مأزق حرج ، ولكنى كنت كثير الثقة بالله ، فمضيت أتم واجبى . فأرسلت رسولا الى المستعمرة ليتقدمنا ومعه رسالة الى مستر « وست » لينتظرنا فى المحطة ومعه « هممك » ـ سرير من شبك ـ وزجاجة من اللبن الساخن وأخرى من الماء الحار وستة رجال ليحملوا زوجى . واستأجرت « عربة يد » لاستطيع أن أنقلها فى أول قطار يغادر دوربان ، وأركبتها القطار وهى على تلك الحال وسافرنا .

ولم تكن « كستربای » فى احتياج لمن يشجعها . بل على الضد أخذت تسكن من روعى قائلة « لن يحدث لى أى حادث ، فلا تهتم » وكانت كأنها قفص من الجلد والعظام، ولم تكن قد جرعت شيئاً من المغذيات لعدة أيام . ورصيف المحطة طويل ، وكان من المتعذر أن تدخل العربة داخل المحطة لتنقل المريضة فكان علينا أن نسير مسافة طويلة لنصل إلى عربة القطار . فحملتها بين ذراعى حتى أجلستها داخل العربة . ومن المحطة حملناها على « الهمك » وهنالك بدأت تسترد قواها بالعلاج المائى

_ Hydorathic Treatment _

بعد مضى يومين أو ثلاثة من هبوطنا مستعمرة العنقاء زارنا « سوامى » _ Swami _ من رجال الدين . وكان قد سمع بعنادنا فى

رفض نصيحة الدكتور ، فحضر اشفاقا علينا ليغرينا بأن نسمع نصيحة الطبيب . وكان ابناى الثانى والثالث ، مانيلال وردماس حاضرين لما زارنا ذلك الرجل . وأخـذ يغرينا بأنه لا ضرر من الوجهة الدينية اذا تعاطينا اللحم، مستنداً إلى نصوص دينية اقتطعها من شريعة « مانو » وهى أقدم الشرائع الهندية . فكرهت أن أتمشى معه فى هذه المناقشة فى حضرة زوجى، ولكنى تركته يقول ما يريد أمامها احتراماً له .

وكنت أعرف الآيات التى ذكرها عن « مانو » ولم أكن فى حاجة لأن تعاد على سمعى لكى أقتنع بجواز أكل اللحم . بل كنت أعرف أكثر مما يعرف من أن هنالك مدرسة دينية تعتقد أن هـذه الأقوال مكذوبة . وحتى بفرض أنهـا غير مكذوبة ، فانى قد أخذت نفسى بالحياة النباتية بصرف النظر عن النصوص الدينية ، كما أن ايمان « كسترباى » كان ثابتاً لا يتزعزع . على أن النصوص الدينية كانت لغزاً لا تعرفه ، ولكن تقاليد أسلافها كانت كافيـة عندها لأن تحل من قلبها فى منزلة الايمان . وأقسم الولدان بعقيدة أبيهما أن اجازة أكل اللحم لن تكون . وفى ذات اللحظة أجابته كسترباى قائلة :

ــ « سيدى السوامى . مهما يكن فى أقوالك من حق ، فان ذلك لن يحملنى على أن أطلب الشفاء بأكل اللحم . وانى لأتوسل اليـك أن لا تزعجنى بأكثر من هذا. ولك أن تناقش فى الأمر مع زوجى وولدى، أما أنا فقد صممت وانتهيت » .

وكنت قد قرأت فى بعض الـكتب التى تعالج الحيـاة النباتية ان الملح ليس عنصرا أساسيا فى غذاء الانسان، وانه على الضد من ذلك تفيد الأغذية الخالية من الملح أكثر مما تفيد الأغذية التى يضاف اليها الملح . ومن هنا استنتجت كيف أن أحد البرهماشاريين قد استفاد من الأغذية الخالية من الملح . وقرأت كذلك أن ضعاف الأجسام يجب أن يتفادوا تعاطى البقول،وكنت من المغرمين بها.وحدث اذ ذاك أن كستربای بعد أن أجريت لها العملية استراحت قليلا ولـكن النزيف عاودها ، وظهر المرض فى مظهر خبيث حاد،ولم يفد فيه العلاج المائى وحده . ولم تـكن واثقة فى أنواع العلاج التى أستعملها ، ولـكنها لم تـكن تعارضنى فى شىء . ولم تسألنى أن أستعين بالمساعدة الخارجية . فلما فشلت كل أنواع العلاج ، سألتها أن تتفادى أكل الملح والبقول . فلم تقبل بادىء الأمر ، على الرغم من توسلاتى اليها مستنداً على أقوال الثقاة فى هذا الموضوع. ولما بلغ منها الضيق ، جابهتنى بأنى أنا شخصياً لا أستطيع أن أقلع عن تعاطى هذه الأشياء لو طلب منى أن أقلع عنها . فتألمت وسررت فى آن واحد . سررت لأنى أعطيت الفرصة التى أظهر لها فيها حبى لها وعطفى عليها ، فقلت لها .

ـ « انك مخطئة ـ فانى اذا كنت مريضاً ونصحنى الطبيب بأن أتفادى هذه الاشياء أو غيرها فى أغذيتى ، فانى لا أتردد فى أن أعمل بمشورته . ولـكن اليك . فانى من غير أى مشورة طبيـة سأقلع عن

أ كل الملح والبقول سنة كاملة ، سواء أفعلت أنت ذلك أم لم تفعلى » .

فتولتها هزة عنيفة وقالت فى حزن عميق ـ « سامحنى . غفر الله لك . فقد كان من الواجب علىَّ أن لا أتحداك وأنا على علم بمن أنت . وانى أعدك بأن أقلع عن تعاطى هذه الأشياء . ولكن بحق السماء أن تحلل نفسك من هذا العهد . ان هذا كثير لا أستطيع احتماله » فأجبتها

ـ « ان فى اقلاعك عن تعاطى هذه الأشياء خيرا لك ، ولا شك عندى مطلقا من أنك سوف تستفيدين من ذلك وتتحسن صحتك . أما أنا فانى لن أحلل نفسى من عهد قطعته عليها جاداً لا هازلا . ومن المؤكد أنى سوف أستفيد بتنفيذه لأن كل القيود التى يقيد بها المرء نفسه مهما كانت بواعثها ، مما يعود عليه بالخير . ولذا أسألك أن تتركينى وشأنى . ان هذا سوف يكون امتحانا لنفسى ، وتشجيعا أدبيا لك على أن تنفذى عزمك . » فتركتنى وشأنى قائلة

ـ « انك عنيد جداً . انك لن تصغى لأحد » . وفاضت عيناها بدمع غزير .

انى أريد أن أعد هذا الحادث كمثال على قوة الستياجراها، وهو بحق من أحلى الذكريات التى أذكرها فى حياتى .

بعد هذا بدأت كسترباى تسترد صحتها بسرعة . ولا أستطيع أن أقول أ كان هذا راجعاً إلى الأغذية الخالية من الملح والبقول ، أم الى التغيرات الأخرى التى تترتب على مثل هذا العمل ، أو كان سببه

شدة مراسى فى متابعة قواعد محـدودة أتبعها فى حياتى ، أم إلى تأثير الصدمة العقلية التى استدعتها الحادثة . والواقع أنهـا أخذت تستعيد صحتها بسرعة ، ووقف النزيف، وكسبت أنا شهرة أخرى بأنى طبيب روحانى .

أما أنا فشعرت بأن حالتى أحسن باتباع النهج الجديد . ولا أتذكر أنى رغبت فى الأشـياء التى عاهدت نفسى على تركها . ومرت السنة فوجدت أن حواسى أشد خضوعا لارادتى مما كانت . وكانت التجربة سبباً فى أن يزداد ميلى الى ضبط النفس فمضيت أراعى ذلك النهج مدة طويلة بعد عودتى إلى الهند .

ولقد فرضت علاج الاقلاع عن الملح والبقول على كثير ممن كانوا يعملون معى فى جنوبى افريقية فأنتج العلاج نتائج باهرة . أما من الوجهة الطبية فالرأى ينقسم ، ولـكن أدبياً فانى مقتنع بأن كل انكار للذات مفيد للروح . ان الغـذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى يضبط نفسه يجب أن يختلف عن الغذاء الذى يعكف عليـه الرجل الذى ينشد الملذات . فهما يختلفان فى هذا اختلافهما فى بقية طرق الحياة .

ان الذين يتطلعون الى « البرهماشاريا » غالبـاً ما يهزمون ويفقدون القدرة على الوصول الى غايتهم ، باتخاذ طريق فى الحياة لا يعكف عليـه الا المـكبون على الملذات

*

الفصل الثالث عشر

تثقيف الروح

كان تثقيف الأولاد الروحى مهمة أشق بكثير من تربيتهم الجسمية وتثقيفهم العقلى . وقلما كنت ألجأ الى الكتب الدينية لابلغ الى ما أرى اليه من هذا التثقيف . وبالضرورة كنت أعتقد أن كل تلميذ لابد من أن يلم بعناصر دينه وأن يكون على معرفة بكتبه المقدسة . وعلى هذا أخذت أعد مثل هذه المعرفة والقنها لهم على قدر ما أستطيع . غير انى كنت أعتقد أن هذا جزء من التثقيف العقلى . وكنت قبل أن أشغل نفسى بتعليم الأطفال فى مزرعة تولستوى ـ بالقرب من جوها نسبرج وعلى غرار مستعمرة الفنعاء ـ قد تحققت أن تثقيف الروح شىء مستقل بذاته . ومن أجل أن تقوى الروح ، عليك أن تبنى الأخلاق وأن تكون لديك معرفة بالله وأن تعمل على تحقيق ذاتك . بل اوقن بأن ذلك أمر جوهرى فى تربية الأطفال . وأن كل ضروب التربية والتعليم من غير تثقيف الروح لغو بل عدم ، ان لم يكن ضررها أكبر من نفعها

وكيف اذن وعلى أية قاعدة القن الصغارهذا الثقيف الروحى ؟ أخذت أقرأ لهم فصولا من كتب فى الثقافة الأدبية. ولكن كان هذا بعيدا عن

ان يرضيني . ولما بدأت صلتي بهم تشتد وتقوى ، وجدت أن تثقيف الروح لن يكون من طريق الكتب ، وكما أن التربية الجسمية لاتكون الا من طريق مرانة الجسم ، وكما ان التثقيف العقلي لايكون الا بالمرانة العقلية ، كذلك التهذيب الروحي لن يكون الا بالمرانة الروحية . وهذا يتوقف أكثره على حياة المعلم وأخلاقه . وانه لمن السخافة أن أكون كذوبا ثم أحاول أن اعلم الأولاد الصدق . ومعلم جبان لن ينجح في أن يعلم الأولاد الشجاعة والاقدام ، ورجل بعيد عن القدرة على ضبط النفس ، لن يتمكن من أن يغرس في تلاميذه تقدير فضيلة ضبط النفس. فبدا لي أن أكون للأطفال ذكوراً واناثاً درسا عمليا ومثالا حيا ينفذ مايريد أن يغرس فيهم من الفضائل . ومن هنا انقلبت الآية فأصبح الأطفال لي معلمين علموني ضرورة أن أعيش خيراً مستقيما ، ولو من أجل أن أضرب لهم المثل الأعلا . وقد أقول ان مراعاة النظام والقيود التي قيدت بها نفسي في مزرعة تولستوى، ترجع في الغالب الى حكم هؤلاء الأطفال الذين كنت أقوم على تثقيفهم .

كان أحدهم وحشي الطبع ولايخضع لنظام ، كثير الكذب والخصام . وغلب عليه طبعه مرة فانفجر وتبذل . وغضبت واهتاجت أعصابي . ولم أكن قد تعودت على أن أفرض عقاباً على تلاميذي ، ولكن هذه المرة امتلكني الغضب . غير اني حاولت مع هذا أن اناقشه وأتفاهم معه ، فكان عنيداً ، وزاد تبذله بأن حاول أن يحتال على ويخدعني . فلم

أطق على هـذا صبراً وأمسكت بمسطرة كانت قريبة منى وضربته على ذراعه . بيد أنى انتفضت عندما ضربته ، وانى لعلى يقين من أنه لاحظ اضطرابى . ولا شك فى أن هـذا الحادث كان جديداً عليهم أجمعين . فصاح الولد وأخذ يسألنى الصفح والمغفرة ، ولا ريبة فى انه لم يصح لان الضربة آلمته الى هذا الحد ، بل كان قادراً على أن يكيل لى من نفس ما كلت له وأزيد ، فقـد كان ولداً مستوى الجسم قوى الاعصاب فى السابعة عشرة من عمره . ولـكن الحقيقة انه صاح مقدراً قيمة الألم الذى شعرت به ، لأنى اضطررت الى اللجوء الى هذه الوسيلة . ولم يعد هذا الولد بعد ذلك الى عنادى وعدم طاعتى . وما أزال حتى الآن أستغفر عن هذا العنف الذى اضطررت اليه مرغماً . وانى لأخشى أن أكون قد كشفت له فى ذلك اليوم عن وحشيتى الكامنة ، لا عن روحى الشفافة الوديعة .

كنت على الدوام من الذين يعارضون فى العقاب البدنى . وأتذكر مرة واحدة اضطررت فيها أن أعاقب أحد أبنائى عقاباً جسمانياً . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم لم أستطع أن أستبين ما اذا كنت محقا أو مخطئاً فى استعمال العصا . ومن الراجح ان ذلك كان مسلـكاً غير قويم ، لأنى وقعت عقاب العصا تحت تأثير الغضب والرغبة فى انزال العقاب ، ولو أن ذلك العقاب كان مجرد تعبير عن ضيق صدرى وغمى ، اذا لاعتبرت انه أمر مبرر . ولـكن الباعث فى الحال التى ذكرتها كان مزيجاً من

الاثنين . من الغضب والاسى معاً . وحفزنى هذا الحادث الى التفكير وعلمنى طريقا أمثل من هذا فى تقويم الأطفال . ولست أعرف الى أى حد تجدى هذه الطريقة المبتكرة فى الحادث الذى رويته . فان ذلك الفتى سرعان مانسى الحادث تماماً ، ولا أظن أن سلوكه تحسن تحسنا ظاهراً . غير ان الحادث جعلنى أفهم على وجه أكمل ماهو واجب المعلم ازاء تلاميذه . ولقد تكررت بعد ذلك الحودات التى أظهر فيها الفتيان سوء السلوك ، ولكنى لم ألجأ قط إلى العقاب البدنى . ولقد تحققت أثناء محاولتى أن أبث فى الأولاد والبنات مبادئ الثقافة الروحية ، انى استطعت أن أفهم شيئا بعد شىء قوة الروح وأثرها الاسمى .

كان فى مزرعة تولستوى ان وجه مستر كالنباخ نظرى إلى مشكلة لم أكن قد فكرت فيها من قبل . فقد سبق لى أن قلت ان بعض الفتيان فى المزرعة كانوا سيئى السلوك بعيدين عن مراعاة النظام والقواعد ، وكان من بينهم كسالى وبلداء . ومع هؤلاء أخذ يختلط أولادى الثلاثة كل يوم ، كما يختلط غيرهم من الأولاد الذين هم على شاكلتهم . وهذا جعل مستر كالنباخ فى قلق . ولكن انتباهه انصرف الى انه من عدم الكياسة ان أجعل أولادى يختلطون مع هؤلاء الفتيان . وقال لى يوماً :

« ان طريقتك فى أن تجعل أولادك يختلطون مع هؤلاء الفتيان لا أوافق عليها . ان أولادك سوف تنحط أخلاقهم من طريق هذه العشرة السيئة » . ولا أذكر ان هذا الاشكال الذى وجهنى إليه مستر

كالنباخ قد أقلقني حينذاك ، ولكني أذكر ما قلت :

« كيف أستطيع أن أفرق بين أولادي وبين هؤلاء الكسالى السيئ السلوك ؟ انى أعتبر نفسي مسؤولا بدرجة واحدة عن الجميع · وهؤلاء الفتيان لم يحضروا إلى هنا إلا لأنى دعوتهم للحضور . والحق الذى لا أخفيه عليك انهم وأولياء أمورهم يعتقدون انهم بحضورهم الى هنا قد ألزمونى بواجبات ومسئوليات . وأنا وأنت نعرف، أو كنا نعرف، انهم بحضورهم الى هنا سوف يحدثون لنا بعض المتاعب . كان يلزمنى أن يحضر هؤلاء الفتيان الى هنا ، وعلى هذا يجب على أولادى أن يخالطوهم ويعيشوا معهم . ومن المحقق أنك لاتريدنى أن أغرس فى روع أولادى انهم مفضلون على غيرهم . ولئن تغرس فى عقولهم فكرة أنهم أفضل من غيرهم،فان معناه أنك تقودهم فى طريق الغواية.واشتراكهم مع بقية الأولاد يعودهم النظام ، فضلا عن انهم سوف يقتدرون من هذه الطريق أن يميزوا لأنفسهم بين الخير والشر ، وبين الصالح والطالح . ولماذا لا نعتقد انه اذا كانت فيهم ناحية من الخير فسوف تترك أثرها الثابت فى غيرهم من الصبيان ؟ ومهما يكن من الأمر ، فانى لا أستطيع أن أتفادى اختلاط أولادى بهم ، واذا كان فى هذا بعض المخاطرة ، فواجبنا أن نصمد لها . »

فهز مستر كالنباخ رأسه . ولكن النتيجة لم تكن سيئة على ما رأيت فيما بعد . فان أولادى لم يصبحوا أسوأ مما كانوا · فضلا عن أنى رأيت

أنهم جنوا ثمرة ما . رأيت أنه اذا كان قد غرس فيهم الغرور شيئاً من شعورهم بالأفضلية فان هـذا قد محى أثره ، وتعلموا أن يختلطوا مع كل الأولاد من غير مراعاة لميولهم أو نزعاتهم . رأيت أنهم مرنوا وتعودوا النظام . وهذه التجربة وأشباهها علمتنى أنه اذا نشأ أولاد خيرون مع أولاد شريرين واختلطوا بهم ، فان الخيرين لن يفقدوا شيئاً من نزعتهم، على شرط أن تقوم التجربة تحت أعين آبائهم وأولياء أمورهم .

ولا يستتبع ذلك ضرورة أن الأولاد الذين ينشأون مختلطين يكون اختلاطهم حافظا لهم من الغواية أو عدوى الأخلاق . والحق أنه عندما يختلط الصبيان والبنات على اختـلاف نشأتهم ويتعلمون فى صعيد واحد ، فان الآباء والمعلمين يواجهون من تلك الحال تجربة من أقسى التجاريب . لأن الواجب يقضى عليهم أن يكونوا دائماً على حـذر وانتباه .

أخذت أتبين شيئاً بعد شيء مقدار الصعوبات التى تواجه الانسان اذ يعمد أن يربى ويعلم صبياناً وبنات معاً على طريقة مثلى . فاذا كنت ذلك الرجل الذى يعهد اليه بتنشئتهم أو أنى كنت من أولياء أمورهم ، اذن لأخذت أمتحن قلوبهم ، ولساهمت معهم فى المسرات والأحزان ولساعدتهم فى حل المشكلات التى تعرض لهم ، ولا تبعت معهم السبيل الأقوم فى أن أستشف آمالهم الفتية وأشاركهم فيها . حدث عنـد ما كنت فى جوها نسبرج أن وصلتنى أخبار سقوط اثنين من أعضاء المدرسة

سقوطا أدبياً . وان أخباراً تصلنى عن سقوط رجال يمارسون « الستياجراها » وهم يجوبون معركتها لن تصدمنى أو تزعجنى . ولكن هذا الخبر انقض على رأسى انقضاض صاعقة غير منتظرة . وفى نفس اليوم أخذت القطار إلى العنقاء . وصمم مستر كالنباخ على أن يرافقنى فقد لاحظ اضطرابى وحزنى . ولم يشأ أن يتركنى أذهب بمفردى لأنه هو الذى حمل إلى تلك الأخبار التى اهتاجتنى وأحزنتنى . وبينما أنا فى الطريق استنارت بصيرتى فرسمت الخطة التى أتبعها . شعرت بأنه اما أن يكون المعلم أو يكون ولى الأمر ، مسؤولا الى درجة ما عن سقوط هذا التلميذ . وفى الحال تحددت مسؤوليتى ازاء هذا الحادث تحديداً وضح لى كأنه الصبح الأبلج . وكانت زوجتى قد حذرتنى ، ولكن لما كان طبعى يميل الى التسليم ويأنف من المحاذرة ، لم أحفل بتحذيرها . وكذلك شعرت بأن اللذين ارتكبا هذه الخطيئة قد يحققان شيئاً من حزنى وألمى ومقدار ما فى عملهما من شناعة اذا أنا فرضت على نفسى عقاباً أدبياً أستغفر لهما به عن ذنبهما . وسرعان ما نفذت . فنذرت صوم تسعة أيام وعهداً بأن لا أتعاطى الا وجبة واحدة أربعة أشهر ونصفا . واجتهد مستر كالبناخ فى أن يجعلنى أقلع عن عزمى ، ولكن ذهبت توسلاته سدى . وفى النهاية سلم بتنفيذ هذه الكفارة ، ولكنه لم يسلم بها الا ليشاركنى فيها . فلم أستطع أن أقاوم ارادته الحية وعطفه الحار .

بعد أن عقدت عزمى هذا شعرت بأن عبئا ثقيلا أزيح عن عقلى ،

وأحسست بأنى راض مستريح الضمير الى حد بعيد ، ولطف عضبى على المجرمين ، وحل محله احساس بالعطف والشفقة عليهما . وعلى هذه الحالة النفسية وصلت مستعمرة القنعاء . وقمت بابحاث أخرى وفحصت الأمر وعرفت بعض التفاصيل التى كنت فى حاجة الى معرفتها . غير ان كفارتى آلمت كل انسان، ولكنها طهرت الجو وصفته من الأكدار. وأخذ كل انسان يشعر بمقدار البشاعة التى تنطوى عليها الخطيئة ، كما ان الرابطة التى كانت تربطنى بالأولاد وبالبنات أصبحت أقوى وأصل . ولقد وقع بعد ذلك بقليل حادث له اتصال بهذه المناسبة ، أرغمنى على أن اكفر عنه بصوم دام أربعة عشر يوماً ، فكانت النتيجة أعظم بكثير مما كنت أنتظر .

وليس من غرضى أن أستنتج من هـذه الحوادث أنه على المعلم أن يفرض على نفسه صوماً لمدة تطول أم تقصر تكفيراً عن ذنوب تلاميذه. ولكنى أحكم بأن هنالك بعض حوادث تستدعى اللجوء الى هذا الدواء القاسى العنيف . ان هذا النهج ينبىء بدياً بنفوذ البصيرة وقوة الروح . وحينما يحدث أن يفقد الحب والعطف بين المعلم والتلميذ ، أو ان لاتمس خطيئة التلميذ أعماق المعلم النفسية ، أو حينما يفقد الاحترام بينهما ، فانى أعتقد ان الصوم لايكون له من محل ، وربما كان ضرراً بالغاً . وعلى الرغم من أن تساورنى الشكوك فى ما يحتمل أن يكون من نتائج الصوم فى مثل هذه الحالات ، فانى لاأشك فى أن المعلم انما يحمل مسؤولية

كبرى تلقاء الخطايا التى يقع فيها تلاميذه .

ان تنفيذنا لأول كفارة لم يكن صعباً علينا . ولم أشعر بأنى فى حاجة لأن أعطل شيئاً من أعمالى العادية ، ولى أن أذكر أنى كنت فى ذلك الوقت أعيش على الفواكه الصرفة . أما الصيام الثانى الذى فرضته كفارة على نفسى،فقد شعرت خلاله بكثير من التعب فى نصفه الأخير. والسبب فى هـذا أنى لم أكن قد فقهت على صورة بينـة قيمة « الرامانا ما » وأثرها ، فكانت قدرتى على احتمال المشقات أقل مما هى الآن . وفوق ذلك فانى لم أكن أعرف الطريقة العملية التى يجب أن تتبع فى الصوم وعلى الأخص ضرورة تعاطى كميات كبيرة من الماء ، مهما شعر الانسان مع تعاطيها من الغثيان وسوء الطعم . ولم أشرب أثناء صيامى الثانى الا قليلا من الماء، فكان كريه الطعم، وكنت أشـعر مع تعاطيه بغثيان . وبدأ مريئي يجف وأحس فيه بضعف ظاهر ، وفى خلال الأيام الاخيرة لم أستطع الـكلام الا بصوت خافت جداً . وعلى الرغم من هذا كنت أؤدي أعمالى بطريق الاملاء عندما أحتاج إلى كتابة شيء . فلما اعتدت أن يقرأ لى بانتظام مقاطع من « الرامانا ما » وغيرها من الـكتب المقدسة ، بدأت أشعر بأن عنـدى من القوة ما يكفى أن أناقش وأبدى رأيى فى كل المسائل المستعجلة .

لقد وقعت لى فى حياتى حوادث كثيرة جعلتنى أحتك بكثير من الناس وبعدد عديد من الجماعات ، فلم أشعر فى خلال كل التجاريب التى

وقعت لى معهم أنى أشعر بأقل فارق بينهم سواء أ كانوا أقارب أم أباعد، من قومى أم أجانب ، بيضاً أو من ذوى الألوان ، هندوكيين أم من غيرهم من الطوائف ذوى العقائد الاخرى ، مسلمين أو فارسيين أو نصارى أو يهود . وأقول موقناً بأن قلبي لم يتسع يوماً ما فى حياتى للشعور بمثل هذه الفروق. على انى لا أدعى أن هذه فضيلة خاصة بى، لأنها كانت جزءا من طبعى وقسما من فطرتى ، ولم تكن نتيجة مرانة عكفت عليها أو غرض سعيت اليه ، على الضد مما كان شأنى فى مراعاة « الاهمسا » (عدم العنف) والبراهما شاريا (العزوبة) وغيرهما من الفضائل العليا . فان هذه فضائل مرنت عليها وا كتسبتها ا كتساباً

ولما كنت أشتغل بالمحاماة ، كان كتبة مكتبى يقيمون معى ، ومن بينهم هندوكيون ونصارى . وانى لاذكر انى كنت أعاملهم دائماً كما لو كانوا من أهلى وذوى قرابتى ، بل كنت أتصرف معهم كما لو كانوا من أسرتى ، وكثيراً ما كنت أختلف وأعارك زوجى اذا هى حاولت أن تقف فى طريق معاملتى اياهم على هذا الاعتبار . وكان أحدهم نصرانياً منحدرا من سلالة من الانجاس Panchawa

كانت حجرات المنزل مشيدة على الطريقة الغربية ، وليس لها منافذ الى الخارج مباشرة . وكانت كل حجرة مهيأة بآنية الغسيل والأدوات الاخرى. وعلى الرغم من أنى كنت أعهد بنظافة هذه الأشياء الى خادم، كنت دائماً الاحظها بنفسى أوتلاحظها زوجى . وكان الكتبة يقومون

بتنظيف أدواتهم بأنفسهم لأنهم كانوا يعتبرون البيت بيتهم . ولكن الكاتب النصرانى كان جديداً فى العمل،وكان من واجبنا القيام بملاحظة حجرته . وكانت زوجى تلاحظ حجرات الآخرين ، غير أنها كانت ترى أن مدى قيامها بمثل هذه الواجبات تقف عند الحد الذى تتكلف فيه بملاحظة أدوات شخص من الأنجاس، فاختلفنا . ولم تكن تحتمل أن ترانى أعنى بتنظيفها ، فى حين أنها تأنف أن تقوم هى بهذا العمل . وانى ما أزال أذكر حتى اليوم صورتها وهى تحجدنى بنظراتها، وقد احمرت عيناها من الغضب وتساقطت منهما الدموع ، وقد أخذت تهبط السلم وفى يدها الطسوت . ولكنى كنت زوجاً قاسياً فى ذلك الوقت ، وكنت أعتبر أنى معلمها ومثقفها ، فأخذت أوذيها وأولمها من طريق حبى لها . ولا شك فى أنى كنت بعيداً عن أن أقنع بأن أراها تحمل الطسوت فى يديها . بل كنت أريد أن تقوم بهذا العمل مغتبطة مسرورة . فقلت لها رافعاً صوتى ـ « انى لا أستطيع أن أرى مثل هذه الترهات فى منزلى » .

ولقد اخترقت هذه الكلمات قلبها كما لو كانت سهماً دامياً، فأجابتنى فى غضب ـ « دع بيتك لك اذن واتركنى أذهب » . فنسيت فى تلك البرهة نفسى،وجفت من روحى احساسات العطف والشفقة،وأمسكت بيدها وسحبت المرأة المسكينة نحو الباب الخارجى الذى كان يقع قبالة

السلم ، وعالجت فتحه لأقذف بها إلى الخارج . وكانت الدموع تنهمر من عينيها غزيرة كثيرة ، والتفتت إلىّ قائلة ـ « ألا تشعر بخجل ؟ هل لزام عليك أن تنسى نفسك الى هذا الحد ؟ إلى أين أذهب؟ ليس لى أب ولا أم ولا أقارب فى هذا الثغر . ولأنى زوجتك يخيل إليك أن علىّ أن أحتمل اهاناتك ، ورذائلك . فثب الى نفسك بحق السماء واغلق الباب . ووفر علينا أن نظهر أمام الناس بهذا المظهر » .

فتظاهرت بالشجاعة ، ولكن الخجل كان قد ملكنى وغلبنى ، فأقفلت الباب . واذا كانت زوجى لم تستطع تركى ، فانى لم أكن لأستطيع تركها . ولقد كان لنا كثير من المشاحنات ، غير أنها كانت تنتهى بسلام . ولا أنكر أن زوجى بما كانت تظهر من القدرة على الاحتمال ومعالجة المكاره ، كانت دائماً تنتصر علىّ .

انى اليوم فى مركز أستطيع فيه أن أروى هذه الحادثة بشىء من التفصيل، لأنها انما وقعت فى عهد تحللت أنا من قيوده تماماً، وخرجت من حمأته لحسن حظى . انى لم أعد ذلك الزوج الأعمى المتشامخ ، ولم أعد معلمها ومثقفها، وفى استطاعتها اليوم أن تسقينى بكأس أشد مرارة من الكأس الذى سقيتها به . لقد أصبحنا صديقين مجربين ، فلا ينظر أحدنا لصاحبه باعتباره موضعاً للشهوة . لقد خدمتنى ومرضتنى أثناء مرضي باخلاص تام ، من غير أن تفكر فى أن أكافئها بشىء تلقاء اخلاصها .

وليس لأحد أن يستخلص من كل الرواية التى أرويها عن ذكريات أعتقد أنها مقدسة،أننا زوجين متماثلين أو أن بيننا توافق فى الصفات التى تقود كلا منا فى الحياة . على أن زوجى لا تعرف ان كان لها فى الحياة غايات عليا غير الغايات التى أتطلع اليها . غير أن بعض أعمالى حتى اليوم لا تحوز موافقتها ورضاها . وبرغم هذا فاننا قلما نتناقش فيها ، لأنى لا أرى خيراً فى أن نتناقش . ذلك لأنها لم تتعلم . فلا أبواها عنيا بذلك ولا أنا عنيت به عند ما كان الواجب يدعونى الى ذلك . ولكن المراحم العلوية زودتها بصفة عليا تشترك معها فيها كل زوجة هندوكية . فانها سواء باراداتها أم رغما عنها ، وسواء أبوعيها أو بعقلها الباطن ، كانت تتبع خطواتى ، ولم تقف يوماً واحداً فى وجهى لتحول بينى وبين اتباع خطة فى الحياة أضبط فيها نفسى الضبط الذى أريد . ولذلك ترى أنه على الرغم من أن بيننا فرقا كبيراً من حيث العقلية ، فانى كنت أشعر دائما أن حياتنا حياة قناعة ورضاً وسعادة وضرب الى الامام

الفصل الرابع عشر

الستيا جراها فى ناتال

وقعت حادثة اضطررنا معها الى تطبيق مبدأ الستياجراها فى ناتال عقب مغادرة مستر « جوكهال » ــ Gokhale ــ لجنوب افريقية [1] . وظن « جوكهال » ان ضريبة الثلاثة جنيهات سوف تلغى فى بحر سنة وان القانون بالغائها سوف يعرض على برلمان اتحاد جنوب افريقية فى الدورة المقبلة . ولــكن على الضد من ذلك صرح جنرال « سمطس » من فوق منصة البرلمان ان حكومة الاتحاد لاتستطيع أن تتقــدم بقانون يرمى الى الغاء هــذه الضريبة مادام الأوروبيون فى جنوبى إفريقيــة يعارضون فى الغائها . ولم يكن فى هذا القول ظل من الحقيقة . ذلك لأن الأعضاء الذين كانوا يمثلون ناتال لم يكن لديهم من القوة ما يكفى للتأثير فى الأعضاء

(١) مستر « جوكهال » محام وزعيم هندى حضر الى جنوب افريقية ليفاوض الحكومة فى رفع ضريبة جائرة فرضت على كل هنــدى من الأجراء ينتهى عقده ويصبح حراً فى عمله وقدرها ثلاثة جنيهات على كل شخص رجل أو امرأة أوطفل. وكان الغرض من هــذه الضريبة أن يضطروا للعودة الى العمل بالعقود ، وفي هذه الحالة ترفع عنهم الضريبة . وقد غادر « جوكهال » جنوب افريقية وهو يعتقد ان هذه الضريبة ستلغى .

الذين يمثلون أربع الولايات معاً . ومن ناحية أخرى كان الواجب يدعو جنرال « سمطس » أن يتقدم بمشروع القانون عن الوزارة الى البرلمان ويترك الأمر تجرى به الظروف بما يقدر لها . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وزودنا فى الوقت نفسه بفرصة كنا نترقبها تضمنت كل الأسباب المغرية على أن نعلن على الحكومة «الحرب» . ولقد اعتمدنا فى اعلان الحرب على سببين . الأول أننا اذا فرض وأعلنت الحكومة خلال المعركة عهداً جديداً ثم أخذت تراوغ لسحبه ، فاننا لا نخسر شيئا بأن نتابع الجلادحتى ننال بغيتيا بالغاء القانون . والثانى : ان تحلل الحكومة من عهد قطعته لزعيم مثل «جوكهال» هبط جنوب افريقية بصفته ممثلا للهند ، لايعتبر اهانة شخصية لهفقط ، بل يعتبر سبا علنياً للهند جمعاء وسخرية بها ، ولذا لا يمكن أن نغضي عنه ونهمله .

وأصبح من المستحيل علينا أن نغضى عن اهانة تلحق بوطننا ، ولذا دب فينا الشعور بأن على الذين يقومون بحركة الستيا جراها أن يدخلوا ضريبة ثلاثة الجنيهات فى برنامجهم . وما دامت هذه الضريبة قد دخلت ضمن الأغراض التى نسعى اليها من وراء المعركة ، فان الاجراء ذوى العقود لا بد ان ينضووا تحت لواء « الستيا جراهيين » ويشتركوا فى الحركة بقلوبهم . ولا ينسى القارئ ان هذه الفئة ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن الاشتراك فى الجهاد . ولا شك فى ان هذا التوسع الذى أصاب سياستنا قد زاد المسؤولية التى نشعر بها من جهة ،

وفتح أمامنا ميداناً جديداً نحصل فيه على متطوعين يؤمنون بمبدئنا من جهة أخرى .

وحتى ذلك الحين لم تكن كلمة « الستيا جراها » من الأشياء التى تجرى على ألسنة الأجراء ذوى العقود ، كما انهم لم يكونوا قد تعلموا كيف ينفذونها من طريق عملى أو يشتركون فيها . ولما كان أكثرهم أميين ، لم يطلعوا على ما كان ينشر فى جريدة «الرأى الهندى» أو غيرها من الصحف . غير انى مع هذا وجدت ان هؤلاء المساكين كانوا يرقبون المعركة عن كثب ، وكانوا يفهمون طرفا منها ، فى حين أن بعضهم كثيراً ما أبدى أسفه لعدم قدرته على الاشتراك فيها والانتظام فى صفوفها . ولكن لما كسر وزراء حكومة الاتحاد كلمتهم ونقضوا عهدهم ، ودخلت ضريبة ثلاثة الجنيهات ضمن برنامجنا ، خيل الى أن الجميع سوف ينضوون تحت لوائنا .

وكتبت الى «جوكهال» انبئه بخبر النكوص عن العهد الذى عاهده عليه وزراء حكومة الاتحاد ، فكان ألمه بالغاً وأسفه شديداً . ولكنى عرفته بأن يطمئن للحالة وأن لايقلق علينا ، وأكدت له اننا سوف نحارب حتى الموت واننا سوف ننتزع من حكومة الترنسفال قانوناً بالغاء الضريبة . وعلى هذا انثنيت عن عزمى الذى كنت عزمته على الرجوع الى الهند فى خلال عام ، وأصبح من المستحيل على أن أعرف متى أعود اليها . وكان « جوكهال » رجل حقائق لا رجل نظريات . فكتب الى

لكى أطلعه على أقصى وأقل ماعكن أن نجند من رجالنا فى جيش السلام، مع كشف مفصل بأسمائهم . وعلى قدر ما أستطيع أن أتذكر الآن أرسلت اليه كشفا يتضمن خمسة وستين أو ستة وستين اسماً كالحد الأقصى وستة عشر كالحد الأدنى ، وأخبرته اننى لن أنتظر أية مساعدة تأتى من ناحية الهند للقيام بمساعدة مثل هذا العدد الضئيل .

وبينما كنا نعد المعدات اللازمة لنقوم بالمعركة ، وقع حادث جديد زاد فى آلامنا وأمض نفوسنا ، ولكنه فتح باب العمل حتى للنساء كى يشتركن فى العمل ويخضن معنا المعركة ، على ان بعض المقدمات منهن كن قد وعدن بالاشتراك فى الحرب ، حتى ان الستيا جراهيين عندما سجنوا لانهم مارسوا بيع سلعهم من غير أن يكون معهم ترخيص ، عبر نساؤهم عن رغبتهن فى أن يحذون حذو الرجال . ولكننا لم نوافق على أن نرسل النساء الى السجون فى بلاد أجنبية .

ومن غير أن يستبين أحد منا أى شىء ، كان الله يعد لنا أسباب الانتصار ، فدفع الاوروبيين الى الظلم حتى ظهر جلياً واضحاً ، وحدث مالم يدر فى روع أحد أن يحدث .

وفد على جنوب افريقية عدد عديد من الرجال المتزوجين من الهند ، بينما تزوج بعض الهنود فى جنوب افريقية . وليس فى الهند قانون يحتم تسجيل الزواج العادى، ويستعاض عن تسجيل عقود الزواج بالاحتفالات الدينية التى تعطى العقد صبغته القانونية . فالواجب اذن يقضى بأن تحترم

هذه العادة فى جنوب إفريقية . وبالرغم من أنها عادة محترمة فان الهنود نزلوا جنوب افريقية منذ أربعين سنة (قبل سنة ١٩١٣) وشرعية عقود الزواج التى عقدوها طوال هذه المدة لم تكن موضع مناقشة أو حوار يوماً من الأيام . ولكن حدث فى ذلك الوقت أن نظرت قضية أمام القاضى « سيرل » Searle رئيس محكمة مقاطعة الكاب العليا ، وأصدر فيها حكماً بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩١٣ قضى فيه بأن كل زواج عقد فى جنوب افريقية يكون خارجاً عن حدود الزواج الشرعى، مالم يكن قد عقد على مقتضى المراسيم النصرانية وسجل أمام مسجل عقود الزواج .

ولقد قضى هذا الحكم المزعج بجرة قلم واحدة على كل زواج عقد فى جنوب افريقية على مقتضى المراسيم الهندوكية والاسلامية والزرادشتية . وأصبح كل الزوجات الهنديات بمقتضى هذا الحكم لسن زوجات شرعيات لأزواج شرعيين ، ونزلوا الى مرتبة الجوارى والاماء ، بينما فقد أولادهم الحق فى أن يرثوا ما يملك آباؤهم، فأصبحنا رجالا ونساء فى موقف حرج لا يمكن احتمال ما يترتب عليه من النتائج ، وحزت هذه السخرية فى قلوب الهنود فاهتاجوا وغضبوا .

وجرياً على عادتى كتبت للحكومة لاعرف رأيها فى الآمر، وهل هى توافق على الحكم الذى أصدره القاضى « سيرل » ، وعما اذا كانت مستعدة ، فى حالة ما اذا اعتبر تفسير القاضى صحيحاً ، أن تحور

القانون حتى يعترف بشرعية عقود الزواج الهنـدية التى عقدت حسب العادات الدينية التى يعتنقها المتزوجان فى كل حالة من الحالات والتى تعتبر فى الهنـد مشروعة معترفاً بها . وكانت الحكومة اذ ذاك فى حالة نفسية يصعب عليها فيها ان تصغى وان تصيخ بسمعها للشكوى ، أو ان تستبين طريق الرشاد فتجيب ما طلب منها.

فعقدت جمعية « الستياجراها » اجتماعا لتنظر هل تستأنف ضد الحكم الذى أصدره القاضي « سيرل » ، ولـكن انتهت المناقشة بأنه يستحيل علينا أن نستأنف قانوناً فى مثل هذه الحال. لأن الاستئناف لا يقبل فى مثل هذه الحال إلا من طريقين . فاما أن تستأنف الهيأة الحاكمة اذا فضلت ذلك ، واما أن يستأنف الهنود أنفسهم ، اذا عاونتهم الحكومة علنا وأوعزت إلى المدعى العمومى أن يقوم بعمل الاستئناف . وفى احدى هاتين الحالتين يقبل الاستئناف قانوناً . أما ان نستأنف من غير أن نثق بأن أحد الطريقين ممهد ، فمعنى هذا أننا نقبل الاعتراف بعدم شرعية عقود الزواج المعقودة بين الهنود . واذن وجب أن نلجأ الى عمليات الستياجراها ، حتى ولو قمنا بعمل الاستئناف ورفض فعلا . وفى هذه الحال يحسن أن لا نلجأ الى الاستئناف لنمحو به مثل هـذه الاهانة الـكبرى .

وساورتنا أزمة شديدة ، اذ شعرنا بأنه يستحيل علينا أن ننتظر يوماً أو ساعة معينة . وأضحى الصبر مستحيلا ازاء هذه السبة الشديدة التى

وجهت الى شرف نسائنا . وعلى هـذا عزمنا على أن نقوم بعمل « الستياجراها » وبعناد من غير أن نأبه لعدد الذين يخوضون المعركة منا كبر أم صغر . وهنا لم نفكر فى أن نمنع النساء عن الاشتراك فى المعركة ، بل صممنا على أن ندعوهن كى يشاركن الرجال فى العمل . وبدأنا بدعوة الاخوات اللائى يعشن فى مزرعة تولستوى ، فوجدت أنهن مغتبطات بخوض غمار هذه الحرب . غير أنى فضلت أن أبين لهن المخاطر التى قد يتعرضن لها من جراء اشتراكهن فى مثل هذا العمل ؛ وأظهرت لهن أن عليهن أن يفرضن على أنفسهن ضوابط خاصة من حيث الغذاء والملبس وبقية الضرورات الأخرى وعلى الأخص الكماليات . وحذرتهن من أن يفرض عليهن شغلا شاقاً فى السجن ، فيغسلن ملابس أو يشتمهن السجانون . ولكنهن كن باسلات ولم يداخلهن خوف من مثل هذه التحذيرات . وكانت احداهن على وشك الوضع ، وكانت ست أخريات يحملن أطفالا على أذرعتهن . ولكنهن كن جميعاً صامدات للحرب والعراك مغتبطات بالاشتراك فى الجلاد ، فلم أرد أن أقف حائلا دون رغبتهن . وكن جميعاً من « التاميل » — Tamilians

على أن من السهل أن يدخل الانسان السجن جانياً معتديا ، ولكنه من أصعب الأشياء أن يسجن المرء رغم أنه برىء . والمجرم إذا خشى القبض عليه هرباً ، فيتعقبه رجال الشرطة ليقبضوا عليه . ولكنهم

انما يقبضون على الرجل البرئ الذى يسعى لأن يقبض عليه حراً مختاراً، فى الوقت الذى لا يجدون فيه مناصاً من القبض عليه . ولم تفلح أول محاولة قمن بها . وانحصرت محاولتهن فى اجتياز حدود الترنسفال عند بلدة تدعى « فرينيجنج » ـ Vereeniging ـ من غير تصريح باجتياز التخوم . ثم عمدن إلى بيع السلع من غير رخصة ، ولكن البوليس لم يشأ أن يتعرض لهن . وأصبحن فى مشكلة كيف يقبض عليهن ؟ ولم يكن لدينا من الرجال عدد كاف على استعداد لأن يدخلوا السجن ، والذين كان عندهم هذا الاستعداد كانوا فى حيرة من أمر الطريق الذى يتبعونه ليدخلوه .

عند ما وصلت الأمور إلى هذا الحد عزمنا على تنفيذ خطة كنا استبقيناها لحين الحاجة اليها ، فنجحت وحققت رغباتنا . وكنت قد فكرت فى أن أضحى بكل المقيمين بمستعمرة العنقاء فى الوقت الذى تشتد فيه الحاجة إلى مثل هذا العمل . وكانت هذه الوسيلة آخر ما أقدم من قربان لآله الحق والعدل . والمقيمون فى العنقاء كانوا جميعاً من ذوى قرباى ومن الذين عاونونى فى العمل . واستقرت الفكرة على أن نرسل بهم جميعاً الى السجن ما عدا القليل منهم ليقوموا بشؤون « الرأي المندى » والذين يعنون بالأولاد الذين هم دون السادسة عشرة من العمر. وكانت هذه هى التضحية الكبرى التى أستطيع أن أقدمها فى ذلك الوقت . ولقد ذكرت أسماء ستة عشر شخصاً لمستر « جو كهال »

باعتبار أن هذا العدد هو أقل عدد يمكن الاعتماد عليه فى العراك المنتظر ، وكانوا جميعاً من مؤسسى مستعمرة العنقاء . أما الخطة فكانت تنحصر فى أن يجتاز هؤلاء حدود الترنسفال فيقبض عليهم لأنهم اجتازوا التخوم من غير ترخيص رسمى .

كان اجتياز حدود الترنسفال اعتداء . وكذلك كان اجتياز حدود الناتال من الترنسفال اعتداء أيضاً . فاذا قبض على الأخوات وهن يجتزن حدود الناتال ، فحسن . أما اذا لم يقبض عليهن فكان عليهن أن يتقدمن حتى يصلن الى نيوكاسل مركز مناجم الفحم فى ناتال ويعسكرن هنالك ، ويأخذن فى تحريض الأجراء ذوى العقود على أن يقوموا باعتصاب عام . وكن يتكلمن بلغة « التاميل » ، ومنهن من يتكلمن بالهندوستانية ولكن بغير اتقان . بيد أن أكثر الأجراء الذين يعملون فى مناجم الفحم من مقاطعة مدارس وكلهم يعرف لغة « التاميل » أو « التيلوغو » ، كما كانت البقية من سكان شمالى الهند . فاذا اعتصب الأجراء اجابة لدعوة الأخوات ، فان الحكومة اذ ذاك تكون مضطرة لأن تقبض عليهن ومعهن الأجراء الذين من الجائز أن تزداد حماستهم وتلتهب حميتهم . هذه كانت المناورة التى فكرت فيها وشرحتها لاخوات مزرعة تولستوى من الترنسفال .

وذهبت الى مستعمرة العنقاء وكلمت نزلاءها فى الأمر وشرحت لهم تصميمى . وكان أول ما فعلت أنى أخذت أتفاوض مع الاخوات

المقيمات فى المستعمرة . وكنت أعرف أن فكرة ارسال النساء الى السجن فيها مخاطرة ومآزق حرجة كل الحرج . وكان أكثر المقيمات فى العنقاء يتكلمن اللغة الكجراتية ، ولم يكن لديهن ما لدى أخوات الترنسفال من المرانة والتجاريب . فاذا نكصن فى وقت العمل أو اذا لم يستطعن تحمل أعباء السجن ، فربما طلبت منهن أن يعتذرن . فاذا فعلن ذلك ، فانهن بذلك لا يطعنني طعنة شديدة لا غير ، بل انهن يحدثن بذلك أقصى المضار للحركة نفسها . وعلى هذا عزمت على أن لا أفضى بالأمر لزوجى ، لأنها لم تكن تستطيع أن تقول « لا » فترفض أى اقتراح أعرضه عليها ، واذا قالت « نعم » فانى لا أستطيع أن أزن القيمة الحقيقية التى تختفى وراء موافقتها . هذا وانى أعتقد أن واجب الزوج فى مثل هذه الظروف انما ينحصر فى أن يترك زوجه حرة فى أن تتخذ الطريق التى تختارها متحملة فى ذلك المسؤولية كلها ، وأن لا يتمعض اذا هى لم تختر أن تشاركه فى أية سبيل يريد أن يلقى بنفسه فيها . فتكلمت مع بقية الأخوات ، فوافقن مسرورات على مقترحاتى ، وأظهرن استعدادهن للذهاب الى السجن ، بل أكدن لى أنهن على استعداد لأن يقضين بقية أيامهن فى السجن وليكن بعد ذلك ما يكون.

ولقد سمعتنى زوجى أتكلم معهن فبادرتنى قائلة

ــ « انى لحزينة لأنك لم تفاتحنى بهذا الأمر . فأية نقيصة رأيتها فىّ حتى تتصور أنى غير قادرة على احتمال مكاره السجن ؟ انى أريد أن

أنهج نفس هذا النهج الذى تدعو اليه الاخريات » . فأجبتها : ـ

«انك تعلمين أنى آخر شخص يفكر فى أن يجعلك تتألمين . وليست المسألة تنحصر فى انى لا أثق بك. وانى لأ كون مسروراً جداً اذا أنت ذهبت الى السجن ، على أن لا يظهر بحال من الأحوال أن ذهابك اليه كان باغواء منى . وفى مثل هذه الأمور يجب على كل انسان أن لا يعتمد الا على قوته وشجاعته الشخصية . فاذا سألتك أن تشتركى فى الحركة ، فربما تتقدمين للاشتراك طواعية لطلبى . وعلى هذا اذا بدأت تنتفضين فى قاعة المحكمة أو اذا أزعجتك مصاعب السجن ، عجزت عن أن أعزو الخطأ اليك ، ولك أن تتصورى كيف يكون حالى ، وكيف يكون موقفى. كيف أستطيع أن أتستر على ضعفك أو كيف أستطيع أن أرى وجه الناس ؟ ان مخاوف كهذه هى التى حالت دون أن أسألك أن تذهبى مختارة الى السجن» . فقالت

ـ «ليس لك من شأن بى. فانى اذا لم أستطع أن أتحمل مكاره السجن فانى أستطيع أن أسترد حريتى باعتذار بسيط من غير أية مسئولية عليك. ومادمت أنت تستطيع أن تتحمل السجن وكذلك أولادى ، فلماذا لا أحتمله أنا ؟ انى ملزمة أن أشترك فى المعركة » .

ـ «واذن فأنا ملزم أن أدعوك اليها . أنت تعرفين أحوالى وكذلك تعرفين مزاجى وحتى هذه اللحظة لك أن تعيدى النظر فى الأمر وتتمعنى فيه طويلا، فاذا انتهيت بعد التفكير والتأمل الطويل الى أنك لاتشتركين

فى الحركة ، فانك حرة فى أن تنسحبى . ولك أن تفهمى أنه ليس من موجب للخجل اذا أنت انثنيت عن عزمك الآن » . فأجابت

« ليس عندى ما أفكر فيه ، انى مصممة تماماً »

وكذلك انثنيت الى بقية نزلاء العنقاء وأوحيت اليهم أن لكل منهم أو منهن أن يصل الى النتيجة التى يرغب فيها بكامل الحرية ، ومن غير أن يتأثر بحكم غيره . ولقد كررت عليهم هذا الوحى منتحياً طرقاً شتى ونبهتهم اليه وحذرتهم من أن ينكص أحدهم أو بعضهم فى منتصف الطريق طالت المعركة أم قصرت ، وسواء عمرت مستعمرة العنقاء أم خربت ، وسواء احتفظ الكل رجالا ونساء بصحة جيدة أم حطت عليهم الأمراض فى السجن . فوطن الجميع أنفسهم على العمل وأظهروا الاستعداد التام . وكان الرجل الوحيد الذى شارك فى العمل من غير نزلاء مستعمرة العنقاء رجلا يدعى « رستوبجى جيفانجى جور كهودو » وكان من الضرورى أن لا أخفى عنه شيئاً من مجمل هذا ، ولكن « كا كاجى » كما كان يدعى ، لم يكن ذلك الرجل الذى يهتز أمام مثل هذه الأشياء فقد زار السجن من قبل وشدد فى أنه يزوره مرة أخرى . وبدأت الغزوة .

كان على الغزاة أن يذهبوا الى السجن بمجرد اجتياز التخوم ودخول أرض الترنسفال من غير أن يكون لديهم ترخيص بذلك . ولم نشعر

أحداً بتحرك هذا الركب، وكتمنا الخبر عن الصحف، وكنا قد زودنا الغازيات بنصيحة محصلها ان لايعطين أسماءهن حتى لو طلب منهن رجال الشرطة ذلك،ويقلن لهم انهن لا يظهرن شخصياتهن الا أمام المحكمة .

وكان رجال الشرطة عارفين بمثل هذه الظروف . فبعد أن عكف الهنود على اتباع خطة البحث عن طريقة يقبض عليهم بها ، كانوا يمتنعون عادة عن اعطاء أسمائهم لمجرد التسلية واللهو ، وبذلك لم يجد البوليس شيئاً جديداً فى غازيات العنقاء ، فقبض عليهن جرياً على عادته وقدمن للمحاكمة وحكم عليهن بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل . وكان ذلك فى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٣ .

والآن بقى على الأخوات اللاتى لم يفلحن فى الترنسفال أن يدخلن ناتال ، ودخلن بالفعل ، ولكن لم يقبض عليهن . فيممن شطر نيوكاسل وبدأن عملهن اتباعاً للتعليمات التى أخذنها . وهنالك انتشر تأثيرهن انتشار النار فى الهشيم . فان الرواية التى روينها للعمال عن الظلم الفادح الذى توقعه عليهم ضريبة الثلاثة الجنيهات هزتهم من الأعمال وحفزتهم للعمل، فأضربوا . ووصلتنى الأخبار بطريق البرق ، فارتبكت بقدر ما سررت . وماذا كان على أن أعمل ؟ فانى لم أكن أتوقع مثل هذه الصحوة العظيمة ، لأستعد لها . ولم يكن لدى الرجال ولا الاموال التى أستطيع بها أن أواجه حالة كهذه. ولكنى حددت واجبى تحديداً

تاماً . فشعرت بأنه يجب على أن أذهب الى نيوكاسل وأفعل كل ما أستطيع . فسافرت إليها فى الحال

أما الحكومة فلم تستطع أن تترك أخوات الترنسفال الباسلات متمتعات بحريتهن ليفعلن ما يردن ، وليزاولن نشاطهن فى الدعاية . فحوكمن وحكم عليهن بنفس ما حكم به على أخواتهن الأوليات ، وسجن مع غازيات مستعمرة العنقاء .



*

الفصل الخامس عشر

المقاومون السلبيون

لقد هزت هذه الحوادث قلوب الهنود من الأعماق . ولم تقتصر هذه الهزة على جنوبى افريقية ، بل تعدتها الى الهنـد . ولقد ظل سـير « فيروز شاه مهتا » حتى ذلك الحين غير مهتم بقضيتنا العامة . وفى سنة ١٩٠١ نصحنى بشدة أن لا أهبط جنوبى افريقية ، واقتصرت حجته على أنه من المتعذر أن يعمل الانسان أى عمل يخـدم به الهنود المقيمين فى الخارج، مادامت الهند مستعبدة ولم تحقق حريتها ، كما أنه لم يتأثر بحركة «الستياجراها» فى أدوارها البدائية الأولى . ولـكن دخول النساء الى السجن حركه وهزه الى الدرجـة التى لم تبلغها أية حادثة أخرى . ولقد أشـار الى هذا فى خطابه الذى ألقاه فى قاعة محاضرات بومباى، فقال بأنه كلما ذكر أن نساء الهنود يرقدن فى سجون جنوبى افريقية ، يغلى دمه فى عروقه .

كانت الشجاعة التى أبداها النساء مما لا تعبر عنه الـكلمات التعبير الصحيح . وكن قد سجن فى سجن « مارتزبرج » ، حيث بولغ فى ازعاجهن والكيد لهن بمختلف الصور. فأعطيت اليهن أسوأ الأطعمة، وعهد

اليهن بغسل الملابس . ولم يسمح لهن باحضار طعام من الخارج اللهم الا فى أواخر مدة الحبس . وكانت احداهن قد قطعت على نفسها عهداً دينياً بأن لا تتغذى الا بغذاء خاص . وبعد جهد جهيد ومحاولات كثيرة سمح لها رجال السجن بأن تتناول ذلك الغذاء ، ولكن المادة التى كانت تقدم لها منه كانت مما تعافه النفس ويأخذها من منظرها الغثيان. فلما أفرج عنها خرجت من السجن أشبه بهيكل عظمى ، حتى انا لم ننقذ حياتها الا بجهد شديد . وأفرج عن أخرى وهى مصابة بحمى شديدة لم نستطع انقاذها منها فماتت بعد الافراج عنها بأيام .

وأنى لى أن أنسى « فلياما » ؟ ـ Villiama ـ هى فتاة من جوها نسبرج لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، ولقد رأيتها وهى طريحة الفراش . وكانت طويلة القامة ، فكان منظر جسمها الأعجف الهزيل ، مما يشق المرائر ويصهر القلوب الرحيمة . سألتها :

ـ « أتندمين يافلياما على أنك دخلت السجن » ؟ فأجابتنى فوراً

ـ « أأندم ! انى لعلى استعداد الآن وفى هذه اللحظة أن أعود اليه لوقبض على . »

ـ « وماذا لو ينتهى الأمر بموتك » ؟

ـ « انى لا أهتم بهذا . ومن ذا الذى لا يحب أن يموت فى سبيل وطنه » ؟

وبعد بضعة أيام من هذا الحوار لم تصبح فلياما الا حديثاً يروى .

ولـكنها خلفت لنا باسمها الخالد ميراثاً أبدياً عظيما. وعقد الهنود اجتماعات فى أماكن مختلفة ليعبروا بها عن حزنهم عليها وليتقبل بعضهم من بعض العزاء فيها ، وبدأ الهنود يفكرون فى اقامة قاعة يسمونها قاعة « فلياما » ليخلدوا بذلك ذكرى التضحية الـكبرى التى قدمتها اليهم احدى بنات الهند . وانى لأقول آسفاً ان هذه الفـكرة لم تحقق الى الآن . فقـد اعترض تنفيذها صعاب كثيرة. لان وحدة الجالية الهندية هنالك مزقتها الاختلافات الداخلية ، وترك المشتغلون بالقضية الميدان الواحد تلو الآخر ولـكن مما يسليني انه سواء أشيدت قاعة من اللبنات أم لم تشيد ، فان الخدمة التى قامت بها « فلياما » خالدة ولن تزول . لقد أقامت هيكلها الأبدى بعمل يديها . وان اسم « فلياما » سيظل مذكوراً فى تاريخ حركة الستياجراها فى جنوبى افريقية ما بقى للهنـد اسم يذكر فوق الـكرة الأرضية .

ان التضحية التى قدمتها أوليائـكن الاخوات لتضحية خالصة بعيدة عن التأثر بالأغراض . لأنهن كن جاهلات كل ما يترتب على الاجرآت القضائية . وكثيرات منهن لم يكن ليدركن معنى للوطن ، بل كانت وطنيتهن قائمة على مجرد الايمان . وبعضهن كن غير مثقفات ولا يستطعن قراءة الصحف . ولـكنهن كن يدركن أن ضربة مميتة قد وجهت الى شرف الهنود ، وان ذهابهن إلى السجن ليس الا صرخة عالية يعبرن بها عن آلامهن ومواجعهن ، بل صلاة يرسلنها من أعماق قلوبهن لمن هو مطلع

على الأفئدة . فكانت هذه التضحية اسمى وأنقى التضحيات . وان الصلاة التى تصدر من القلب لن تضلّ طريقها الى الله . كما أن التضحية لن تثمر الا بقدر ماتكون صافية نقية . ان الله لا يطالب من العبد أن يتورع ويتبتل . انه ليتقبل عطاء الثاكلة ، دانقاً كان أو سحتوتاً بغبطة ، مادامت تهبه ورعة متبتلة ، أى مادامت تهبه غير مدفوعة عليه بغرض ذاتى ، فيرده عليها أضعافاً مضاعفة . لقد وهب « سوداما »(١) – Sudama – الساذج حفنة من الأرز ، ولكن عطيته الضئيلة قد كفت الناس أعواماً من الشدة والعوز والموت جوعاً . لهذا أعتقد أن سجن الكثيرين ربما كان عملا فاشلا وبلا نتيجة ، ولكن تضحية صافية نقية تقوم بها نفس تجردت من الأغراض، لن تذهب سدى . ولن يستطيع أحد أن يقول تضحية مَنْ من الهنود الذين قاموا بالحركة فى جنوب افريقية، كانت أكثر تقبلا عندالله ، فحملت الثمرة الأخيرة. ولكنا نعلم علم اليقين أن تضحية «فلياما» قد آتت أكلها . وكذلك كانت التضحيات التى قدمها بقية الأخوات .

لقد ذهبت أرواح لاعداد لها فى الماضى ، وتذهب الآن أرواح أخرى، وستذهب غير هذه وتلك فى المستقبل ، خدمة للوطن والانسانية ، ولكن طبيعة الأشياء لن تجعلنا نعرف أيها كانت نقية صافية . ولكن

(١) « سوداما » في الأساطير وهب السيد « كريشنا » ثلاث حفنات من الأرز كانت كل ما يملك . ولكنه استعاضها أضعافاً .

ليطمئن الستياجراهيون · فلو أن نفسا واحـدة من بين نفوسهم كانت صافية شفافة كالبلور ، لـكفى ذلك لأن يوصلهم الى الغرض الأخير الذى رموا اليه . ان العالم انمـا يقوم على أساس « الساتيا » ــ Satya ــ أى الحق . أما « الأساتيا » ــ Asatya ــ ومعناها الباطل ، فانها تؤدى أيضا معنى « العـدم » . وكذلك تؤدى كلة « ساتيا » معنى « ماهو كائن» . فاذا انتصر الباطل الذى هو «عدم» فترة ما، فان انتصاره الموقوت ليس مما يعنينا . أما الحق الذي يفيد « ما هو كائن » فانه لن يعدم ولن يزول . وفى هــذا مجمل ما نعنى بكلمة « ستيا جراها » ، محدودة غير مفصلة .

لقد كان لسجن النساء فعل السحر فى العمال الذين كانوا يعملون فى المناجم بالقرب من « نيو كاسل » . فألقوا بمعاولهم وأدواتهم وأخذوا يفدون على المدينة زرافات متعاقبة . وعندما وصلتنى هـذه الأخبار غادرت مستعمرة العنقاء الى نيو كاسل ·

لم يكن لهؤلاء العمال بيوت يملـكونها . لأن أصحاب المناجم كانوا يهيئون لهم المساكن ويزودونهم بالنور الذى ينير لهم الطرق والمـاء الذى يحتاجون اليه. فـكانوا بهذا فى حالة افتقار دائم لمن يعولونهم . ومن قبل قال « تولاسيداس » ــ Tulasidas ان الشخص المفتقر الى غيره، لن يرى السعادة حتى فى الأحلام .

ولقـد أبدى لى المتصبون كثيراً من الشكاوى . فقال بعضهم ان

أصحاب المناجم قد حرموهم من النور والماء ، وذكر آخرون ان أمتعتهم ألقيت فى عرض الطريق وأصبحوا بلا مأوى . وتقدم الى رجل من الباثيين ـ pathian ـ يدعى «سيد ابراهيم» وكشف لى عن ظهره وقال لى « انظر كيف أوسعونى جلداً . وانى لم أترك العلوج يفلتون من يدي الا خضوعاً لأوامرك . فانى بأبى . وأنت تعرف أن الباثيين لم يتعودوا أن يضربوا ، بل تعودوا أن يكونوا البادئين » . فأجبته

ـ « حسناً يا أخى . انى أعتبر مثل هذا السلوك منتهى الشجاعة . ولسوف ننتصر لو كثر بيننا أمثالك » .

بهذه الكلمات هنأته وشكرته . ولكن قام فى روعى أن الاعتصاب لن يستمر إذا عومل كل المعتصبين كما عومل هذا الأخ. واذا تركنا مسألة الجلد جانباً ، فان الشكوى من قطع تيار الضوء والماء وغير ذلك من المميزات التى كان يزود بها المؤاجرون عما لهم ، لم يكن لها من موضع . ولكن سواء أكان هنالك أى مبرر للشكوى أم لم يكن لدينا أى حق فى أن تشكو ، فان المعتصبين لم يكن فى وسعهم أن يثبتوا فى موقفهم ، وأصبح من واجبى أن أفكر فى مخرج ينقذنا من هذه الشدة ، والا فانه يصبح من الاوفق أن يعترف المعتصبون بأنهم هزموا ، فيرجعون الى العمل توا،من أن يرجعوا اليه بعد أن يظلوا زمناً ينفقونه فى الترقب الممض والانتظار المضنى . غير أنى لم أكن قد وضعت فى خطتى تصميما يحملنى على الانهزام . ولهذا حدست أن المخرج الوحيد انما يكون فى

أن يترك المتصبون محلات مؤاجريهم ويخلوها ، وأن يهيموا على وجوههم كما لو كانوا مهاجرين .

ولم يكن المتصبون يعدون بالعشرات ، بل بالمئات . وربما زاد عددهم وتضاعف فصاروا آلافا . فكيف اذن أستطيع أن أهيىء المأوى والمأكل لمثل هذا العدد العديد الذى أخذ يتزايد ويتضاعف ؟ ولم أكن على استعداد لأن أهيب بالهند لتمد إلىّ يد المساعدة المالية . فان سيل الذهب الذى تدفق من الوطن لم يكن قد بدأ ينساب بعد . والتجار الهنود كانوا فى رعب ووجل ، ولم يكن فى مستطاعهم أن يساعدونى جهرة ، لما كان لهم من صلات مالية بأصحاب مناجم الفحم وغيرهم من الأوروبين . وكانت عادتى أن أمر بهم كلما هبطت نيوكاسل . ولكنى فى هذه المرة أردت أن أوقفهم فى موقف حرج . فنزلنا فى مكان آخر .

لم يكن عندى من المعدات ما يمكننى من أن آوى المتصبين . فكانت السماء غطاءهم . ولكن ساعدنا حسن الحظ بأن كان الجو معتدلا ، ليس بالمطر ولا بالزمهرير . غير أنى مع هذا كنت مقتنعاً بأن فئة التجار لن تحجم عن أن تزودنا بالميرة . وبالفعل أرسل الينا تجار نيوكاسل أوانى الطبخ وأكياس الأرز . وأرسل الينا كثير من الأرز « والدال » (١) « Dal » من أماكن أخرى ، وأمطرنا بوابل من الخضر والتوابل

(١) الدال Dal بقل قريب الشبه بالعدس

وغيرها من الحاجيات . وفاقت المساعدات الحد الذى كنت أنتظره .
ولم يكن جميع المتصبين على استعداد لأن يدخلوا السجن ، ولكنهم كانوا يشعرون شعوراً مشتركا بالعطف على قضيتهم ، كما كانوا مجمعين على أن يقوم كل منهم بما يستطيع والى الحد الذى تنتهى عنده قدرته . أما الذين لم يكن فى قدرتهم أن يمدوا الحركة بأى شىء فانهم تطوعوا لأن يندسوا بين العمال بصفتهم عمالا ليكبر العدد ويتضخم . وكنت فى حاجة الى كثير من المتطوعين البارزين الأذكياء ليقوموا بمهنة ارشاد هؤلاء المترددين غير المثقفين ، فلم أنتظرهم طويلا . وكانت نجدتهم فى مثل موقفى مما لا يقدر بأي ثمن، أو يوزن بأى وزن . ولقد قبض على كثير منهم وزجوا فى السجن ، وعلى الجملة أقول بأن كلا منهم أدى واجبه كاملا، فمهد ذلك سبيل الانتصار وعبد طريق الفوز .

وتدفق علينا سيل من الرجال فكنا نقبل باغتباط انضمامهم الى صفوفنا غير أن مهمتنا أصبحت شاقة ان لم تكن مستحيلة، اذ رأينا أنه من المتعذر علينا أن نحلهم فى مكان واحد ، وأن نعنى بهم فى وقت بطالتهم . ومما زادنا رهبة، أنهم جميعاً كانوا جاهلين بقواعد الصحة الأولية . وكان بعضهم من أضياف السجون حلوا بها للسرقة أو القتل أو الفسوق . ولا شك فى أنه من العبث أن يضع الانسان نفسه فى موضع الحكم الذى يقضى على المتصبين من حيث السلوك والأخلاق . وأمعن من هذا فى العبث ، أن يحاول الانسان أن يفرق فى مثل هذه الحالة بين

الشياه والذئاب، بل حصرت كل همى فى أن أقود الاعتصاب، وأوجهه إلى الناحية التى يرجى منها النفع · وهى مهمة بعيدة كل البعد عن أن تمتزج بجهود توجه نحو الاصلاح · غير أنى على الرغم من هذا شعرت أنه من واجبى أن ألاحظ أن أصول الآداب لابد من أن تظل مرعية فى المخيم ، من غير أن أنظر فى سوابق كل من المعتصبين .

وأخذت أفكر فى حل أتخلص به من هذه الورطة . فتبادر الى أن أقود هذا الجيش العرم الى الترنسفال وأسلم به فى أمان الى السجن كما فعلت من قبل بسكان مستعمرة العنقاء . وتخوم الترنسفال تبعد عن نيوكاسل ثلاثا وستين ميلا . والقريتان الواقعتان على تخوم ناتال والترنسفال هما شارلستون فى الأولى وفلكسرست ـ Volksrust ـ فى الثانية . وفى النهاية صممنا على أن نسير على الأقدام . واستشرت العمال المعتصبين فى ذلك الأمر . وكان معهم زوجاتهم وأولادهم ، فتردد البعض فى قبول مقترحى . ولكن لم يكن أمامى من سبيل الا أن أقسو قليلا ، فأعلن أن هؤلاء أحرار فى أن يعودوا الى العمل فى المناجم · فلم يشأ واحد منهم أن ينتهز هذه الفرصة . لهذا قررنا أن الذين هم مصابون بمرض فى أطرافهم يعوقهم عن متابعة السير مسافات طويلة ، يرسلون بالقطر الحديدية ، فى حين أن كل الأقوياء القادرين على السير على القدم، أعلنوا أنهم مستعدون للذهاب مشياً إلى شارلستون. وكانت المسافة تستغرق يومين سيراً معتدلا . ولم نكد نصل الى نهاية السير

ونبلغ غرضنا ، حتى بدا الابتهاج على الجميع.أما الأوزوبيون فى نيوكاسل فقد توقعوا انتشار الطاعون ، وأخذهم الاشفاق والوجل، فكانوا على استعداد لأن يتخذوا من الاجراآت كل ما من شأنه أن يحول دون وقوع مثل هذه الكارثة .

ولقد قابلت أصحاب المناجم فى دوربان ورأيت أنهم متأثرون بعض الشيء من جراء الاعتصاب . ولكنني لم أكن أنتظر أية نتيجة كبيرة من وراء الاجتماع بهم . غير أنه يجب أن نذكر أن المؤمن بمبدإ الستياجراها لا يجب أن يعرف للتجرد أو الاستسلام حداً . من واجبه أن لا يترك فرصة يمكن أن تنتهز للتفاهم من غير أن يغتنمها ، بدون أن يفكر فى أن ينظر اليه أى انسان باعتباره جباناً أو أن الشجاعة تعوزه . فان الرجل المؤمن الحائز لتلك القوة الكبرى التى يبعثها الايمان ، لن يضيره من شيء أن ينظر اليه الغير نظرة امتهان . انه لا يقيم لشيء وزنا اللهم الا قوته الذاتية . لهذا يجب أن يكون محتشما مع الجميع وبذلك يبذر ذلك البذر الذى لن يكون له من جنى الا أن تتجه الفكرة الى قداسة قضيته . ولهذا تقبلت دعوة أصحاب المناجم بأحسن القبول، فلما قابلتهم رأيت أن الجو مشبع بكثير من الحرارة والشهوة الجامحة التى تبعثها مثل هذه المواقف . فبدلا من أن يسمعنى مندوبهم فأشرح له الموقف ، أخذ يستجوبنى . ولكنى أجبته أجوبة تلائم مقتضى الحال :

ـــ « انه فى مقدورك أن تنهى الاعتصاب » . فكان جوابى

ــ « اننا لسنا بموظفين » .

ــ « فى استطاعتكم أن تعملوا كثيراً من العمل المنتج ، ولو انكم غير موظفين . وفى قدرتكم أن تقتحموا المعركة لصالح العمال . فاذا سألتم الحكومة أن ترفع ضريبة ثلاثة الجنيهات ، فلست أظن انها ترفض الغاءها . كما ان فى وسعكم أن تثيروا الرأى العام الأوروبى فيما يختص بمسألتكم . »

ــ « ولكن ماشأن ضريبة الثلاثة الجنيهات بالاعتصاب؟ فانه اذا كان للمعتصبين مايشكون منه تلقاء أصحاب المناجم ، فهذا من واجبكم أن تعملوا على تسويته على وجه مقبول . ولست أجد من سلاح يمكن أن يلجأ اليه العمال سوى الاعتصاب . وضريبة الجنيهات الثلاثة لم تسن الا خدمة لأصحاب المناجم الذين يريدون أن يشتغل لهم العمال ، ولكن لا كعمال أحرار ، بل كعبيد . فاذا أضرب العمال ليتوصلوا الى الغاء هذه الضريبة ، فلست أرى فى هذا العمل مايمكن أن يعتبر تحديا أو ظلماً لاصحاب المناجم »

ولا أذكر بقية المناقشة الآن . ولكنى فهمت أن أصحاب المناجم قد فهموا جيداً ضعف موقفهم ، فأخذوا يفاوضون الحكومة . ولقد رأيت خلال سياحتى الى دوربان والعودة منها أن الاعتصاب وما وسم به من مظاهر السلام والمسالمة كان له أكبر الأثر فى مراقبى سكة الحديد وغيرهم وسافرت فى الدرجة الثالثة كما هى عادتى ، فقدم الى المراقب

وغيره من الموظفين وألقوا على كثيراً من الأسئلة المتعلقة بالاعتصاب وتمنوا لى النجاح . ولقد أبدى هؤلاء الموظفون عجبهم واعجابهم من أن مثل هؤلاء الفقراء الجهلاء غير المثقفين، قد احتملوا مثل هذه الشدائد فى سبيل أن ينجحوا ويفوزوا بغرضهم. ولاشك فى أن الحزم والشجاعة صفتان لابد من أن تتركا أثرهما الثابت حتى فى الأعداء والمنافسين

وعدت الى نيوكاسل . وكان العمال لا يزالون يفدون زرافات من كل مكان . وما ونيت فى أن أشرح كل الموقف لجيش العمال المعتصبين ، قائلا فى النهاية انهم مازالون أحراراً فى أن يعودوا الى العمل اذا أرادوا . وابنت لهم عن التهديدات التى كان يهددهم بها أصحاب المناجم ، وصورت لهم المآزق التى قد يضطرون الى اجتيازها فى المستقبل ، وأظهرت لهم مصاعب السجن وويلاته . ومع كل هـذا فانهم لم ينكصوا على أعقابهم ، بل أجابونى بغير ما خوف أو وجل بأنى لن أشغل نفسى بهم لأنهم اعتادوا الشدائد ومرنوا على الويلات .

لم يبق اذ ذاك لدينا من شىء الا أن نبدأ الزحف . وأعطينا للعمال الاشارة بأنهم سوف يبدأون السير فى الصباح الباكر من اليوم القادم (٢٨ اكتوبر سنة ١٩١٣) وقرأنا عليهم التعليمات التى يجب أن تراعى لدى السير . وليس من الهينات أن ننظم جمعاً مكوناً من خمسة آلاف أو ستة آلاف رجل . ولم يكن فى استطاعتى أن أزودهم بأكثر من رطل ونصف من الخبز وأوقية من السكر لكل جندى خلال المسير ،

واذا سهل على أن احصل على شيء آخر من التجار الهنود فى الطريق، فانى لاأبخل به عليهم . ولكن اذا لم يتيسر ذلك فعليهم أن يرضوا عما قسم لهم . ولقد كانت تجاربي في حرب البوير وثورة الزولو أكبر عون لى على معالجة الحالة . فأمرت بأن لايحمل أحد من «الغزاة» من الملابس أكثر مما هو ضرورى ، وأن لا يمس أحد أمتعة غيره خلال الطريق . كما نبهت عليهم أن يحتملوا بصبر واناة مايمكن أن يوجهه اليهم الاوروبيون من الاهانات أو السباب، وأن يمشوا فى سلام حتى ولو ضربوا أوجلدوا . فاذا أريد القبض عليهم فليسلموا أنفسهم بغير مقاومة، ولقد أبنت لهم كل هذه التعليمات بجلاء ، ثم أعلنت عليهم أسماء الذين يخلفوننى فى قيادتهم اذا قبض علىَّ . ولا شك فى أنهم فهموا ماقلت فهماً جيداً ، فوصلنا شارلستون بسلام . وهنالك أمدنا التجار بكثير من المونة . ففسحوا لنا بيوتهم لنشغلها ، وسمحوا لنا أن نطهى الطعام فى صحن الجامع . وكانت الميرة لا بد من أن تنتهى بانتهاء المسير الى حيث قصدنا ، وكنا فى حاجة الى أوان للطبخ ، فلم يتوان التجار فى أن يمدونا بها . وكان معنا مخزون كبير من الأرز وغيره من الحاجيات التى سارع التجار بامدادنا بها .

كانت شارلستون فى ذلك الوقت عبارة عن قرية صغيرة لايزيد تعدادها على ألف نسمة . فلم نسمح لغير النساء والأطفال أن يحتلوا المنازل . ولذا خيم الباقون فى العراء . ولقد تمر بى كثير من الذكريات السعيدة

وقليـل من الذكريات المؤلمة ، وقعت حوادثها خلال اقامتنا بقـرية شارلستون . أما الذكريات السعيدة فتتعلق بمصلحة الصحة والموظف المنوط به أمر الصحة فى ذلك المركز وكان يدعى دكتور « برسكو » Dr. Briscoe فانه على الرغم من أنه أخذته الحيرة من تضاعف عدد السكان فجأة تضاعفاً مزعجا ، سارع الى ملاقاتى ، وبدلا من أن يتخذ أى اجراء عاجل ، اقترح على بعض المقترحات وعرض على المساعدة . ولا شك فى أن الأوروبيين ذوى عناية بنظافة الماء والطرق والاحتفاظ بالأدوات الصحية فى أحسن حال من الاناقة . على الضد منا، فاننا قلما نعنى بهذا الأمر . لهذا رجانى مستر « برسكو » أن أمنع القاء المياه القذرة فى الطرقات وان احول بين رجالناوبين تقذير المكان الذى يحتلونه أو القاء الكناسة والفضلات حيثما اتفق . وكان من الصعب على ان أحمل الهنود على مراعاة هذه الأوامر وتنفيذها ، ولكن المهاجرين والزملاء الذين رافقونى لدى بدء الاعتصاب هونوا على كثيراً من هذه المصاعب ولقد بان لى فى كثير من المواقف أن العمل يسهل وينتج أحسن النتائج،اذا انصرف الخادم الى الخدمة بجد وكد من غير أن يحاول أن يعلى ارادته على الذين يخدمون معه.فاذا أقدم على العمل بنفسه ، فلا بد من أن يتبعه الباقون . فلم تخطىء تجربتى لدى التطبيق فى هذه الفرصة . فانى وزملائى لم نتأخر هنيهة على الاكباب عن الكنس ونقل الكناسة والفضلات وما يشابهذلك من الأعمال.فكانت النتيجةان اشترك الكل

فى العمل بحماسة وحرارة . وكان « كلنباخ » قد سبقنا الى شارلستون ، وكذلك مس «شلسن» التى لن أستطيع ان أوفى صفاتها فى الاكباب على العمل والدقة والأمانة حقها من الوصف والمدح . ومن الهنود المعروفين الذين عملوا بكل حماسة وأمدونا بكل ما يمكن من المساعدات، المرحومان مستر « نايدو » والبرت كرستوفر .

كلما فكرت فيما أبدى الرجال من الصبر والاحتمال فى هذه المشقة. تملكنى شعور عميق بقدرة الله الشاملة . وكنت بين الطهاة رئيساً عليهم . وقد يحدث ان يضاف على بقل «الدال» كثير من الماء، كما يحدث أن لا يتم نضجه فى الطهى . وكثر ما كان الارز والخضروات تقدم غير مطبوخة طبخاً كافياً . ولم أر فى أطراف الكرة الأرضية التى زرتها لفيفاً من الناس يستسيغ ازدراد مثل هذا الطعام بمثل ما شاهدت لدى المتصبين من شهية . فقد رأيت فى سجون جنوب افريقية انه كثيرا ما يفقد الذين نسمهم بأنهم متعلمون صبرهم، اذا قدم اليهم طعام أقل من اللازم، أو طعام سىء الطهى أو تأخر تقديمه اليهم .

كان من بين الأخوات اخت من دوربان تدعى « باى فاطمة محتب» لم تستطع ان تحتمل معاشرة اخواتها التامیلیات عند ما سجن فى نيوكاسل.ولهذا ذهبت الى فولكسرست ليقبض عليها وتسجن بها مع أمها « حنيفة باى » وابنها الذى لم يكن يتجاوز السابعة من عمره . وقبض على الأم والبنت ولكن الحكومة لم تشأ أن تقبض على الابن .

ودعيت « فاطمة باى » لتؤخذ بصماتها فى المكان المعين لذلك ، ولكنها رفضت أن تخضع لمثل هذه الأهانة فحكم عليها وعلى أمها بالسجن ثلاثة أشهر .

وكان اعتصاب العمال فى ذلك الوقت قد بلغ أشده . وكان الرجال والنساء حينذاك آخذين فى الزحف بين مقر الناجم و بين شارلستون . وكان من بينهم امرأتان ومعهما أولادهما فمات أحدهم من التعرض للطقس، وسقط واحد غيره من بين ذراعى أمه عند ما كانت تجتاز مجرى نهر ومات غريقاً. ولكن الأمين الباسلتين رفضتا ان تنكصا ، وتابعتا السير . بل لقد قالت احداهما « ليس لنا ان نحزن على الموتى الذين لن يعودوا الينا مهما حزنا . ان الواجب يدعونا إلى العمل من أجل الاحياء » . ولقد وقعت بين الفقراء والمعوزين على أمثال هذه الصور النادرة من الشجاعة الهادئة والايمان الثابت والنظر الشامل لحقائق الحياة .

ولقد قام الرجال والنساء فى مركزهم الدقيق بقرية شارلسون بما يفرضه عليهم الواجب وروح التضحية . فان الذى حملنا على أن نهبط هذا المكان مهاجرين لم تكن روحاً سامية . هذا على الرغم من أننا كنا فى سلام روحى نشعر به من أعماق نفوسنا . ولقد علقنا اعلانات كبيرة فى كثير من الأماكن كتبنا عليها « لا سلام هنا » . ولكن لا شك

أنه فى مثل هذا الجو يمكن لمثل « ميرابای »[١] ـ Mirabai ـ أن تأخذ كأس السم الى فمها وتجرع ما فيه فرحة راضية ، وأن يذهب سقراط هادئاً الى أحضان الموت فى سجنه السحيق المنفرد ، ويوجه الى أصدقائه والينا فى شخصهم ذلك اللوم المقذع الذى ضمنه مذهب ان الذى ينشد السلام يجب أن يبحث عنه فى نواحى نفسه . وبمثل هذا السلام الذى نما فى نفوس الستياجراهيين عاشوا فى مخيمهم غير آبهين بما سوف يأتى به الغد .

وكتبت الى الحكومة أنبئها بأنه ليس من غرضنا أن ندخل الترنسفال بقصد الاقامة، بل ندخلها احتجاجا على أن ينقض الوزير عهده، وتظاهراً صارخاً على يأسنا من أن نسترد احترامنا الذى فقدناه . ولاشك فى أن الحكومة كانت توفر علينا كثيراً من المتاعب اذا هى تفضلت وقبضت علينا حيث كنا، أى فى شارلستون . ولم تكن حركتنا بالسر الذى لا يباح به . بل كنا نأنف من أن يدخل أحدنا أرض الترنسفال تسللا وفى خفية . ولكنا لم يكن فى وسعنا أن نحتمل مسؤولية ما يأتى أى شخص من عمل قد يروقه ، لأنه كان علينا أن ننظم آلافا من الناس الذين لا نعرفهم شخصياً ، ولم يكن فى وسعنا أن نفرض عليهم من شىء اللهم إلا الدعوة للمحبة والصفاء . ولقد أكدت للحكومة فى النهاية

---

١ ميرابای ملكة وقديسة لها أغنية دينية يحبها أهل الهند .

أنها اذا ألغت ضريبة الجنيهات الثلاثة ينتهى الاعتصاب ويعود العمال ذوو العقود الى العمل ، لأننا سوف لا ندعوهم الى الجلاد فى سبيل التغلب على بقية الأشياء التى نرفع أصواتنا بالشكوى منها .

كان موقفنا حينذاك غير مفهوم جيداً ، ولم نكن نعرف متى تقدم الحكومة على القبض علينا. وكان علينا أن لا ننتظر فى مثل هذه الأزمة الشديدة جواباً من الحكومة الا بعد مضى بضعة أيام . لهذا صممنا على أن نغادر شارلستون وندخل الترنسفال توا ً ، اذا لم تقبض الحكومة علينا . فاذا لم يلق القبض علينا خلال الطريق ، بقى علينا أن نمضى فى السير فنقطع فى اليوم أربعة وعشرين ميلا ونستمر على ذلك ثمانية أيام لنصل الى مزرعة تولستوى وأن نظل هنالك حتى تنتهى المعركة ، وفى خلال الاقامة بالمزرعة يعمل العمال فى فلحها ليقوموا بأودهم ، وكان مستر كلنباخ قد أكمل كل المعدات الضرورية . وكانت الفكرة أن نشيد أكواخاً من الطين يصنعها المهاجرون بأنفسهم . وكانت الصعوبة الوحيدة التى تعترض هذا العمل، ان فصل الأمطار كان قد أظلنا إبانه، ومن الضرورى أن يكون لكل انسان ملجأ يحتمى به اتقاء الأمطار . ولكن مستر كلنباخ كان يتوقع فى شجاعة، أنه سوف يحل هذا المشكل بصورة من الصور .

وفولكسرست قرية قدر شارلستون مرتين . وأبدى صاحب مخبز أوروبى بها رغبته فى أن يتعاقد معنا على أن يزودنا بما يلزمنا من الخبز ،

ولم ينتهز صاحب المخبز هذه الفرصة ليأخذ منا ثمناً للخبز أعلا من الثمن السائد فى السوق ، كما أنه أخذ يصنع الخبز من أجود صنف من الدقيق . وكان الخباز يرسل الخبز فى الوقت المناسب بطريق سكة الحديد فأخذ عمالها وكلهم من الأوروبيين يقومون بواجبهم نحونا،فكانت الارساليات تصلنا كاملة، وعنوا كل عناية بنقلها وخصونا ببعض التسهيلات . فقد كانوا يعرفون أن قلوبنا لا تنطوي على عداء أو ضغينة . وأنه ليس من قصدنا أن نلحق ضرراً بمخلوق ، وأن غايتنا هى الوصول الى حقوقنا من طريق ما نعانى من آلام وما نحتمل من مشقات . ولذا كان الجو الذى أحاطنا نقياً خالصاً من الشوائب،واستمر نقياً طوال أيام جهادنا. وما السبب فى هذا الا أن الحب الكامن فى النفس الانسانية قد نشط وأخذ يظهر أثره . فكان الكل يشعر بأنهم اخوان مهما اختلفت النحل بين نصارى ويهود وهندوكيين ومسلمين أو غير ذلك .

ولما خيم الظلام سكنت الأصوات واستقرت الأرواح ، وكنت على وشك أن آوى الى مضجعى عند ما سمعت جلبة . ورأيت أوروبياً يتقدم نحونا وفى يده مصباح. ففهمت معنى ذلك ، ولكن لم يكن عندى من المهام ما أوصى به قبل القبض على .

ـ « لدى أمر بالقبض عليك . أريد أن ألقى عليك القبض » .

فأجبت الضابط:

ـ « الى أين سوف تذهب بى . »

ـ « الى أقرب محطة لسكة الحديد الآن ، ثم الى فولكسرست عند ما يصل أول قطار مسافر اليها » .

ـ « سأذهب معك من غير أن أخبر أى انسان ، ولكن على أن أترك بعض التعليمات مع أحد الزملاء » .



الفصل السادس عشر

السجن والانتصار

أيقظت مستر « نايدو » الذى كان نائماً بالقرب منى ، وأخبرته بخبر القبض على ورجوته أن لايذيع الأمر بين المهاجرين قبل أن يتنفس الصبح . وان عليهم عندما يبين النهار أن يتحركوا للمسير ، على أن يبدأوا به قبل بزوغ الشمس . وعندما يحين وقت الاستراحة ليتناولوا وجبتهم ، له أن يذيع بينهم خبر القبض على . وأبحت له فوق ذلك أن يلقى بهذا الخبر لأى انسان يسأله عنى ، فيما لوقبض على المهاجرين ، والا فالواجب عليهم أن يتابعوا السير طبقاً للبرنامج الموضوع . ولم يداخل نايدو أى شك أو خوف على الاطلاق . فأمليت عليه تعلياتى بما يتبعه فيما لو قبض عليه هو أيضاً . وكان مستر كلنباخ فى فولكسرست فى ذلك الحين . ورافقت ضابط البوليس وسافرنا الى فولكسرست . غير ان النائب العمومى أبى أن يستمر القبض على اذ لم تكن قد وصلته الأسباب التى يبنى عليها أمر القبض ، وعلى هذا أجل النظر فى أمرى وأطلق سراحى بعد وضع كفالة قدرها خمسين جنيهاً . وكان مستر كلنباخ قد أعد مركبة لى وسافر معى فى الحال لنعود الى مشاركة المهاجرين

فى زحفهم . وأراد مراسل جريدة « ترنسفال ليدر » أن يرافقنا . فأخذناه معنا فى العربة ، فنشر فى ذلك الحين وصفاً دقيقاً للحالة ووصف سياحتنا ومقابلتنا مع المهاجرين الذين تلقونى بمظاهر الحماسة وأبدوا أشد الفرح بعودتى . واستمر زحفنا . ولكن لم يرق للحكومة أن تتركنى حراً . ولذا صدرت الأوامر باعادة القبض على، وقبض على فعلا فى ستندرتون فى الثامن من الشهر . ولقد زودنا تجار ستندرتون ببضعة علب من مربى المشمش ، فاحتاج توزيعها على المهاجرين وقتاً أزيد مما يحتاج توزيع بقية المأكولات

ولقد سألت المهاجرين أن يتابعوا السير ، ثم فارقتهم صحبة الحاكم الذى ألقى على القبض بنفسه . وبمجرد أن وصلت قاعة الجلسة فى المحكمة وجدت أن بعض زملائى كان قد قبض عليهم . وجدت منهم خمسة هم : نايدو ، وبهاريلال مهاراج ، ورامايان سنها ، وراجونا راسو ، ورحيم خان . ولم ترغب الحكومة فى أن يؤدى قبضها الى سجننا معاً ، كما انها لم ترد أن يحمل الزملاء رسالاتى عندما يطلق سراحهم الى الخارج . ولهذا صممت السلطات على أن تفصل بين ثلاثتنا ، أنا وكلنباخ وبولاك ، فرحلتنا من فولكسرست ، وأرسلت بى إلى مكان لا يمكن أن ألتقى فيه بأحد من بنى جلدتى .

لهذا أرسلت الى سجن « بلونفونتين » . ولم يكن بهذه البلدة أكثر من خمسين هندياً يشتغلون جميعاً خدماً فى الفنادق . وكنت السجين

الهندى الوحيد ، فى حين كان باقى ضيوف السجن من الاوروبيين والعبيد . ولم تأخذنى هزة من جراء هذه العزلة ، بل تقبلتها كنعمة أنعمت على الحكومة بها ، فقد وفرت على أن اوقظ سمعى ونظرى لاراقب تصرفات بقية السجناء ، وفرحت لان سنحت لى فرصة التزود بتجاريب جديدة ، وفضلا عن هذا فانه لم تمر بى أوقات أستطيع أن أتفرغ فيها للدرس ، وعلى الأخص منذ سنة ١٨٩٣ ، فكانت هذه الفرصة أحسن الفرص التى أنفقها فى الدرس والاكباب عليه سنة كاملة . وقد متعت فى سجن بلونفونتين بأكبر قسط من الانفراد كنت أتوق اليه . ولا شك فى أنه كان حولى كثير مما يقلقنى ويمضنى ، ولكنه كان مما يمكن احتماله . ونشأت بينى وبين طبيب السجن صداقة . وكان السجان لايستطيع أن يفكر الا فى أن يظهر سلطانه وجبروته ، فى حين كان الطبيب تواقاً لأن يتمتع المسجونون بحقوقهم التى يخولهم إياها قانون السجن. وكنت من ذلك الوقت أغتذى على الفواكه صرفاً، فلا أتناول الا الموز والطماطم والجذور الخضراء وزيت الزيتون . ولم يكن لى مفر من الموت جوعاً اذا قدم الى شىء من هذه الأشياء فى حالة فساد أو كان منه صنف غير جيد. لهذا عنى الطبيب كل عناية بانتقائها، وأضاف اليها اللوز والجوز العادى والجوز البرازيلى لتكون من ضمن الأصناف التى تقدم الى . ولم يكن فى حجرة السجن التى خصصت لى طريق كاف للتهوية . فعمل الطبيب أقصى جهده فى أن تظل الحجرة

مفتوحـة الباب ، ولـكن لم يفز من ذلك بطائل ، وهدده السجان بالاستقالة اذا هو حمل على أن يترك باب الحجرة غير موصد . على انه لم يكن رجلا شريراً ، ولـكنه كان يريد أن يتبع نظاماً واحداً لايخالفه ولا يشذ عنه فى حالة من الحالات ومهما كانت الظروف

وكان مستر كلنباخ قد حمل الى سجن بريتوريا ، وپولاك إلى سجن جرمستون . ولـكن الحـكومة كانت تستطيع أن تتقى كل هذه المتاعب . لأن مثل رحالها فى هذه الحال كان كمثل مسز بارتنجتون فى الأقصوصة ، عند ما أرادت أن توقف مد المحيط الخضم بالمـكنسة التى كانت تحملها . ذلك لأن العمال فى ناتال كانوا قد استيقظوا من غفوتهم ، وأصبح من المتعذر على اية قوة فى الأرض أن تثنيهم عن عزمهم .

ان الصائغ يمتحن ذهبه على المحك ، فان لم يستبن مقدار مافيه من النقاء أحماه ودقه بالمطرقة، حتى اذا كان فيه شىء من المعادن الاخرى أو الأوساخ انفصل عنه وبقى الذهب الخالص . ولا شك عندى فى أن الهنود مروا فى جنوب افريقية بمثل هذه التجربة . فانهم صهروا ودقوا بالمطارق الثقيلة ، ثم دمغوا بطابع الذهب الصافى ، بعد أن مروا بهذه التجاريب القاسية صابرين مصابرين . فقد شحن المهاجرون فى قطر سكة الحديد لا ليتنزهوا ، بل ليتطهروا بالنار ، ويتعمدوا بها . فان الحـكومة لم تعن خلال تسفيرهم مشحونين شحن البضائع والسلع حتى بأمر طعامهم ، وبمجرد ان وصلوا ناتال وجهت اليهم التهمة وحكم عليهم وسجنوا . على

اننا كنا ننتظر هذا العمل ونرغب فيه . غير ان الحكومة كان عليها ان تتحمل نفقات كبيرة فتظهر في الوقت ذاته كأنها لعبة في يد الهنود اذا هي استمرت تعني في سجونها بمثل هذا العدد الهائل من العمال. ناهيك بأن أصحاب المناجم كان عليهم ان يعطلوا العمل في مناجمهم خلال المدة التي يقضيها العمال في السجن. ولاشك في ان الحال اذا ظل سائرا على هذا المنوال فترة ما من الزمن، فان الحكومة تكون مضطرة الى الغاء ضريبة ثلاثة الجنيهات. لهذا فكرت الحكومة في طريقة مبتكرة . فخوطت منطقة المناجم بالاسلاك الشائكة وأعلنت ان هذه المنطقة أصبحت من ملحقات سجن دندى ونيوكاسل ، وعينت المستخدمين الأوربيين لدى أصحاب المناجم مراقبين عليهم . وبهذه الوسيلة استطاعوا أن يضعوا انوف العمال في الرغام على الضد من ارادتهم، وبدأت المناجم تزدحم بالعمال في الحال. على أن هنالك فرقا بين خادم وعبد . فان الأول اذا ترك عمله لم يكن في مستطاعك ان ترغمه على شيء الا من طريق التحاكم واستصدار حكم عليه . ولكن الثاني يمكن أن تعيده الى العمل بالقوة . وبهذا اعيد العمال الى العمل ولكن بصفتهم عبيداً من غير قيد ولا شرط.

وكان هذا العمل في جانب الحكومة أكثر مما ننتظر منه . ولكن العمال كانوا بسلاء فأبوا أن يعملوا في المناجم ـ وانتهى الأمر الى أن يجلدوا بقسوة ووحشية . وكان رقباؤهم الوحشيو الطباع قد استمانوا بالسلطة التي خولتهم الحكومة فأخذوا يسطونها على العمال ويؤدونها اليهم ركلا

بالأرجل وصفعاً بالأكف وسباباً بالألسنة ، الى غير ذلك من ضروب القسوة والاهانة التى لم تسجل عليهم . ولكن على الرغم من هذا كله ظل العمال الساكين مستمسكين بموقفهم ، غير آبهين بما يقع عليهم من صنوف العذاب .

وأرسلنا الى الهند اشارات برقية ضمناها خبر هذه الاعتداآت وخصصنا بها الزعيم «جوكهال» الذى اهتم بالأمر واتصل بنا ، حتى أنه كان يستعلم عن الأخبار اذا أخرناها عنه يوماً واحداً. وأخذ «جوكهال» ينشر الأخبار رغم أنه كان ملازماً فراشه لمرض شديد ألم به . ولكنه على الرغم من مرضه أصر على أن يلحظ بنفسه أحوال الهنود فى جنوبى افريقية ويعنى بها حتى لقد شغل بها ليل نهار . ولقد اهتزت جميع أنحاء الهند فى تلك الآونة واستيقظت فأصبحت مسائل جنوبى افريقية حديث المجالس وشغل الساعة .

فى ذلك الحين ألقى اللورد هاردنج خطابه المشهور فى مدراس ، ذلك الخطاب الذى أزعج الأوروبيين فى جنوبى افريقية وفى انجلترا على السواء . ولم يكن من عادة حكام الهند أن يوجهوا انتقاداتهم الى التصرفات التى تأتيها الحكومات الأخرى فى أنحاء الامبراطورية ، ولكن اللورد هاردنج لم يكتف بأن يوجه نقداً مقذعا لحكومة الاتحاد الافريقى فقط ، بل دافع دفاعا مجيداً عن تصرفات الستياجراهيين وخطتهم السلمية ، وأيد عصيانهم المدنى لقانون وحشى جائر . وعلى

الرغم من أن خطاب اللورد هاردنج قد لاقى كثيرا من التعليقات المعادية في انجلترا ، فانه لم يحاول أن يعتذر أو يعدل موقفه ، بل على الضد من ذلك صرح للكثيرين بأنه مقتنع بصحة الموقف الذى اضطر أن يقفه . ولا شك فى أن حزم اللورد هاردنج فى خطته هذه قد أحدث أثراً ظهرت نتائجه فى كل مكان .

ولنترك الآن أولئك العمال البواسل التعساء مأسورين داخل حدود منطقة المناجم هنيهة ، لنتكلم قليلا عن حقيقة الموقف فى أطراف أخرى من بلاد ناتال . فان منطقة المناجم تقع فى الشمال الغربى من تلك البلاد، ولكن الهنود كانوا يعملون فى البقاع المجاورة للشواطىء فى الشمال والغرب . وكنت متصلا قبل حدوث الاعتصاب بالهنود الذين يعملون على الشاطىء الشمالى ، لأن كثيراً منهم اشترك معى فى حرب البوير . ولكنى لم أكن قد اتصلت بالعمال الذين يعملون فى منطقة الشاطىء الجنوبى اتصالى بالأولين، ولم يكن لى هناك من الزملاء الا العدد اليسير، ولقد باع كثير منهم أثاث منزله مقدراً أن المعركة سوف يطول أمدها وانه سوف يحتاج للزاد الذى ربما يضن به عليه أهل جلدته من الأغنياء. ولما ذهبت الى السجن حذرت زملائى فى العمل من أن ينصحوا لغير المعتصبين من العمال أن يعلنوا اضرابهم عن العمل ، لأنى قدرت أننا نستطيع أن ننتصر حتى لو اقتصر الاعتصاب على عمال المناجم ، ولأن عمال الهنود لو أضربوا جميعاً ــ وعددهم لا يقل عن ستين ألف نسمة ــ

لأصبح من المستحيل تدبير أمورهم من كل الوجوه . ناهيك بأنه لم يكن لدينا من الوسائل ما يمكننا من أن نصحب عـدداً كبيراً كهذا خلال الهجرة . لم يكن لدينا الرجال الذين يرشدونهم ، ولا المال الذى نطعمهم به . وفضلا عن هذا فان عدداً كبيراً كهذا لا يمكن أن نضمن معه الاحتفاظ بالنهج السلمى الذى كنا ننشده . ولـكن اذا فتحت الهواويس التى تحبس المـاء ، فلا مناص اذن من حـدوث الطوفان المجتاح . فأضرب العمال فى جميـع الأنحاء من تلقاء أنفسهم وتطوع كثيرون لينظروا فى أمورهم ويدبروا موقفهم

وهنا بدأت الحـكومة تنفذ سياسة الدم والنار . فأخذت تمنع العمال عن الاعتصاب بمحض القوة . فتصدى البوليس الحربى الراكب للعمال ليحملهم على الرجوع الى العمل . وكان أقل اضطراب بين العمال كاف لأن يجاب عليه برصاص البنادق . وحدث أن قاومت فئة من العمال القوة التى أرادت أن تحملهم على الرجوع الى العمل ، وقذف بعضهم الحجارة على رجال البوليس ، فأطلقت عليهم نيران البنادق فقتـل منهم البعض ، وجرح كثيرون . ولـكن العمال مع هـذا رفضوا أن يخضعوا . وكذلك لم يتمكن المتطوعون من أن يمنعوا اعتصاباً كبيراً بالقرب من « فريولام » الابعدجهد جهيد . ومعهذا أبى كل المعتصبين أن يعودوا الى العمل . حتى بلغ ببعضهم الأمر أن يختفوا عن الأعين رهبة ، وفضلوا أن يبقوا مختفين على أن يعودوا الى العمل .

ولابد لى من أروى وقائع حادثة لا أجد دون ذكرها مندوحة. فقد ترك كثير من العمال أعمالهم بالقرب من «فريولام» وأبوا أن يعودوا اليها رغم الجهد الذى بذله رجال السلطة معهم. وكان الجنرال « لوكن » Lukin فى ميدان الاعتصاب ومعه جنوده، وكان على وشك أن يأمر رجاله باطلاق النار، عندما تقدم اليه هندى باسل هبط تلك المدينة من دوربان هو سواريجى ابن «بارسى رستوجى»، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره وأمسك بأعنة الجواد الذى كان يمتطيه الجنرال وقال له. « لايجب عليك أن تأمر باطلاق النار. وعلى أن اقنع أبناء وطنى بأن يعودوا الى العمل » فأكبر الجنرال شجاعة هذا الشاب، وسمح له أن يجرب طريقة التفاهم الحبى فى فترة حددها له. ففاوض سورابجى العمال وأقنعهم فعادوا الى العمل. ولقد حال هذا الشاب بعمله هذا دون قتل الكثيرين بحضور ذهنه وبسالته وشفقته

وأصبحت الحياة فى مزرعة العنقاء حرجة شديدة. ورغم ذلك قام كل بواجبه، حتى ان الأولاد عهد اليهم بمهمات خطرة فأدوها بشجاعة وقبض فى ذلك الحين على مستر «وست» على الرغم من أنه لم يكن هنالك أى سبب يبرر القبض عليه. وكانت خطتنا التى رسمناها أن يعمل مستر وست وماجنلال غاندى جهدهما أن يتفاديا القبض عليهما. وعلى هذا عمل وست على أن لايعطى الحكومة أية فرصة تبرر بها القبض عليه. ولكن الحكومة كانت بعيدة عن أن تنظر فى الأسباب التى تترك

للقائمين بحركة الستياجراها بعض الرضى عن حالتهم ، ولم تتريث فى القبض على أى شخص يمكن أن يكون فى تركه حراً تأثير على أعصاب رجالها ، غير منتظرة قيام الأسباب التى تجعل القبض على ذلك الشخص مبرراً بوجه من الوجوه . وأصبحت شهوة أصحاب السلطة فى القبض على الأشخاص كافية لأن تلقى بمن شاءت فى غيابات السجون بسبب وبغير سبب .

ولما أن أبرقنا الى « جو كهال » ننبئه بخبر القبض على مستر وست، فكر فى أن يرسل الى جنوبى افريقية بضعة من أقدر رجال الهند ليمالحوا الحالة . وفى اجتماع عقد فى « لاهور » لتأبيد الستياجراهيين فى جنوبى افريقية ، أعلن مستر « أندروز » أنه يتنازل عن كل ما يملك من النقود تأييداً لحركتهم ومساعدتهم . ومنذ ذلك الحين رمقه « جو كهال » بعين الاجلال والاكبار . فلما وصله خبر القبض على « وست » أبرق الى « أندروز » يسأله ان كان على استعداد لأن يذهب الى جنوبى افريقية ، فلم يتردد أندروز لحظة فى قبول مقترحه . وأبدى صديق حميم من أصدقائه يدعى مستر «بيرسون» رغبته فى أن يصاحبه ، وترك الصديقان الهند الى جنوبى افريقية على ظهر أول باخرة قصدت بلاد حكومة الاتحاد .

ولكن المعركة كانت اذ ذاك فى أواخر أدوارها ، فان حكومة الاتحاد عجزت عن أن تحتفظ بآلاف من الرجال والنساء فى سجونها . وأصبح

الحاكم العام فى حالة نفسية لاتحتمل ذلك الحدث العظيم،وأخذت أنظار العالم تتجه نحو الجنرال « سمطس » لترى كيف يتصرف فى الأمر . ولقد عملت حكومة الاتحاد نفس ما تعمله أية حكومة أخرى تقف فى مثل موقفها . ولم تكن هنالك من حاجة للقيام بعمل تحقيق ، فان الخطأ الذى أدى الى هذه الحالة كان معروفاً ظاهراً ، واتفقت كل الآراء على أن الواجب يدعو الى اصلاح هذا الخطأ . وكذلك رأى الجنرال « سمطس » أن هنالك ظلما يجب أن يرفع . ولكنه كان فى موقف أشبه بموقف ثعبان ازدرد فأراً،فلا هو يستطيع أن يبتلعه، ولا هو يستطيع أن يلفظه . فانه كان قد قطع للأوروبيين فى جنوبى افريقية عهداً بأن لا يلغى ضريبة الثلاثة الجنيهات ولا أن يقوم بعمل أى اصلاح ينتفع به الهنود . ولكنه بدأ يشعر بضرورة الغاء هذه الضريبة ، وأن يلجأ الى تشريع يعالج الحالة ببعض الاصلاحات .ونحن نرى دائماً أن الحكومات اذا أحرج مركزها ونقصت حجتها أمام الرأى العام،تلجأ دائما الى تعيين لجان تقوم بتحقيق شكلى ، لأن كل ماسوف توصى به من الاصلاحات يكون مقرراً بالفعل فى الأذهان قبل أن تعرضه على الحكومة وعلى الناس . والسائد فى مثل هذه الأحوال أن الحكومه تقبل دائما ما توصى به مثل هذه اللجان ، وبهذه الوسيلة تقتنع الحكومات ، فتقبل التوصيات التى تقررها لجان التحقيق ، فتقر بذلك العدل الذى كانت ترفض من قبل الا أن يستقوى عليه الظلم والجبروت . ولذا عين جنرال

« سمطس » لجنة من ثلاثة ، أعلن الهنود بأنهم لن يثقوا بهـا مادام أن الحكومة امتنعت عن تلبية بعض طلبـات كانوا قد تقدموا بهـا للحكومة كأساس للتفاهم . ومنها أن المسجونين من الستياجراهيين يجب أن يخلى سبيلهم فى الحال ، وأن يمثل الهنود فى اللجنة عضو على الأقل . ولقد قبلت اللجنة الى حد ما قبول طرف من الطلب الأول، فأوصت الحكومة أن تخلى سبيل كلنباخ وبولاك وأنا، بحجة«أن بذلك يمكن أن يسهل طريق التحقيق فى مطالب الهنود بقدر المستطاع » . وأن يكون اطلاق سراحنا بغير قيد ولا شرط . وقبلت الحكومة هذا المقترح وأخلت سبيلنا بعد سجن دام ستة أسابيع. ولذلك أفرج عن مستر وست وكان قد قبض عليه من قبل ، لأن الحكومة لم تكن لديها من تهمة توجهها اليه .

ولقد وقع هذا كله قبل أن يصل مستر اندروز ومستر بيرسون ، فتلقيتهما فى دوربان . وكم كانت دهشتهما كبيرة عندما رأيانى ، لأنهما كانا يجهلان ما وقع من الحوادث التى تتالت خلال سياحتهما . وكانت هذه أول مرة ألتقى فيها بهذين الانجليزيين اللذين أقدر فيهما البسالة والقدرة الفائقة .

لما أفرج عن ثلاثتنا أخذنا العجب والامتعاض . فاننا لم نكن نعرف شيئاً من الحوادث التى وقعت . وهبطت علينا أخبـار تعيين اللجنة

كشيء جديد له دهشة وجدة ، ولكننا رأينا أننا لا نستطيع أن نتعاون معها على أية صورة من الصور ، وأول مابدا لنا فى الأمر هو أن الهنود يجب أن يعطوا حق تعيين ممثل واحد على الأقل ليشرح مظلمتهم للجنة . فلما وصلنا نحن الثلاثة الى دوربان حررنا خطابا الى جنرال « سمطس » مؤرخا فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ جاء فيه :

« نحن نرحب بتعيين لجنة التحقيق . ولكننا نعترض بشدة على تعيين مستر اسلن ومستر ايلى عضوين بها . وليس بيننا وبينهما أى عداء شخصي ، فانهما رجلان لهما شهرتهما ولا تنكر مقدرتهما . ولكن لما كان كلاهما قد أعلن فى مواقف كثيرة عداءهما للهنود ، فقد يحتمل أن يقعا فى شيء ينال الهنود منه ظلم من غير أن يكونا شاعرين بأنهما يظلمانهم . والانسان قلما يستطيع أن يغير مزاجه تغييراً كلياً . وانه لما يضاد قانون الطبيعة أن نفرض أن هذين السيدين يمكن أن ينقلبا الى ضد ما كانا دفعة واحدة . ولكننا مع ذلك لا نطلب أن يخرجا من اللجنة . بل نطلب أن يضم اليها فى اللجنة رجال عرفوا باستقلالهم فى الرأى وعدم تحيزهم ، نذكر منهم سير جيمس روز إنز والنبيل و .ب . شرينر كلاهما معروف بعدله وحبه للانصاف . وطلبنا الثانى، ينحصر فى أن يطلق سراح الستياجراهيين جميعا، فاذا لم يحدث هذا، فانه يصعب علينا أن نبقى خارج السجن اذ ليس هناك أى مبرر يجيز بقاء الستياجراهيين فى السجن الى الآن . وثالثاً اذا طلب منا أن نبحث عن الاستعلامات

الضرورية للتحقيق ، وجب علينا أن نذهب الى المناجم والمعامل التى يعمل بها العمال المتعاقدون لنتم عملنا . فاذا لم تجب هذه الطلبات ، فاننا نأسف أن نصارحكم بأننا سوف نبحث عن وسائل أخرى تؤدى بنا إلى السجن » .

ولما سمع « جو كهال » أننا نتأهب لزحف آخر أبرق الينا برقية مطولة قال فيها اننا إذا خطونا هـذه الخطوة أوقفنا لورد هاردنج وأوقفناه فى موقف حرج ، ونصحنا بشدة أن نعدل عن هـذا الزحف ، ونعاون اللجنة بأن نعرض عليها البيانات التى تسهل مهمتها .

ولقد وقعنا بذلك فى معضلة كبرى . فان الهنود كانوا قد تعاهدوا على مقاطعة اللجنة اذا لم ينضم إليهـا أفراد يرضيهم أن يكونوا بين رجالهـا . وقد يمتعض لورد هاردنج أو يتألم جو كهال من تصرفنا ، ولـكن كيف نرجع عن عهـد قطعناه ، وكيف ننكص عن خطوة خطوناها ؟ وتقدم الينا مستر أندروز ينبهنا الى صحة مستر « جو كهال » المتهدمة، ويبين لنا عن مقدار ما يؤثر فيه عملنا اذا صدمناه تلك الصدمة القوية بأن نستمر فى خطتنا . والحقيقة ان هذه الاعتبارات لم تغب عن ذهنى أبداً . فعقدنا اجتماعا من الزعماء وخرجنا من البحث بقرار أن مقاطعة اللجنة يجب أن تستمر مهما كانت النتائج اذا لم تسمح الحكومة باضافة أعضاء آخرين الى هيأتها . وبهذا القرار أرسلنا برقية مطولة الى « جو كهال » وافق عليها مستر أندروز وقد جاء فيها

« اننا نعرف مقدار الألم الذى تتحملة فى سبيلنا ، وعلى هذا كنا نرغب فى أن نتبع مشورتك ولو ضحينا فى سبيلها أكبر تضحية . كما أننا نعترف بأن لورد هاردنج قد أمدنا بمساعدة لا تقدر قيمتها ، ونود أن نكون جديرين بأن نحظى بمثلها حتى النهاية . ولكننا مع هذا نرغب فى أن تقف على حقيقة مركزنا . وينحصر الأمر فى أن ألوفا من الرجال قد قطعوا على أنفسهم عهداً لا يمكن أن يرجعوا عنه فى حين أن المعركة التى خضنا غمارها من المبدأ إلى النهاية قد قامت على قاعدة احترام العهود التى كنا نقطعها . ولا شك فى أن الكثيرين منا كانوا ولا شك يتركون الميدان لولا قوة العهود التى كنا نتعاهد عليها . كما أن الروابط الأدبية لا شبهة تنحل تواً اذا نكص آلاف من الرجال دفعة واحدة عن موقف وقفوه وكلمة أجمعوا عليها . على أن العهود التى تعاهدنا عليها ، لم نجمع عليها إلا بعد أن قتلنا الموقف بحثا وتأملا ، ووجدنا أن تمسكنا بعهودنا لا ينافى أى شرعة من شرائع الآداب المرعية . ولا يخفى أن الجالية الهندية لها الحق المطلق فى أن تقاطع اللجنة من غير أن يوجه لها أى لوم . والذى نرغب فيه رغبة أكيدة هو أن تكون نصيحتك لنا أن لا نرجع عن عهد كهذا يجمع بين ارادة الآلاف من الرجال وأن نقف جميعاً موقف الوحدة التامة مهما ترتب على موقفنا من النتائج . وأنا لنرجو أن تطلع لورد هاردنج على هذه البرقية . وأملنا أن لا تقف من

جرائها فى موقف ضعيف . اننا بدأنا هذه المعركة متخذين من الله شاهداً ومرشداً » .

ولقد أثرت هذه البرقية فى صحة « جوكهال » أسوأ تأثير . ولكنه ظل يساعدنا ويعدنا بأكثر مما أمدنا به من التأييد والحماسة . وأبرق الى لورد هاردنج يشرح له حقيقة الموقف . فلم يرفض بذلك أن ينفض عنا ويلقى بنا فى خضم المعترك ، بل ثبت على تأييدنا ووافق على وجهة نظرنا وكذلك كان شأن لورد هاردنج معنا . فانه ثبت على تأييدنا .

وذهبت إلى بريتوريا مصطحبا مستر أندروز. ولقد وقع فى هذه الآونة بالذات اعتصاب قام به عمال سكة الحديد الأوروبيون مما جعل الحكومة تشعر شعوراً تاماً بحرج موقفها . ودعيت الى أن ابدأ الزحف بجنودى الهنود فى تلك الفرصة السانحة ، وبذلك أساعد المعتصبين فى عمال سكة الحديد ، وأربح المعركة بأن أملى على الحكومة شروطى . ولكنى بادرت بأن أعلن أن الهنود لا يساعدون بهذا العمل عمال سكة الحديد ، لأنهم لم يعتصبوا ليربكوا الحكومة ، وان خوضهم المعركة ليقتحموا ميدانها انما يرمى الى غرض غير هذا . وانه اذا كان ولا بد من أن نبدأ الزحف ، فاننا لن نبدأ به الا بعد أن ينتهى إعتصاب عمال سكة الحديد . ولقد أحدث هذا القرار أثراً عميقاً فى النفوس ، ونقله روتر الى انجلترا . فأبرق الينا لورد « أمبثيل » يهنئنا على هذا القرار . وصارحنى أحد مساعدى حتى البسطاء قائلا — « انى لا أحب أهل وطنك ، ولا [illegible]

أن أمد اليهم يد المساعدة بحال من الأحوال . ولـكن كيف أستطيع أن اتصرف ازاء ماتعمل ؟ انك تساعدنا فى وقت الحاجة . فـكيف نفـكر فى أن نقبض عليك أو نأسرك . اننى أود لوأنك تنزع الى أعمال العنف كما يفعل عمال سكة الحديد ، وبذلك تؤدى لنا أكبر خدمة بأن تفتح لنا طريق التصرف معك . ولـكنك تحض على ترك العنف وتوصى بعدم فعل الشر حتى بالاعـــداء . انك تنشد الانتصار من طريق المشقة والاحتمال وتعذيب النفس ، وتراعى فى خطتك حدود الآداب المرعية والبسالة . وهذا مايوقفنا موقف العاجز مكتوف اليدين » ـ وكذلك عبر جنرال سمطس عما يشابه هذا من العواطف .

ولم تـكن هذه هى الحادثة الأولى التى عبر فيها أناس من مضادينا عن عواطفهم العميقة تلقاء مايبدي الستياجراهيون من ضروب البسالة النادرة . فانه عند ماأضرب العمال الهنود فى منطقة الشواطىء الشمالية ، تعرض المزارعون فى جبل « إدجكومب » الى خسارة فادحة اذا لم ينقل القصب الذى قطع إلى المعامل ليعصر حالا . فرجع ألف ومائتا هندى الى العمل، ولم يرجعوا الى اخوانهم المضربين الا بعد أن قاموا بهذا الواجب. واذكر أيضا أنه عند ماأضرب العمال الهنود فى بلدية دروبان، أرجعنا العمال الذين كان يعهد اليهم بالعمل فى المجارى الصحية والمرضين فى المستشفيات. فلم يرفضوا الرجوع الى أعمالهم . ولا شـك فى أن الأعمال الصحية اذا

بهم المستشفيات ، فان المدينة كانت تجتاحها الأمراض ، ويحرم المرضي من المساعدات الضرورية · ولم يقبل مؤمن بمبدأ الستياجراها أن يكون سبباً فى مثل هذا أو يتحمل مسؤولية مثل هذه الكارثة . ولذا استثنينا العمال الذين يعملون فى مثل هذه المهام · فانه على الستياجراهى أن ينظر فى كل خطوة يخطوها موقف عدوه ومركزه . وكنت أستطيع أن ألحظ ان كل عمل من أمثال هذه الأعمال الباسلة كان يترك أثره غير الظاهر فى القلوب ويرفع من قدر الهنود ويهيئ الجو للتفاهم على قاعدة معقولة .

ولقد تهيأ الجو للتفاهم بالفعل . وكان سير بنيامين «روبرتسون» الذى أرسله « لورد هاردنج » فى سفينة خاصة على وشك الوصول الى جنوب افريقية فى ذات الوقت الذى ذهبت فيه مع اندروز الى بريتوريا · ولكننا لم ننتظر مقدمه وسافرنا ، لأنه كان علينا أن نصل الى بريتوريا فى اليوم الذى حدده جنرال سمطس · ولم يكن هنالك سبب حقيقى يدعونا الى انتظاره ، لأن النتيجة التى نرغب فيها ، لا سبيل اليها الا بقوة ايماننا .

ووصلت ومعى اندرو الى بريتوريا · ولكن كان على بمفردى أن أفاوض جنرال سمطس . وكان الجنرال فى ذلك الحين مشغولا باعتصاب عمال سكة الحديد ، وقد كان اعتصابا ذا مظاهر خطيرة، حتى لقد اضطرت حكومة الاتحاد أن تعلن الأحكام العرفية . فان العمال الأوروبيين لم يقتصروا فى مطالبهم على زيادة الاجور ، بل بدؤوا يعتدون

على السلطات محاولين أن يقبضوا على عنان الأمور دون الحكومة . وكانت أولى مفاوضاتى مع جنرال سمطس قصيرة ، ولكنى رأيت منها أن الجنرال لم يعتط فيها نفس الأشهب الذي كان يمتطيه من قبل ، عند مابدأنا بالزحف الأول . فانه لم يبد من الاستعداد لمناقشتى ماأبدى الآن . ذلك فى حين أن سلاح الستياجراها الذى لجأنا اليه فى الأولى كان هو نفس سلاحنا الذى نهدد به فى الثانية ومع هذا فقد رفض فى الاولى أن يدخل معنا فى مفاوضات ، أما فى الثانية فقد أبدى استعداده لأن يبحث معنا الموقف من جميع وجوهه .

ولقد وصلت مع الجنرال الى اتفاق مبدئى ، وأوقفت حركة الستياجراها لآخر مرة . لقد فرح بذلك كثير من أصدقائى الانجليز . ووعدوا بأن يمدوا يد المساعدة فى اتمام الاتفاق النهائى . ولقد لاقيت بعض المصاعب فى أن أحمل اخوانى الهنود على قبول هذا الاتفاق . فذكرنى بعضهم بما كان من خلف سمطس لوعده سنة ١٩٠٨ بل قالوا « ان جنرال سمطس قد تلاعب بنامرة من قبل ، ويؤسفنا أنك لم يفد فيك ذلك الدرس ووثقت به مرة أخرى . ولا شك فى أن الرجل سوف يخونك مرة اخرى ، كما أننا لانشك فى أنك ستضطر الى اعادة الدعوة للقيام بحركة الستياجراها مرة أخرى. ولكن من من بنى جلدتك سوف يجيب دعاءك ؟ وهل تتصور ان الناس يكونون مستعدين دائما لأن يذهبوا الى السجن كلما دعوا لذلك ؟ وان لايكون لهم من وراء ذلك الا

الفشل مع رجل كالجنرال سمطس لا يلبث ان ينكث عهده بمجرد أن يعاهد عليه ؟ » .

وكنت على يقين من أن مثل هـذا الاعتراض سوف يوجه الى ، ولذلك لم أؤخذ بالعجب ولا بالاندهاش عنـد ما واجهنى به اخوانى . فليس من المهم أن يغش الستياجراهى ويخدع ، بل عليه أن يثق بمناقشه مادام بعيداً عن ان يجد أسباباً لعـدم الثقة به . والألم للمؤمن بمبدأ الستياجراها كاللذة تماماً. ولذا لايجب عليه أن يرتبك بمجرد أن يتصور الألم أو يخاف الشدة ، فيلقى بنفسه فى أحضان الشك وعـدم الثقة . ومن جهة أخري فان الستياجراهى مادام معتمدا على قوته الذاتية ، فلا يهمه اذن أن يخدعه منافسه . فان عليه أن يثق مما تـكررت الخيانات وتنوعت المـكائد وتلونت الخدع ، ويؤمن أنه بثقته هذه انما يزيد الحق قوة وبطشاً ويقرب أوان الانتصار .

وعقدت الاجتماعات فى محال متفرقة ، ونجحت فى النهاية فى أن أحمل الهنود على قبول مبادىء الاتفاق . وهنـا بدأ الهنود يفهمون معنى الستياجراها فهما أدق وأعمق . وكان اندروز هو الوسيط والشاهد الأوحد على مواد الاتفاق . ولو أننى كنت تشددت وعاندت فى قبول هذا الاتفاق ، فلا شك فى أن عنادى كان يتخذ وسيلة لاتهام مرامى الهنود، وسلاحاً يستعمل ضدهم بشدة وعنف ، ولما استطعنا أن نصل الى النصر النهائى الذى فزنا بثماره فى خلال ستة الأشهر التالية ، الابعد زمن

طويل . ان الحكمة السنسكريتية القائلة بأن «الغفران تاج الباسل» — قد تقضى على الستياجراهى بأن لايترك لأى انسان أية وسيلة لأن يجد فى تصرفه منفذاً للخطأ . وعدم الثقة دلالة على الضعف ، ومبدأ الستياجراها إنما يتقى كل أسباب الضعف ومعه عدم الثقة والشك ، مادام أن الستياجراهى لايرمى الى تحطيم خصمه بل يرمى الى اجتذابه نحوه ورده الى المعقول .

ولما انتهت هذه المعركة كان « جوكهال » فى انجلترا وأرسل الى طالباً أن الاقيه هنا لك . وفى شهر يولية سنة ١٩١٤ سافرت مصحوبا بمستر كلنباخ وكوستربای الى ثغر «سوزمبتون» بانجلترا .

وعند مابلغنا جزر «ماديرة» بلغنا أن الحرب العظمى على وشك أن تنشب . ولما وصلنا بحر المانش سمعنا أنها نشبت بالفعل ، وتعطل سفرنا حيناً من الزمن . وكان من الصعب أن تقاد السفينة فى البحر بعد أن بثت الغواصات فى أنحائه ألغامها الفتاكة ، فلم نصل الى سوزمبتون الا بعد يومين قضيناهما فى سياحة شاقة .

ولقد أعلنت الحرب يوم ٤ أغسطس ، غير أننا لم نصل لندن إلا فى اليوم السادس من ذلك الشهر .

ولما وصلت لندن علمت أن « جوكهال » فى باريس لا يستطيع العودة ، ولما كانت كل المواصلات قد قطعت بين لندن وباريس ، لم يتيسر لى أن أعرف متى يعود . ولم أكن أرغب فى العودة الى وطنى

قبل أن أراه ، ولـكن لم يستطع أحد أن يعرف بالضبط متى يعود ·

بقى على أن أفكر فيما أعمل فى تلك الفترة ؟ وما هو واجبى نحو الحرب ؟ وكان « سورايجى أداجانيا » رصيفى فى السجن وأحد زملائى فى حركة الستياجراها يدرس القانون فى لندن . ولما كان هذا الشاب من أخص المؤمنين بمبدإ الستياجراها ومن أوقف الناس على روحها ، أرسلناه الى لنــدن ، حتى اذا فاز بشهادة المحـاماة حل محلى فى جنوبى افريقية · وفى طريق اتصالى به قابلت « جفراج مهتا » وغيره من الهنود الذين كانوا يدرسون فى انجلترا ، وبعد المناقشة عقـدنا اجتماعا حضره كل الهنود القيمين فى انجلترا وايرلندا ، ليستمعوا مقترحاتى .

فقد كنت أشعر بأن الهنود القيمين فى لندن يجب أن يأخذوا بضلع فى الحرب ، فان الطلاب الانجليز قد تطوعوا فى الجيش، فعلى الهنود أن لا يكون حظهم أقل من حظ اخوانهم . فاعترض على مقترحاتى ، وقيل بأن الفاصل بين الهنود والانجليز ازاء الحرب واسع فسيح . واننا العبيد وهم الأسياد · فكيف يمكن للعبد أن يعاون سيده ومالك رقبته فى وقت حاجته اليه ؟ وان واجب العبــد يدعوه وهو يريد أن يتحرر أن ينتهز فرصة احتياج سـيده وشدته ؟ ولـكن هذا الرأى لم يقنعنى . وكنت أعرف الفارق البعيد بين الهندى والانجليزى من حيث المركز والعلاقة، ولـكننى لم أكن أعتقد أننا أصبحنا عبيداً بالفعل · بل كنت أعتقد أن

متاعبنا انما ترجع الى سفاهة الموظفين الانجليز ، أكثر من رجوعها الى الأسلوب الانجليزى فى مجموعه ، وان هؤلاء يمكن أن نربحهم لصفنا بالعطف والحب . فاذا أردنا أن نحسن مركزنا معهم من طريق معاونتهم ومساعدتهم فى الحرب ، فان من واجبنا اذن أن نقف بجانبهم فى وقت حاجتهم القصوى . على أننى وان كنت أعتقد اذ ذاك أن أسلوب الاستعمار الانجليزى فيه نقص وظلم ، الا أنه لم يكن قد بدا لى كل ما فيه من العيوب والنقائص التى أدركها الآن الادراك كله . أما وقد فقدت ثقتى بأسلوب الاستعمار البريطانى ، فانى أرفض الآن أن أعاون الحكومة الانجليزية بأى وجه من وجوه التعاون . ولذلك أعجب كيف أن أصدقاء كثيرين ، على الرغم من اقتناعهم بفساد ذلك الأسلوب بل وبالموظفين ، وعلى الرغم من فقدانهم كل ثقة به وبهم ، ما يزالون يعاونون الحكومة ويمدون لها يد المساعدة .

وكان من رأى الذين قاوموا فكرتى فى معاونة الانجليز فى الحرب ، أن باعلان الحرب قد حانت الساعة التى يعلن فيها الهنود مطالبهم الوطنية ليفوزوا بما يحسن مركزهم وطنياً وسياسياً . ولكن فكرى كان يتجه الى أنه لا يجب علينا أن نتخذ من حاجة بريطانيا وشدتها فرصة ننتهزها، وان من حسن السياسة وبعد النظر ، أن لا نعرض مطالبنا مادامت الحرب قائمة . ولذلك اتبعت رأيي ودعوت كل قادر من الهنود على

التطوع أن يشترك فى الحرب. وأجيبت دعوتى ، بأن اشترك فيها هنود من مختلف الأقاليم ومن مختلف النحل .

وحررت خطابا للورد « كرو » أخبره بهذه الحقائق وأعرفه بأننا على استعداد لأن نتلقى دروساً فى الاسعاف الحربى ، وان خطابى هذا يعتبر قبولا منا للقيام بهذا العمل . ولقد قبل لورد « كرو » ما عرضنا عليه بعد قليل من التردد ، وشكرنا اذ أظهرنا استعدادنا لخدمة الامبراطوية فى مثل هذا الموقف الحرج .

وكانت لندن فى ذلك الحين تعج بالمناظر التى يروق للمرء أن يراها ، فلم يكن هنالك ذعر ، ولكن كان الجميع فى شغل شاغل وكل منهم يعمل على قدر ما تصل استطاعته . فبدأ الأصحاء يتمرنون على الحرب وحركات الميدان . وبقى على الضعفاء والشيوخ والنساء مهام كثيرة، أهمها تجهيز الملابس والضمادات للجرحى فى الميدان ، والعائدين منه الى الوطن .

(ملحوظة — «اضطر مهاتما غاندى أن يعود الى طقس حار بعد اصابته بالتهاب « البلوره » ـ Pleurisy ـ فغادر انجلترا الى الهند فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ » . س . ف . أندروز)

تمت ترجمته ببرقين فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٣

فهرس الكتاب

الصفحة

تنبيهان

١ ــ جاء فى ص ١٤ أن غاندى ولد سنة ١٨٩٦ وحقيقة ميلاده سنة ١٨٦٩

٢ ــ نشرت خمسة الفصول الاولى من هذا الكتاب بمجلة المقتطف الغراء ، وقد أعدنا نشرها فى هذا الكتاب .

ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

بقلم الكاتب الشرقي الكبير

الاستاذ أمين سعيد

أول كتاب فى بابه باللغة العربية

جامع لسيرة ٢٠ ملكا وأميراً من ملوك الشرق وأمرائه ، ومزين بصورهم، وفيه بيان عن أحوال كل منهم ومعيشته اليومية ، ونشأته وعلومه وتاريخ بلاده السياسي . وفى الكتاب ١٥٠ وثيقة ومعاهدة سياسية ، وبيان مفصل عن القضية المصرية والسورية ، والثورات التركية والعربية والايرانية والمغربية والأفغانية وغيرها

ملوك الطوائف

ونظرات في تاريخ الإسلام

للعلامة دوزى ترجمة بقلم

كامل كيلانى

عرف العلامة المستشرق دوزى باخلاصه ودقته فى بحوثه عن الأندلس والمسلمين وقد ترجم هذا الكتاب الخالد بدقة وأمانة وعلق عليه المترجم تعليقات نفيسة فأصبح لايستغنى عنه باحث عربى يعنى بتاريخى الأندلس والاسلام

